في
ظلال الوحي

شرح بعض سور القرآن الكريم

د. صادق مكّي

دار مؤسسة الضياء
- بيروت -

جميع حقوق الطبع
محفوظة للمؤلف
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

دار مؤسسة الضياء
- بيروت -
٠١ - ٨١٧ ٤٢٧

فــي ظـلال الــوحي

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين "الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحق..." (الأعراف ٤٣).

من نعم الله تعالى على الإنسان، أن يقيّض له الجو الملائم لينمو فيه ويترعرع، ذلك النمو السليم الذي يؤسس لنشأة صالحة، ويهدي الى صراط مستقيم. هذه النعمة نشكر الله عليها شكراً لا حدود له لا في أوله ولا في آخره، إذ سقانا من معين القرآن أطفالاً وفتح عقولنا وقلوبنا كباراً، فلم يبق العلم تلقيناً تلهج به الألسن، ولا يدخل منه شيء الى القلب، ولا يتغذى به العقل. هذا العقل الذي كان كلّما تغذى بالقرآن اتسعت آفاقه، وانفتحت له الأبواب واحداً بعد واحد، وواحداً من واحد، فما ضاق بحملها، ولكنه كان كلّما غذيّته بالعلم اتسع، وصح فيه القول، قول سيد البلغاء علي عليه السلام: "كل وعاء يضيق بما فيه، إلا وعاء العلم فإنه يتّسع". وعشش في العقل شعور بالحاجة الى العلم والمعرفة، فكان يسعى في طلبهما وشعاره: "وقل ربّ زدني علماً".

وقد سارت بي الأيام على هذه الحال، وما ضاق ذلك الوعاء بما فيه، ولا هو اكتفى بمخزونه، وبقيت العين تشتاق الى الكتاب، وينتعش القلب بمجالسته، وتتغذى كل جارحة من الجوارح بنوره، وما همَّ، حتى لو شارفت الحياة على النهاية، فإن طريق العلم مفتوح دوماً للسالكين. وما همّ ودرب العلم مغروسة بما يبهج العين، ويسرّ القلب، ويشنّف الأذن، ويجري في العروق اليابسة فيحييها، ويعود إليها شبابها، وهي تعرف أنّ غذاء من هذا النوع، يسري في عروق متفتحة تشتهيه، وتتسابق عليه الجوارح لتحيا به... ولن يكون في الكون كلّه دواء مثله، ولا بلسم شافٍ يشبهه، ولا حياة للإنسان إلا به. هذه الحياة التي تتصل أولاها بأخراها، وتسير في الدرب الصحيح الذي يوصل الى نعيم مقيم.

واليوم، وقد استشعرت لذة العيش في ظلال الوحي، بعد أن صارت هذه الظلال الأمل الأوحد في الخلاص من سفاسف الحياة التافهة المثقلة بالهموم، المكدّرة بعواصف الزمن، الملوّثة بممارسات بني البشر، وعقولهم التافهة، والمغلقة، ومفاهيمهم السخيفة، في ظل حضارة مارقة، نشأت في مستنقعات الوهم، بعيداً عن المنابع العذبة، فأفسدت حياة بني البشر، فركنوا إليها، وكانت كلها فقاقيع صابون، تبهر الأطفال، أو كأنها تلك المفرقعات التي احتلت سماء الأيام في الاحتفالات الكبرى، تبهر الأبصار، وتصمّ الآذان، وتخلب العقول... ثم تتحول رماداً في لحظات من أغلى رماد أهل الأرض، وقد تُرك الكثيرون من الآدميين جياعاً عطاشى ومرضى. ولو أنصف أهل هذه الحضارة ومستوردوها لما كان على وجه الأرض فقير ولا محتاج ولا معذّب.

هذا الجحود البشري الذي يفتح بعض البصائر، ويهيج بعض العقول، فتفتش عن منجى من العقاب الإلهي... وما وجدت مثل دستور الدساتير أستوحيه، وأتفيّأ ظلاله، فيظلني بأحسن الظلال، وأسعد به، وأرتاح إليه، ويؤنس وحشتي في وحدتي... وأرى جادة الصواب مفتوحة على الجنان... وفي هذه الجادة محطات في منتهى الروعة والجمال، وفيها من الأنس ما يجعلك تنسى هموم الدنيا... وتقف عندها فترى درب النعيم أمامك مرسومة بمشاعل الأنوار الإلهية، وترى الطريق "لا عوج فيها ولا أمتا"، وليس لك إلا أن تسلك الطريق، ولا شك أنك غداً واصل الى النعيم، إذا كنت تجدّ السير، وتستفيد من الوقت، وتروّض النفس على هذا المسير، وتحدّد مراحلك، وتعرف المحطات، وتختار الصحاب، وتدير الظهر الى الدنيا وبهارجها...

وأول محطة أقف فيها هي عند "عروس القرآن" أعني سورة الرحمن، وقد عرفت بهذا الاسم. منها أبدأ، وعساي أستطيع أن أتفيّأ ظلالها أولاً، وعسى أن يتسع الوقت لأستفيد من باقي المحطات في هذه المسيرة الطويلة... والأمل أن أصل في نهاية هذا الدرب، الى النعيم.

د. صادق مكي

٢٠١٤/١١/٣٠

- ١ -

شرح سورة (يـس)

بسم الله الرحمن الرحيم

يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ
فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧)
إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨)
وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا
يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠)
إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ
كَرِيمٍ (١١)

٨ـ أغلالاً: قيوداً، مقمحون: يرفعون رؤوسهم فلا يرون شيئاً، أو يخفضونها حتى تصير في الصدر...

٩ـ فأغشيناهم: جعلنا على أبصارهم غشاوة (غطاء).

١٠ـ سواء عليهم: لا فرق عندهم.

- روى الرواة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: "إن في القرآن لسورة تدعى العظيمة عند الله تعالى، ويدعى صاحبها الشريف عند الله تعالى، يشفع صاحبها يوم القيامة في اكثر من ربيعة ومضر، وهي سورة يس.

وذكر أنها تدعى أيضاً المعمّة، والمدافعة والقاضية." ومعنى ذلك أنها تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة، وتكابد عنه بلوى الدنيا والآخرة، وتدفع عنه كل سوء، وتقضي له كل حاجة.

وعن رسول الله (ص) قال: "يس قلب القرآن". وهي سورة عظيمة الشأن، تجمع أصول الحقائق وأعرافها". وهي ثلاث وثمانون آية، لا يقرؤها عبد يريد الله تعالى والدار الآخرة إلا غفر له ما تقدم من ذنبه، وكتب الله تعالى له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات. وذكر بعضهم أنه يعطى من الأجر كمن قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة.

ويس في بعض الروايات أنها اسم من جملة أسماء رسول الله (ص). ولتسميته بهذين الحرفين سر جليل عند الواقفين على أسرار الحروف.

أما عن أسباب نزول هذه السورة الكريمة، فقد ورد في كتب التفسير:

في سبب نزول الآية الأولى: أنه كان رسول الله (ص) يقرأ في السجدة، فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش، فقاموا ليأخذوه. ولمّا همّوا بذلك إذا بأيديهم مجموعة الى أعناقهم، وإذا بهم عمي لا يبصرون. فجاؤوا الى النبي (ص) فقالوا: ننشدك الله والرَّحِمَ يا محمد. فدعا حتى ذهب ذلك عنهم. فنزلت "يس والقرآن الحكيم... الى قوله: أم لم تنذرهم لا يؤمنون". فقال النبي (ص): فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

وفي أسباب نزول الآية ٧٧: جاء أحد الكافرين (العاصي بن وائل) الى رسول الله (ص) بعظم، ففتّه، ثم قال: يا محمد: أيُبْعَثُ هذا بعد ما أرمّ (بلي)؟ قال رسول الله (ص): نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم. فنزلت الآيات: أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة"... الى آخر السورة.

ولمن قرأها أجر عظيم ومكانة رفيعة عند الله. وكذلك لمن سمعها أيضاً...

- وقد ابتدأت السورة الشريفة بـ"يس" على نحو القسم في مرحلة أولى، تبعه قسم آخر (والقرآن الحكيم).

ويؤتى بالقسم لتوكيد الكلام، وتبيان عظمة وقدر المقسَم به.
وإذا كان القسم هنا بالنبي (ص) فذلك لتعظيم شأنه وإظهار المكانة العالية التي له عند الله. ولا عجب فهو حبيب الله وأفضل الأنبياء وأعزّ المرسلين.

- ثم يأتي القسم الثاني بالقرآن الكريم "والقرآن الحكيم". وذلك أيضاً لأهمية القرآن الكريم عند الله تعالى، إذ جعله أعظم شأناً من أي كتاب سماويّ آخر، وجعله مهيمناً على الكتب السماوية كلها، وفيه الحكمة والشريعة والموعظة... وفيه علم كل شيء، وقد ورد عنه قول الله تعالى: "وما فرطنا في الكتاب من شيء" وكذلك: "مصدّقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومهيمناً عليه" سورة المائدة الآية ٤٨.

وما أعظم هذا القسم! وما أعظم المُقْسِم وهو الله تعالى: وقوله الحق والصدق، وهو لا يحتاج الى القسم أصلاً ليثبت ما يقول، ولكنه أتى بهذا القسم هنا ليغرس في نفس الرسول الكريم الثقة والطمأنينة، والشعور بمكانته الرفيعة التي له عند الله. ثم جمع في هذا القسم بين اسم النبي (ص) وبين القرآن الحكيم. وهذا الجمع يراد به تثبيت النبي (ص) بتبيان مكانته الرفيعة والعظيمة عند الله. ثم تأتي الآية الثالثة: إنك لمن المرسلين، وفيها توكيدان: إنّ، واللام. وفيها تأكيد على التكليف للقيام بمهام النبوة...

- ثم تؤكد الآيتان الرابعة والخامسة: (على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الحكيم.) ويحدّد الغاية من النبوّة: (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون...)

ويشعر القارئ بأن هذا التطمين للنبي (ص) قد بلغ غايته في نفس الرسول الأعظم، وأعطاه القوة العظيمة اللازمة لمتابعة رسالة السماء، والحجة على كل من ينكر هذه الرسالة، أو يشك فيها بأيّ نوع من أنواع الشك.

- ويأتي بعد ذلك وصف القوم الذي أنزل عليهم القرآن الحكيم بالغفلة عن الحقيقة الكونية. هذه الحقيقة التي حملها المرسلون جميعاً، وأنذر بها جميع الأقوام (وما من أمة إلا خلا فيها نذير) سورة فاطر، الآية ٢٤. ولكن هؤلاء القوم الذين أنذر آباؤهم ما استفادوا من هذه الإنذارات السابقة، ولا أخذوا العبرة مما حلّ بالشعوب القديمة التي كذبت المرسلين من العقاب الأليم.

وهؤلاء القوم، ونتيجة لموقفهم من النبي، وغفلتهم عن الحقيقة، وعدم تبصرّهم في ما حلّ بالشعوب السابقة... قد حق القول على أكثرهم، أي أن جرم تكذيب الأنبياء، وإنكار عبادة الله، وتقليد الآباء والأجداد والضالين... قد أثبت لهم العقاب الذي وعدوا به، وحذّروا منه، فلا مجال بعد للاعتراض عليه، ولا قبول لأية حجة يمكن أن يحتجوا بها لطلب العفو والرحمة التي لا يستحقونها.

- ثم يأتي وصف هؤلاء القوم الغافلين (في الآيات ٨ و ٩ و١٠)

ففي الآية الثامنة: يصوّر حالتهم بعد أن وضعت الأغلال في أعناقهم، فأثقلت هذه الأعناق، فانثنت حتى بلغت الصدور، فهم لا يرون شيئاً، ولا يملكون القدرة على التأمل في الأشياء والتفكير بها. وإذا هم رفعوا رؤوسهم فإذا هم يرفعونها كفعل الجمال التي جاءت الى الماء البارد ـ شديد البرودة لتشرب ـ فلم تستطع تحمّل برودته، ولم تستطع متابعة الشرب، فرفعت رأسها في ألم وحسرة... رغماً عنها، وحسرة على ضياع لذة الشارب الذي كان ينتظر اللحظة المناسبة ليروي ظمأه الذي كاد يقتله (مقمحون).

وفي الآية التاسعة: وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً... وهذا السدّ يمنع الرؤية، فلا يرى الإنسان ما أمامه (من بين أيديهم)، ولا من خلفه، فهو لا يرى شيئاً، ولا يدرك واقعه، ولا يتبين حقيقة أمره... كمن على بصره غشاوة. وهذه الغشاوة من أنواع العقاب الذي فرضه الله تعالى عليهم (فأغشيناهم فهم لا يبصرون).

وفي الآية العاشرة: وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. في هذه الآية يقرر واقعاً يعيشه هؤلاء القوم، فهم على حالة واحدة من الكفر والإلحاد، وعدم التصديق للأنبياء، فلاهم يقنعون بالنذر، ولا يفكرون في أحوالهم، ولا يحاولون استبدال السيء من معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم بالحسن الذي جاء به الأنبياء... فهم إذن في حالة ميؤوس منها، ولا يمكن إصلاحهم وهدايتهم.

وهنا يأتي السؤال: إذا كانت تلك حالتهم، فلماذا بذل الجهد معهم؟
ويأتي الجواب: هذه الإنذارات المتتالية والمتتابعة حتى لا يبقى (للناس على الله حجة بعد الرسل) (النساء ٦٥) و (ليهلك من هلك على بيّنة ويحيا من حيَّ عن بينة) (الأنفال ٤٢).

وهذا السؤال المطروح تردّ عليه الآية ١١ من السورة الكريمة : "إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم". فيكون هذا الإنذار لمن اتبع الذكر (القرآن) وخشي الرحمن بالغيب (دون أن يراه). وهذا الإنسان قابل للهداية، ومستعد لها، فهو يعمل بما ورد في القرآن الكريم. وهو يؤمن في قرارة نفسه بالله العليّ العظيم دون أن يراه (بالغيب) مستجيباً للفطرة التي فطر الله الناس عليها. والإنذار هنا ليس المقصود به التخويف والترهيب فقط، وإنما مع الترغيب والترهيب طمأنة هذا المؤمن الى حسن المصير، وتبشيره بأجر كريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ
إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا
بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا
يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ
(١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ
مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ
اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ
(٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ
مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا
وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آَمَنْتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)

١٢ـ أحصيناه: أثبتناه فلا يضيع.
ـ آثارهم: أعمالهم التي تبعهم فيها الناس
في إمام مبين: في اللوح المحفوظ.

١٣ـ القرية: انطاكية.
المرسلون: الأنبياء

١٤ـ عززنا بثالث: أتبعنا الرسولين برسول ثالث يدعمهما بعد أن كذّبهم الناس.

١٨ـ تطيّرنا بكم: تشاءمنا منكم.
لنرجمنكم: لنقتلنكم رجماً بالحجارة.

١٩ـ طائركم معكم: عندكم شؤم بسبب كفركم.
أإن ذكرتم: أتقتلوننا بسبب دعوتكم الى الإيمان؟
مسرفون: متمادون في الكفر.

٢٠ـ يسعى: يعدو، يركض.
والرجل هو حبيب النجار، الذي آمن بالرسل عند وصولهم الى القرية.
٢٢ـ فطرني: خلقني.

- أما كيف تتمّ التفرقة بين مؤمن وكافر، فهذا ما تجيب عنه الآية ١٢ من السورة الكريمة. ويتم ذلك على الأساس الآتي: "إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين".
يقول الله تعالى إنه يحي الموتى يوم القيامة لمحاسبتهم على أعمالهم في الحياة الدنيا. وكل ما فعلوه (ما قدّموا) مكتوب، يكتبه الملائكة الموكلون يحفظ كل إنسان "وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون" سورة الإنفطار الآيات (١١ و بـ ١٣). فلا يضيع عمل إنسان مهما كان "إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً" سورة الكهف الآية ٣٠".

وينتقل الحديث بعد ذلك الى إعطاء المثل الحي عن هذا المبدع (عدم إضاعة أجر من أحسن عملاً)، فيذكر حادثة من تاريخ الأنبياء (ع)، فيقص علينا القصّة التالية، نرويها بنصّها عن (مجمع البيان في تفسير القرآن) للطبرسي.

قالوا: بعث عيسى (ع) رسولين من الحواريين الى مدينة أنطاكية. فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنمات له، وهو حبيب صاحب يس. فسلما عليه. فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى؛ ندعوكم من عبادة الأوثان الى عبادة الرحمن. فقال: أمعكما آية؟ قالا نعم، نحن نشفي المريض، ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله. فقال الشيخ: إن لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنتين. قالا: فانطلق بنا الى منزلك نتطلع حاله. فذهب بهما، فمسحا ابنه، فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً. ففشا الخبر في المدينة. وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى.

وكان ملك يعبد الأصنام، فأنهي الخبر إليه، فدعاهما، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى، جئنا ندعوك الى عبادة من يسمع ويبصر.

فقال الملك: ولنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم، من أوجدك وآلهتك؟ قال: قوما حتى أنظر في أمركما. فأخذهما الناس في السوق، وضربوهما... وأمر الملك بحبسهما، وجلد كل واحد منهما مئة جلدة. فلما كُذِّب الرسولان، وضُربا، بعث عيسى شمعون الصفا رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما. فدخل شمعون البلدة متنكراً، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به، فرفعوا خبره الى الملك، فدعاه، ورضي عشرته، وأنس به، وأكرمه.

ثم قال له ذات يوم: أيها الملك، بلغني أنك حبست رجلين في السجن، وضربتهما حين دعواك الى غير دينك، فهل سمعت قولهما؟ قال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك. قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نطّلع ما عندهما. فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: من أرسلكما الى هاهنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء لا شريك له. قال: وما آيتكما؟ قالا: ما تتمناه. فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين، وموضع عينه في الجبهة. فما زالا يدعوان الله حتى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين، فوضعاهما في حدقتيه، فصارتا مقلتين يبصر بهما. فتعجب الملك. فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع صنيعاً مثل هذا، فيكون لك ولإلهك شرفاً. فقال الملك: ليس لي عنك سر: إن إلهنا الذي نعبده لا يضرّ ولا ينفع. ثم قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به وبكما. قالا: إلهنا قادر على كل شيء. فقال الملك: إن ههنا ميتاً مات منذ سبعة أيام، لم ندفنه حتى يرجع أبوه، وكان غائباً. فجاؤوا بالميت وقد تغيّر وأروح، فجعلا يدعوان ربهما علانية، وجعل شمعون يدعو ربّه سراً، فقام الميت، وقال لهم: إني قد مت منذ سبعة أيام، وأدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه، فآمنوا بالله. فتعجب الملك.

فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك دعاه الى الله، فآمن، وآمن من أهل مملكته قوم، وكفر آخرون.

وكان الميت الذي أحياه الله تعالى بدعائهما ابن الملك. خرج من قبره ينفض التراب عن رأسه. فقال له الملك: يا بنيّ، ما حالك؟ قال: كنت ميتا، فرأيت رجلين ساجدين يسألان الله تعالى أن يحييني.

قال: يا بنيّ، أفتعرفهما إذا رأيتهما؟ قال: نعم. فأخرج الناس الى الصحراء. فكان يمرّ عليه رجل بعد رجل. فمرّ أحدهما بعد جمع كثير. فقال: هذا أحدهما. ثم مرّ الآخر، فعرفهما، وأشار بيده إليهما. ولم يؤمن الملك، وأجمع هو وقومه على قتل الرسل. فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة، فجاء يسعى إليهم، يذكّرهم ويدعوهم الى طاعة الرسل."

وبمتابعة النص يتبيّن لنا من الآية الخامسة عشرة (١٥):

١ـ بأن القوم كانوا ينكرون الرسالات السماوية مطلقاً: "ما أنزل الرحمن من شيء".

٢ـ وفي اعتقادهم أن رُسُل السماء لا يكونون من البشر "ما أنتم إلا بشر مثلنا".

وجاء ردّ الرسولين: "قالوا ربنا يعلم أنا إليكم لمرسلون" ومعناها أن الله تعالى هو الذي أرسلنا إليكم، ونحن لا ندّعي الرسالة، وما جئنا إليكم من تلقاء أنفسنا. "وما علينا إلا البلاغ المبين" أي أن دورنا هو فقط إبلاغكم بالرسالة التي نحملها من الله.

وما اقتنع الناس بما قاله الرسولان، وما أحبوا أن يعرفوا تفاصيل هذه الرسالة ومحتواها.

- وينتقل الحوار بعد ذلك الى مرحلة جديدة، فيقول الناس: "إنا تطيّرنا بكم" ومعناها أنهم تشاءموا من وجود الرسولين بينهم، واعتبروا ذلك مقدمة لحوادث مزعجة قد تحدث لهم.

ولم يكتف الناس بهذا الردّ على الرسولين، بل أنذروهما: "لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم". فهم سوف يعذبون الرسولين عذاباً أليماً ينتهي بالرجم، وهو الضرب بالحجارة حتى الموت.
ويجيب الرسل؛ نحن لسنا سبب ما يصيبكم من الشؤم، بل إن هذا الشؤم سببه ثباتكم على الكفر، وعدم الاستماع الى المرسلين. "طائركم معكم". وها أنتم أيضاً ترفضون الاستماع إلينا، ومعرفة ما جئناكم به من عند الله، وها أنتم تهدّدوننا، وقد تجاوزتم الحد في الإنكار والكفر، والتعنت، والعناد. "أئن ذكّرتم". ويتابع المرسلان المواجهة مع الكفار فيقولون لهم: "بل أنتم قوم مسرفون".

في هذه الأثناء يصل حبيب النجار: "وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى"، جاء مسرعاً من بيته، وهو في أطراف المدينة، وهو يخشى أن يرتكب قومه مثل تلك الحماقة بقتل الرسولين. وقال لقومه: "يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون". ويقول حبيب النجار ذلك بعد أن شفا الرسولان ولده بإذن الله. وعندما سألهما عن الأجر الذي يريدانه امتنعا عن أخذ أيّ أجر على عملهما. واعتبر ذلك دليلاً على صدقهما، وأنهما يقومان بعملهما تنفيذاً للإرادة الإلهية، على غير ما يعمل العرّافون والمنجمون... الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً. وهذه النزاهة من الرسولين جعلت حبيب النجار يؤمن بهما رسولين، ويقول عنهما: "وهم مهتدون".

وفي سبيل أن يبين حبيب النجّار أنه على صواب في ما فعل، وما اعتقد في الرسولين، يكمل حديثه: "وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون" وهنا يعتبر حبيب النجار أن واجب الإنسان أن يعبد الله الذي خلقه، شكراً لهذا الخالق الذي منّ عليه بالحياة، وأكرمه، ورزقه، وأنعم عليه... وفوق ذلك كله، يقول حبيب النجار: "وإليه ترجعون". أي أن الذي خلق الناس ما خلقهم سُدى، وإنّما سيعيدهم إليه، ويجمعهم يوم القيامة، ويحاسب كل واحد منهم على أعماله...

ويستمر حبيب النجار في مناقشة قومه: "أأتخذ من دونه آلهة"؟ وهذا السؤال هنا تعجبي، أي أنه يبدي تعجبه مما يريدون منه، عندما يريدون أن يعتقد بآلهة أخرى مثلهم. وهو يستنكر ذلك منهم، وحجّته في هذا الاستنكار هي: "إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون". فهل يمكن للإنسان أن يعبد إلهاً لا يفيده بشيء. ويقدّم الدليل: إذا حلت بي مصيبة من المصائب (ضرّ) فهل يستطيعون أن يشفعوا لي عند الله؟ وهل تنفعني شفاعتهم؟ وهل هم قادرون على إنقاذي من هذا الضرّ الذي وقعت فيه؟

ويتابع حبيب النجار نقاشه مع قومه قائلاً: إن أنا فعلت ذلك، أي إذا عبدت إلهاً غير الله، لا ينفعني بشيء، ولا ينقذني من المصائب التي قد تحدث لي: "إني إذن لفي ضلال مبين". ويظهر جلياً للإنسان العاقل المفكر خطأ مثل هذه العبادة لغير الله. وهذا هو الضلال المبين" الجليّ الواضح...
ويختم حبيب النجار النقاش: "إني آمنت بربكم فاسمعون". يقول: بربكم، ولم يقل بربّي. وفيها تقرير أن هذا الإله الذي أؤمن به هو ربكم كما هو ربي، سواء اعترفتم له بالربوبية وعبدتموه، أو لم تفعلوا ذلك. وعلى هذا ينهي حديثه بلهجة حاسمة وحازمة. وفيها مع الحسم والحزم إشفاق عليهم، ونصيحة لهم: "فاسمعون".

بسم الله الرحمن الرحيم

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨)

- ويحق للقارئ أن يتساءل: كيف انتهى الحوار؟ وما كان موقف القوم من حبيب النجار؟

في الرواية أن قومه وطأوه بأرجلهم حتى مات. وأدخله الله الجنة، وهو فيها يرزق. وفي بعض الروايات أن قومه عندما أرادوا أن يقتلوه رفعه الله إليه، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء الدنيا. والمهم أنه دخل "الجنة" فلما دخلها قال:

"يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين". وهو بهذا التمني يشفق على قومه، فلو عرفوا ما صار إليه، لعرفوا ان الحق معه، وأطاعوه، وعبدوا الله وحده، وكان لهم شأن عند الله مثله، وخلصوا من عقاب المشركين والكافرين. ويعني بقوله: وجعلني من المكرمين: أي أنّه كرّمني كما يكرّم كل مؤمن مخلص في إيمانه لله، ويتبع سبيل الله، ويصدّق برسله، وبرسالاتهم.

ثم تأتي الآية الكريمة: "وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنّا منزلين". والمراد بها أن غضب الله تعالى قد حلّ بهم سريعاً، وما كان الأمر يحتاج بعد ذلك الى أن ينزل الله تعالى جنوده من السماء، وهم الملائكة ليعاقب هؤلاء القوم المذنبين الجاحدين الكافرين. وتتابع الآية: (وما كنا منزلين)، أي أن مثل هؤلاء القوم قد بلغوا الغاية في الكفر، ولا مجال لمهادنتهم، كما لا مجال لإنذارهم علّهم يعودون عمّا هم عليه.

والمهم أن الله تعالى قد أهلكهم. ولكن كيف كان ذلك؟

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً
عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠)
أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ
(٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَهُمُ
الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ
(٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ
الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ
(٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ
وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)

٢٩ ـ خامدون: ميتون دون حراك.

٣٢ـ محضرون: مجموعون يوم القيامة للحساب.

٣٣ـ آية لهم الأرض الميتة: دليل على قدرة الله تعالى...

٣٦ـ سبحان: أسبحه وأحمده
الأزواج: الأصناف والأنواع من النبات والإنسان

- وتشير الآية ٣١ من السورة المباركة الى الطريقة التي أهلك الله تعالى بها هؤلاء القوم الكافرين: "إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون". وفي التفاصيل أنه لمّا قتل هؤلاء القوم حبيب النجار غضب الله عليهم فبعث جبرائيل، فوقف بباب المدينة ثم صاح صيحة عظيمة فماتوا جميعاً.

- ويكثر الحديث في القرآن الكريم عن (الصيحة) التي جعلها الله تعالى وسيلة من وسائل عقاب المجرمين الكافرين وإفنائهم. وقد ورد الحديث عنها في سورة هود (٦٧ و٩٤) والحجر (٧٣ و ٨٣) والمؤمنون (٤١) والعنكبوت (٤٠) ويس (٢٩و ٤٩ و ٥٣) وص (١٥) و ق (٤٢) والقمر (٣١).

- ثم تأتي الآية الكريمة: "يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون". وورد في التفاسير أن هذا الكلام هو كلام الله تعالى. (وقيل سوى ذلك). وإذا أخذنا بالقول الأول على أنه هذا الكلام هو كلام الله تعالى فهذا يبين ما يأتي:

١ـ أن الله تعالى عندما خلق الإنسان وجعله في الأرض خليفة، وكرّمه، وفضّله على كثير من الخلائق... أتبع ذلك بأن حدّد له سُبُل الحياة السعيدة، بوضع الشريعة الإلهية المباركة التي تؤمن للإنسان حياة سعيدة ناعمة، هادئة مطمئنة... وأمّن له جميع مقوّمات هذه الحياة. ثم أرسل الأنبياء مبشرين ومنذرين، يعلمون الناس ويهدونهم سبل السلام... وهذا كله من جملة العناية الإلهية بالإنسان، ومن وسائل تكريمه. وقد أخبره بالخطة المرسومة لمسيرة الخليقة الإنسانية في الحياة الدنيا الفانية، وصولاً الى الحياة الآخرة الباقية، والتي يخلد فيها المؤمنون.

ولكن الإنسان ظلم نفسه فأضاع كل النعم التي أنعم الله تعالى بها عليه، ولم يقدر الأمور حق قدرها، فطغى، وبغى، وتجبّر، وتكبّر، وعصى، وخالف الإرادة الإلهية، وأنكر الإله، وما آمن بالمرسلين...

والله تعالى هو الرحمن الرحيم كما وصف نفسه، وقد كان خلق الإنسان لغاية تكريمه، وكانت الشريعة لتأمين سعادته... فلم يفهم ذلك. أفلا يستجلب ذلك كله الحسرة على هذا الإنسان الذي ظلم نفسه؟ ثم ألا يستجلب ذلك الإنكار عند صاحب النعمة التي أنعم بها على الآخرين، أن لا يفهم هؤلاء غايته، ولا يستفيدوا من كل عطاياه، ولا يحققوا الغاية التي من أجلها خلقهم؟!

"يا حسرة على العباد" فيها هذا التأسي على بني البشر من عباد الله، وهذه الحسرة سببها الإشفاق عليهم، والرحمة لهم في مقابل ما تبيّن له من جهلهم، وسوء تدبيرهم، وعدم تقدير الأمور حق قدرها.

أما سبب هذه الحسرة فتذكرها الآية الكريمة: "وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون"، وكان أحرى بهم أن يستفيدوا من وجوده بينهم ليعلمهم، ويرشدهم، ويأخذ بأيديهم في طريق الصواب.

وسبب آخر، وهو أن هؤلاء العباد لم يستفيدوا مما يذكره لهم التاريخ، ويعرفونه عن آبائهم وأجدادهم من سير الشعوب القديمة (القرون) التي أخطأت، وحاربت الرسل، وطغت، وتجبرت، وأفسدت، وما استفادت من الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم، فأهلكهم الله. وهؤلاء المهلكون من هذه الشعوب كانوا يتمنون لو يعطون فرصة بالعودة الى حياة جديدة، يستطيعون فيها تبديل مسيرتهم، وإصلاح ما فسد من أمورهم... ولكن هذا مستحيل، وكان الأجدر بهم أن يأخذوا العبرة من سِيَر الماضين: فمن مات لا يعطى فرصة بحياة ثانية قبل يوم القيامة تعوّض ما فاته في حياته الأولى.

وسبب ثالث أيضاً، وهو أن الناس (العباد) لا يؤمنون بالحشر، وعودة الإنسان الى الحياة للحساب. وهذه العودة مفروضة حتماً على العباد ـ جميع العباد ـ دون استثناء، ليس بإرادتهم، وإنما بمشيئة إلهية، تمهيداً لحياة الخلود في الجنة، والتي لا يفوز بها إلا المتقون المؤمنون، العاملون بما أمرهم الله، المصلحون في مجتمعاتهم...

- ويعود الله تعالى الى ضرب الأمثال على الحياة بعد الموت. فيأخذ هنا مثلاً من الأرض الميتة: هذه الأرض الميتة غابت عنها الحياة بالموت الذي أصابها، فلا يرى الإنسان شيئاً يؤكد له تلك الحياة الجديدة. ولكن الحياة لا تنتهي، وهي تكمن في هذه الأرض مستورة حتى تأتي الظروف المناسبة، فتنمو، وتعود الى الحياة من جديد، مثل الأرض التي تحتضن الحبوب، وجذور النباتات، وبذورها... يحييها الله تعالى بالمطر، فتنمو، تكبر، وتزهر، وتثمر... وتعطي حبوباً يأكلها الإنسان.

ويخلق الله في هذه الأرض ـ من بعد موتها ـ جنات من:
١ـ نخيل
٢ـ وأعناب
٣ـ وينابيع تتفجر منها فتسقي هذه الجنات.

والغاية من هذا كله تسهيل الأمور على الإنسان، بتأمين موارد الرزق له من الطعام والشراب.
والملاحظة الرائعة هنا هي: أن ما يحصل عليه الإنسان من ضرورات الحياة من الطعام والشراب يعتمد على أمرين:

١ـ مما جاد الله تعالى به عليه من نبات الأرض.
٢ـ ثم من عمل الإنسان الذي يسعى للاستفادة من ذلك الجود الإلهي، بشتى أنواع الاستفادة من الفلاحة والزراعة، وتربية الماشية، وبناء البيوت، وكل إبداعات الإنسان انطلاقاً من المادة التي أمده الله بها.

- وإذا تأمل الإنسان في ذلك كله، أفلا يرى فيه تكريماً من الله تعالى له، وتسهيلاً عليه، وكفاية له، وتلبية لمطالبه، وتحقيقاً لحياة هانئة سعيدة؟
ثم أفلا يستحق ذلك كله شكر الله المنعم على كل هذه النعم؟ أفلا يشكرون؟

- ونظرة تأملية متعمقة في هذه الحقيقة فهل يهتدي الإنسان الى الصانع المبدع العظيم، والى الخالق الكريم الذي نظّم الخليقة على أساس أنه جعلها أزواجاً ـ في كل شيء ـ من زوجين اثنين، ذكر وأنثى، في الإنسان، والحيوان، والنبات (مما تنبت الأرض ومن أنفسهم)...

- ثم يشير الله تعالى الى عامل ثالث قد يكون هو الأهم، بقوله تعالى: (ومما لا يعلمون). ويعني بها هنا الإرادة الإلهية، وهي إرادة خفية لا يعلمها الناس، ولولا هذه الإرادة والمشيئة ما كان ليحدث كل ذلك!
فسبحان الله، سبحان الله العلي العظيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
(٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ
(٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

٣٧ـ والآية الثانية: الليل، وهو عندما تغيب الشمس فيذهب نورها، ويحل الظلام.

٣٨ـ والآية الثالثة: الشمس تسبح في الفضاء حتى تبلغ غايتها.
٣٩ـ والآية الرابعة: القمر الذي يمر بمراتب وأطوار من أول الشهر الى آخره.

العرجون: عنق النخلة: دقيقاً كالقوس، أصفر اللون.
٤٠ـ ينبغي لها: في مقدورها (غير مسموح لها).
كلٌ: كل واحد من الشمس والقمر.
فلك: إطار محدد، مسيرة لا تتغيّر

- ثم يأتي الحديث عن آية أخرى من آيات الله وهي آية خلق الليل، والنهار، والشمس والقمر... وما يترتب على ذلك من نظام كوني يجعل هذه المخلوقات تتآلف، وتتناسق، وتتكامل ضمن هذا النظام الثابت الذي لا يمكن خرقه أو تجاوزه، وهو على مقدار من الدقة التي تستثير العجب، ويقف الإنسان عندها حائراً أمام خالق هذا الكون العظيم، وهو الله الذي أتقن صنع كل شيء (صنع الله الذي أتقن كل شيء) (النمل ٨٨). ويقضي هذا النظام بأن ينسلخ النهار من الليل، بعد أن كان الليل مسيطراً، وكان كل شيء في ظلام. ثم كان ليل ونهار. (أو كان نهار وليل...)

ولا تفصّل الآية الكريمة هنا فائدة هذا الفصل بين الليل والنهار، وإنما تشير إليه هنا فقط، ويأتي تفصيله في أمكنة أخرى من القرآن الكريم: (البقرة ١٦٤، آل عمران ١٩٠، والأنعام ٩٦، ويونس ٦ و ٦٧ والرعد ٣، والنحل ١٢ ، والإسراء١٢، والأنبياء ٣٣، والفرقان ٤٧، والنمل ٨٦...)

- ثم يأتي الحديث عن الشمس فهي (تجري لمستقر لها) وهو هنا يذكر سراً من أسرار الكون. وهذا السر هو أن مسيرة الشمس سوف تنتهي بأن تستقر الشمس في (مستقر لها). وقبل أن يأخذك العجب لما تسمع ـ ولم تكن قد سمعت مثله من قبل ـ تسارع الآية الى إطفاء جذوة التعجب مما تسمع ولا تكاد تصدق، فإذا هذا التدبير هو (تقدير العزيز العليم). فهل يمكن للإنسان بعد ذلك أن يجادل في قَدَرٍ قدّره الله؟ أما متى يكون ذلك وكيف، فهذا متروك للإرادة الإلهية، وهو (العزيز) أي القادر، والمدبّر، والمرِيد... كما هو (الحكيم)، وهو المدرك تمام الإدراك لكل ما يفعل، ويؤقته في الوقت الذي يشاء، ويعلم ما يترتب عليه وما ينتج عنه، وله غاية لا يدركها غيره.

- أما القمر، فيقول تعالى عنه (قدرناه منازل)، وهذه المنازل يراها الجميع، ويعرف أسرارها أهل الاختصاص في علم الفلك، ويفهمون دلالاتها... وهو (القمر) يبدأ صغيراً، ويكبر ويكبر حتى يصير بدراً، فيكتمل، ثم يتناقص بعد ذلك ويتناقص حتى يعود كأنه عود يابس...

- أما عن العلاقة بين الشمس والقمر فهي ثابتة: فلا الشمس ينبغي لها (تستطيع أو يكون في مقدورها) أن تدرك القمر، فلا يجتمعان أبداً. ولا الليل سابق النهار، ويعني ذلك أن انتظام علاقة الشمس والقمر يؤدي الى انتظام الصلة بين الليل والنهار، فلا يسبق أحدهما الآخر.

- أما كيف حصل هذا الانتظام، فهو ناتج عن أن لكل من الشمس والقمر فلكاً يسبح فيه ولا يتجاوزه، ولا يتعارض مع فلك غيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)
وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ
فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا
وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)

٤١- والآية الخامسة: إنجاء المؤمنين في سفينة نوح التي تعجّ بالناس...

٤٢- من مثله: سُفُناً من نوع آخر ويعني الجمال التي هي من سفن الصحراء.

٤٣- لا صريخ لهم: لا أحد يسمع صراخهم فينقذهم.

- أما الآية الخامسة (في الآية ٤١) فهي ان الله تعالى قد نجّى نوحاً ومن كان معه من المؤمنين عندما هدى رسوله نوحاً الى صنع السفينة (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا سورة هود ٣٧، وسورة المؤمنون ٢٧). وبهذا الوحي الذي استجاب له نوح كانت نجاة تلك الذرية في ذلك الفلك الذي كان يمثل صورة مصغرة عن الخليقة التي عاشت على الأرض، وكانت هذه السفينة تكاد تضيق بمن فيها وما فيها.

- وآية السفينة التي سخرها الله تعالى لتحمل تلك الذرية التي استمر بها النوع البشري لم تكن وحدها من آيات الله التي استفادت منها البشرية. وإنما هناك آية أخرى شبيهة من وسائل النقل التي سخرّها الله تعالى لخدمة الإنسان كالجمال، والخيل، والبغال، والحمير (لتركبوها) (سورة النحل ٨، وسورة غافر ٧٩) وكذلك ما اهتدى إليه الإنسان فصنعه من مثل المركبات التي تجرّها الحيوانات، وهذه أيضاً حصل عليها الإنسان بهداية من الله العزيز الحكيم. وما كان الإنسان ليهتدي الى مثل ذلك لولا تلك الهداية الإلهية.

وموضوع السفينة التي (كانت تجري في موج كالجبال...) (هود ٤٢) والتي وصلت بتلك الذرية الى شاطئ الأمان، ما كان ليحصل لها ذلك إلا بعناية الله تعالى ورعايته. ألم يقل لهم نوح: "اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم" (هود ٤١). ومن هنا نفهم معنى الآيتين ٤٣ و ٤٤ من سورة يس: وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم، ولا هم يُنقذون. فمشيئة الله تعالى هي التي أنجت تلك الذريّة، ولوشاء لأغرقها. ولو كانت مشيئته أن يغرقها ما كان أحد ليسمع صراخهم واستغاثاتهم. ولو سمعوا ذلك الصراخ وتلك الاستغاثات فما كان أحد قادراً على إنقاذهم.

إذن، كيف جرى ذلك الإنقاذ؟ جرى برحمة من الله أولاً، ثم لأن مشيئته في الخليقة أن تستمر الحياة على الأرض بهذه الذرية الذين كتب لهم أن يستمتعوا بهذه الحياة الى حين، وهو الأجل المحتوم يوم القيامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا
كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ
يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧)

٤٥ـ اتقوا ما بين أيديكم: تجنبوا الأعمال التي تجلب لكم العذاب في الآخرة (وهذا في مقدوركم)

ـ وما خلفكم: وما مرّ عليكم من الأمور في ما سبق من الزمن.

٤٦ـ مُعْرِضين: لا يهتمون بها.

٤٧ـ مبين: واضح وظاهر.

• وهنا تتابع السورة الكريمة الحديث عن المشركين الذين يكفرون بالله، فتعرض بعض أفكارهم، وتناقشها، وتردّ عليهم.

• هؤلاء الكفار قد ينصحهم الناصحون بقولهم: "اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون". وهنا تطال هذه النصيحة أعمال الإنسان التي يمكن أن تكون على قسمين: القسم الأول وهو الأعمال التي يقومون بها الآن وفي المستقبل، وهي من الأعمال التي يمكن للإنسان أن يتقي سيئاتها بأن يمتنع عن الأعمال المخالفة للشريعة، والتي تغضب الله ولا يرضى عنها، والتي تؤذي الآخرين. وهذه يمكن اتقاؤها بالابتعاد عن الأعمال السيئة، وباتقائها يخلّصون أنفسهم من العقاب الذي يترتب عليها. والقسم الثاني من الأعمال هو ما يكون قد تصرّف به الإنسان في وقت مضى، والتي يمكن أن يكون الإنسان قد تجاوز فيها حدود الشرع، وارتكب فيها إثماً... وهذه يمكن اتقاؤها: بعضها بالاستغفار، وبعضها الآخر بالتعويض عما فات من الواجبات المفروضة، وغيرها يمكن اتقاؤها بالأعمال الصالحة لأن "الحسنات يذهبن السيّئات"... وهذا كله يأتي على سبيل النصيحة.

وتتصدّر الآية (إذا) وهي أداة شرط، وهي تقتضي بعدها إخباراً بالجواب الذي يصدر عن الكافرين.

• ويأتي الجواب في الآية التالية (٤٦)، "وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين". ومفاد هذه الآية الكريمة أن هؤلاء القوم لا يستمعون الى النصيحة، ولا الى ما هو أكبر من النصيحة، من آيات الله، وآيات الله ما يمكن أن يصدر عن الله تعالى من أعمال تكون فيها العبرة للناس على سبيل التحذير الذي يسبق العقاب، كالعوامل الجيولوجية من العواصف، والهزات الأرضية، والجدب، وحبس الأمطار... أو من الأعمال التي كان فيها العقاب للكافرين كتدمير القرى، والفيضانات التي تتلف الزرع، وتخرّب كل ما مرّت عليه... كما جرى لقرى لوط، وعاد وثمود... ويكفي للمؤمن أن ينظر في هذه الآيات وأن يأخذ منها عبرة، ويرتدع عن ارتكاب الأخطاء والفواحش...

وهؤلاء القوم من الكافرين لا ينظرون الى الآيات التي تكون إنذاراً لهم من الله، ولا يستفيدون منها، مهما كانت هذه الآيات (كانوا عنها معرضين).

وقد تكون النصيحة لهؤلاء الكافرين بإنفاق شيء من مالهم الى المحتاجين، ضمن نظام التكافل والتضامن الاجتماعي، والحق الذي فرضه الله تعالى للفقراء في مال الأغنياء: " وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" (سورة المعارج ٢٤) و (سورة الذاريات ١٩).

أما جواب الكافرين فهو: "قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين" (الآية ٤٧).

وهذا الجواب منهم يعبّر عن عقيدة فاسدة عندهم، وهي: لو شاء الله أن يطعم المحتاج لأطعمه. فإذا لم يطعمه كان ذلك دليلاً على أنه لا يريد أن يطعمه (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه)، ونسي هؤلاء أن مبدأ إطعام الغني للفقير هو من باب الرحمة للأغنياء ليكسبوا الأجر والثواب بهذا الإطعام.

ولا يكتفي الكافرون بهذا الجواب، بل يذهبون الى أبعد من ذلك، إذ يعتبرون أنفسهم على حق، ويعتبرون المؤمنين "في ضلال مبين"، ليس بمجرّد النصيحة التي هي إطعام الفقراء والمحتاجين، وإنما يشمل ذلك ما كانت يحذّر المؤمنون منه الكافرين من العقاب بسبب الإخلال بشريعة السماء وعدم تطبيق القاعدة بإعطاء الحقوق لأصحابها "وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم".

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا
يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ
(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ
الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

٤٨- متى هذا الوعد: متى يكون هذا العقاب؟

٤٩- صيحة واحدة: صيحة اسرافيل

- تأخذهم: تقضي عليهم، يموتون بسببها.

- يخصّمون: يتخاصمون: يجادلون ويناقشون.

٥٠- فلا يستطيعون توصية: لا يجدون فرصة مناسبة لكتابة وصيّتهم...

٥١- الأجداث: القبور

ينسلون: يخرجون بسرعة.

- ويأتي هنا الاستفسار من الكافرين عن موعد حصول هذا العقاب، وليس ذلك على سبيل الهداية والخوف، وإنما على سبيل الاستهزاء.

ويأتي الجواب عن هذا السؤال في الآيات (٤٩ و ٥٤) على مرحلتين من مراحل القيامة:

المرحلة الأولى: مرحلة الصيحة التي تأخذ الناس جميعاً، فيصعق من في السموات والأرض. وهي تأتي والناس مشغولون عنها، وتأتيهم بغتة وهم يخصّمون أي يجادل بعضهم بعضاً ويتناقشون في كل شيء. ويحاول كل واحد منهم أن يخصم رفيقه وينتصر عليه في نوع من اللهو الذي لا يفيد... وهم أيضاً، كما ورد في الحديث الشريف: تقوم الساعة والرجلات قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم. والرجل يرفع أكلته الى فيه (فمه) فما تصل إليه...

وفي الآية ٥٠: "فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون". وفيها أنه يضيق الوقت على الإنسان، وتنتهي المهلة المعطاة له، فإذا أراد الإنسان أن يوصي (قبل الموت) بما يهمه، فإنه لا يجد متسعاً من الوقت لأن يكتب وصيته. وإذا أراد الإنسان وهو في السوق أن يعود الى أهله، فهو لا يقدر على ذلك.

وفي هذا تصوير لما يجري على الناس يوم القيامة عندما يسمعون الصيحة الأولى.

ثم تأتي المرحلة الثانية (ونفخ في الصور). وهذه المرحلة تختص بالأموات الذين يبعثهم الله تعالى من موتهم للحساب. فيأتون مسرعين الى المكان الذي أراده الله تعالى مكاناً للحساب (الى ربهم). وهذه السرعة في الخروج هي تلبية للدعوة (للصيحة) وفيها خوف ورعب وحيرة... من الهول الذي أصابهم من تلك الصيحة، وما يتبعها من أهوال يوم القيامة. ويقولون متعجبين خائفين: يا ويلنا - (الويل لنا) - وفي هذه تعبير عن خوف العقاب، وانتظار كل

أمر سيء... (من بعثنا من مرقدنا) كمن كان يستغرق في نومه مرتاحاً يحلم بالسعادة، ثم يستيقظ مذعوراً من هول الصرخة، ويتمنى لو استمر نائماً يحلم...

وفي هذه اللحظات ينقسم الناس الى قسمين، وهم جميعاً يشاهدون ما يدور حولهم. فيخاف الكافرون خوفاً شديداً، ويفرح المؤمنون فرحاً شديداً.

ـ أما الكافرون فيقولون: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا.

ـ وأما المؤمنون فيقولون: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

يقولونها وهم يستبشرون بالجنة، وبما وعدهم الله من النعيم...

- وفي الآية ٥٣ يشير الى أمرين:

١ـ سرعة الاستجابة للصيحة، وتمام ذلك البعث في وقت قصير وهو سهل على الله القادر على أن يفعل ما يشاء.

٢ـ أن جميع الناس هم على صعيد واحد، لا فرق بين سابق ولاحق، وقد اجتمع الخلق جميعاً، ليحاسبوا معاً، وبالطريقة نفسها، وبالموازين ذاتها، على نحو ما وعد الله تعالى، وأنذرهم به ووصفه لهم في الحياة الدنيا.

- ثم تصف الآية ٥٤ المبدأ الذي يقوم عليه الحساب، وهو على درجتين:

الدرجة الأولى: لا تظلم نفس شيئاً، وفيها تأكيد لمبدأ العدالة الإلهية.

والدرجة الثانية: ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون. وهو يقرر أن عمل الإنسان هو المعيار الأساسي: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يفعل مثقال ذرة شراً يره".

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨)

٥٥- فاكهون: فرحون. ناعمون

٥٦- الأرائك: السُرُر.

٥٧- يدّعون: يتمنون ويشتهون.

وبعد الحديث عن يوم القيامة وكيف تكون حال الكافرين في ذلك اليوم، وما يَلْقَوْنَ من العقاب، يأتي الحديث عن أصحاب الجنة من المؤمنين (في الآيات ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨).

- في الآية ٥٥: " إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون". وتصوّر هذه الآية الكريمة تلك الفرحة العامرة التي شغلت أهل الجنة عن كل شيء آخر. ذلك الفرح الذي ملأ قلوبهم فما همهم شيء مما يصيب الكفّار من الخوف والجزع والضياع والقلق. وفرحهم بالجنة شغلهم عن كل شيء آخر، حتى عن التفكير بما يجري للكافرين. فإذن الجنة عامرة بأفراحها، وما من واحد من نزلائها إلا قد غمره هذا الفرح.

وتكتمل الفرحة بأمور منها:

١- أن يلتقي الأزواج المتحابون الذين أمضوا تلك الحياة الدنيا يعملون من أجل هذا اليوم (يوم القيامة)، فآمنوا بالله وبملائكته ورسله، واتفق الأزواج على نهج واحد في الحياة، وأنشأوا أولادهم وذراريهم على هذا النهج (نهج الإيمان). وكان الله تعالى قد وعدهم من قبل: "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنابهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين" (الطور ٢١).

وكيف يلتقي هؤلاء الأزواج؟ في ظلال الجنة، تلك الظلال الوارفة الجميلة الهانئة السعيدة... وهم يجلسون على السُرر الرفيعة، جلسة استرخاء منعّمين (متكئون)... في مكان ظليل، لا بارد ولا حار، والبشر بادٍ على وجوههم الضاحكة.

٢- والأمر الثاني، الذي تذكره هذه الآية الكريمة (٥٧) هو فيض الخير الذي أنعم الله تعالى به عليهم ويتمثل بكل ما طاب من أنواع الفاكهة، فاكهة الجنة وفوق ذلك فإن الله تعالى قد كرّمهم بشيء أعظم وأهم من هذا، وهو أنه ما من شيء يتمناه المؤمن إلا يجده حاضراً بين يديه، فيكفي التمني حتى تصير الأمنية حقيقة. وتكون حالهم أفضل من حال أيّ كان من أهل الغنى في الحياة الدنيا.

- وتصوّر (الآية ٥٠) هذه الحالة بأجمل تصوير: "سلام قولاً من رب رحيم". وهي تصوّر رغبة هؤلاء المؤمنين العظيمة في أن يرضى الله تعالى عنهم، والله يعرف ما في نفوسهم وما يتوقون إليه، فيرسل إليهم بالتحية: سلام عليكم... وهل أجمل من هذه البشرى؟ وهل أعظم من هذه التحية؟ وهل من سعادة تعدل سعادة من يسلّم عليه الرب الكريم. وإذا هم سألوا عن مصدر هذه التحية الطيبة يأتيهم الجواب: "قولاً من رب رحيم". فتكون هذه التحية هي السلام، وتفيض عليهم بالسلام الذي يغمر كل شيء، ويسبح فيه كل شيء... وهل فوق سلام الربّ الرحيم من مزيد؟!

وإذا كان من مجال للمقارنة فهل تمكن هذه المقارنة بين حال اصحاب النار وأصحاب الجنة؟

ويأتي الحديث متتابعاً في تصوير حال اصحاب النار وأصحاب الجنة كأن ذلك حاصل الآن. وما قامت القيامة بعد، ذلك ليكون في هذا وعد لأصحاب الجنة يطمعون به - والطمع هنا مشروع - ويعملون من أجل الحصول عليه. ثم ليكون في وعيد الكافرين المجرمين إذا ما فهموا معناه ومحتواه، وتأملوا في مصيرهم يوم القيامة، ليكون فيه ما يردعهم عن غّيهم، ويوقظهم من ظلالتهم. وهذا الوعد والوعيد من باب الرحمة التي تدل على الخيّر وتأمر باتباعه، وتنهى عن الشر وتنصح باجتنابه.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)

٥٩ـ امتازوا: انفردوا، وابتعدوا.
ألم أعهد إليكم: آمركم.

٦٢ـ جبلاً: خلقاً.
٦٣ـ اصلوها: احترقوا بنارها

٦٦ـ لطمسنا على أعينهم: سلبناهم أبصارهم.
فاستبقوا الصراط: راحوا يتسابقون في الطريق ـ كعادتهم.
فأنّى يبصرون: كيف يعرفون طريقهم بعد أن سلبناهم أبصارهم.

٦٧ـ مسخناهم: حوّلناهم عن صورة الإنسان قردة وخنازير...
على مكانتهم: في منازلهم...

٦٨ـ نعمّره: نمدّ في عمره.
ننكسه في الخلق: تتراجع قواه...

وبعد أن حيّ الله تعالى المؤمنين بالسلام، إذا به يوجه الكلام للكافرين، فيقول لهم:

١ـ امتازوا اليوم أيها المجرمون. فهؤلاء الكفرة مجرمون. وهل من جريمة اكبر من جريمة الكفر بالله والإشراك به؟ وهو القائل ـ جلّ شأنه: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يريد" سورة النساء الآية ٤٨. كما يقول في سورة لقمان الآية ١٣: "إن الشرك لظلم عظيم". ومثلها في سورة الحج ٣١ وسورة النساء ١١٦، والمائدة ٧٢.

وامتازوا أمر لهم بالإنفراد، وبالابتعاد عن المؤمنين. وفي مكان آخر يقول تعالى: "إنما المشركون نجس" (سورة التوبة/الآية ٢٨). ولا يمكن أن يجتمع الطهر والنجاسة في مكان واحد.

٢ـ ويأتي بعد ذلك خطاب المجرمين، فبدل السلام يأتيهم اللوم، والتأنيب والتوبيخ والتحقير والمذمة... فيقول الله تعالى لهم: " ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم".

فهؤلاء الكافرون قوم عبدوا الشيطان، فسمعوا كلامه وأطاعوه، برغم تحذيرهم من عداوته الواضحة الصريحة المعلومة التي لا تحتاج الى برهان.

وعبادة الله تعالى هي الصراط المستقيم والخط السليم والدرب الممّهد للوصول الى نعمة الله العظمى، المتمثلة بالجنة...

ثم إن تجربة بني البشر مع الشيطان واضحة ومعروفة: فهل صدق الشيطان في وعوده لبني البشر؟ وهل استفاد أحد من بني البشر من عبادة الشيطان؟ وهو الذي حسد آدم أبا البشر، وأغواه، وأخرجه من الجنة، وحقد عليه وعلى ذريته جميعاً... فهل من الممكن أن يسلّم الإنسان بهذه السهولة لعدوّه؟ وهل يمكن لعدوّ أبيك أن يحبك ويدلك على ما فيه الخير؟

ثم إذا تأملنا في مصير جميع الشعوب والخلائق التي أطاعت الشيطان فهل أفلح خلق منهم؟ وهل لقي هؤلاء الخلق منفعة من صحبة الشيطان واتباعه أم أنه كان مصيرهم الى الخيبة والهلاك والخسران المبين: من عاد، الى ثمود، الى قوم لوط،
الى أصحاب الأيكة... على نحو ما ذكر القرآن الكريم؟
أفلا يكفي للعاقل أن يتأمل في هذه الأقوام وما حدث لهم حتى يأخذ العبرة منهم، ويستفيد من تجاربهم. ويأتي الكلام هنا بأقسى أساليب التوبيخ والاتهام بضياع العقول.

٣ـ ثم يأتي بعد هذا التوبيخ الحكم المبرم: "هذه جهنم التي كنتم توعدون. اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون".
وفيها: أ ـ أن الحديث الذي سبق أن حدثهم الله تعالى به عن جهنم، واعتبروه من الوهم أو الخيال يتمثل أمامهم حقيقة واقعة لا يمكن تكذيبها.
ب ـ اصلوها اليوم: تحمّلوا نارها وعذابها. وهذا الذي ترونه أمامكم من العذاب الذي كان بانتظاركم ليس فيه أي ظلم لكم. وإنما هو نتيجة لأعمالكم وكفركم (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون).

- ثم ينتقل الحديث بعد ذلك الى تصوير ما يحدث لهم في النار، وهو على درجات:

١ـ اليوم نختم على أفواههم. فلا مجال بعد للنقاش، ولا للاعتراض، ولا للصراخ لاستثارة الشفقة، ولا لتقديم الأعذار...
٢ـ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون. فإنه فوق وسائل الإدانة المختلفة ضدّهم من الكتاب الذي يأتي به كل إنسان كافر يحمله بشماله. وفيه ذكر لأعماله القبيحة، وشهادة الملائكة المكلفين بمراقبتهم وتسجيل أعمالهم... تبرز وسيلة أخرى من وسائل الإدانة، وهي شهادة الأعضاء التي تُسأل عن الأعمال التي قامت بها، فتعترف بالحقيقة، ولا يكون للكافر على هذه الأعضاء سلطان، لأن الله تعالى هو الذي أنطقها كما أنطق كل شيء. (سورة فصلت الآية ٢١).
٣ـ ثم يخبر الله تعالى بأنه كان يمكن أن ينزل بهم العذاب في الحياة الدنيا، عقاباً لهم على كفرهم. وهذا العقاب في الدنيا كان يمكن أن يأتي على نوعين:
<u>النوع الأول:</u> "ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنّى يبصرون".
ويعني ذلك أن هناك نوعاً آخر من العقاب، وهو سلب هؤلاء القوم أبصارهم، فهم لا يميّزون الحق من الباطل، حتى لو أنهم حاول السير في طريق الحق لتعذّر عليهم ذلك، كالأعمى الذي يبحث عن طريق آمن موجود، ولكنه لا يهتدي إليه بسبب ما أصابه من العمى.
<u>النوع الثاني:</u> "ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون".
أما هذا العقاب فهو تغيير خلق الإنسان وتحويله الى حيوان، على طريقة ما فعل بالكافرين من بني إسرائيل، كما ورد في قوله تعالى: "فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين" (سورة البقرة ٦٥). وكذلك في الآية ١٦٦ من سورة الأعراف. ومعنى ذلك سلب هذا الإنسان الذي مسخ حيواناً من جميع صفات الإنسان من عقل متطور، وفكر عميق يرقى بصاحبه الى أعلى درجات الحضارة، ويبقى كصخرة جامدة، أو حيوان مسلوب من تلك النعم العظيمة التي تميّز الإنسان عن الحيوان. فلا هو يتقدّم، ولا هو يستطيع أن يعود الى حالته الأولى.

- وبعد ذلك تنتقل بنا الآية ٦٨ من سورة يس المباركة الى أمر آخر، وهو معاقبة الإنسان الصحيح المتكامل القوى البدنية والفكرية بأن "ننكسه في الخلق"، أي نعيده بعد القوة الى حالة من الضعف: ضعف القوى البدنية والفكرية، والى الهرم، والذّبول والبلى... حتى يصير الى العدم.

وتنتهي هذه الآية الكريمة بدعوة أولئك الكافرين الى إعمال العقل والتبصّر في الأمور، ليس على سبيل النصيحة فحسب، وإنما مع العتب الشديد، إذ يعتبر أن هؤلاء قد عطّلوا عقولهم عن العمل، فلا هم يفكرون، ولا يتبصرون في الأمور، ولا يقدرون العواقب، ولا تنفعهم التذكرة، وكأنهم لا عقول لهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)

٦٩ـ ما علمناه الشعر: المقصود هنا النبي محمد (ص). فهو ليس شاعراً.

وهنا تعود بنا السورة الكريمة الى نقطة البداية في الدفاع عن الرسول الأعظم، إذ أنها ابتدأت بتثبيت النبوّة لنبينا الكريم (إنك لمن المرسلين) وذلك بالقسم (يس. والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين.) والأمر هنا هو نفي أن يكون النبي (ص) شاعراً، لأن المشركين عندما سمعوا القرآن، وبدلاً من أن يؤمنوا برسالة محمد (ص)، وإمعاناً في التعنت وإشهار العداوة للنبي، راحوا يصفونه بصفات كثيرة لا تليق به، ومنها أنه شاعر، وأنه مجنون...

أما نفي الشاعرية عنه فيفسره ما ورد في القرآن الكريم في سورة الشعراء من قوله تعالى: "والشعراء يتّبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون" (سورة الشعراء الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٦). ولسبب آخر، وهو أنه في مفهوم الجاهليين القديم أن لكل شاعر شيطاناً، هو الذي يوحي له بالشعر، فإذا غضب الشيطان على الشاعر لم يوح له بما يقوله، فأرتج عليه. وهذا المفهوم يتعارض مع مفهوم النبوّة التي تكون وحياً من الله، يحمله جبرائيل ويبلغه للنبي. وقد ورد في سورة يس، في الآية الكريمة ٦٩: " وما علمناه الشعر وما ينبغي له"، فإذن ما نزل من السماء على النبي (ص) ليس شعراً أبداً. والأمر الأهم هو: (وما ينبغي له) أي أن الشاعرية لا تتوافق مع النبوّة، وليس مسموحاً للنبي أن يقول الشعر، ولا يمكن أن يكون كلامه كلام الشعراء، فيه كذب، ومبالغات، وخوض في جميع موضوعات القول...

ثم تنتقل الآية الكريمة الى وصف ما نزل على النبي بأنه (ذكر وقرآن مبين) والذكر هو تعليم الشريعة، وتذكير بالحقائق الكونية، وتبيان الحلال والحرام... وكذلك هو(قرآن مبين) فيه موعظة وإرشاد، ونصيحة... هذا بالإضافة الى أنه كتاب كريم فيه وعد ووعيد، وتذكير، كتب بأجمل أسلوب، وأعظم صياغة، وأجمل ديباجة، أنزله الله تعالى على نبيّه "لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً" (سورة الإسراء الآية ١٠٦). يأخذ بمجامع القلوب، وتقشعر له جلود السامعين ثم تلين جلودهم لذكر الله (الزمر ٢٣).

- ثم تحدد الآية ٧٠ من سورة يس الغاية من هذا القرآن. وهي على الشكل التالي: "لينذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين".

إذن هناك غايتان من تنزيل القرآن:

الأولى: لينذر من كان حياً:

وهذه الحياة هي حياة في الضمير، والفهم، والإدراك، والتفكير، وليست الحياة هنا مجرّد نبض القلب، وعمل الحواس، من رؤية بالعين، وحركة باليد... فما كان غير ذلك كان الإنسان فيها شبيهاً بالحيوان، وشتّان بين الإنسان والحيوان. ثم إن الله تعالى تحدّث عن بعض القوم فقال عنهم في سورة الأعراف (الآية ١٧٩): "ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً".

الثاني: ويحقّ القول على الكافرين. فالقرآن يقدم للإنسان الموعظة والنصيحة والإرشاد، ويهديه الى سواء السبيل، ويزين الحق في عينه، ويقبّح الباطل ويحضه على اجتنابه، مستعملاً جميع الأساليب الممكنة في الوعظ والإرشاد: "فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلَّ فعليها ولا تزر وازرة وزر أخرى" (الأنعام ١٦٤ والإسراء ١٥)، ولا يعود بعد ذلك من حجّة يحتجّ بها الكافر والمعاند، وبهذا يكون العقاب حقاً على الكافرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ
لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا
يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ (٧٣)

٧١ـ أنعاماً: هي الإبل والبقر والغنم...
مالكون: يستفيدون منهم فوائد شتى...

- ثم تتابع السورة المباركة تبيان فضل الله تعالى على الإنسان، وذكر النعم التي أنعم بها عليه.
  ففي الآية ٧١: "أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت إيدينا أنعاماً فهم لها مالكون".
  وفي هذه الآية الكريمة أيضاً أمران نتوقف عندهما:

الأول: قوله تعالى: مما عملت أيدينا. وهذه لها هنا معنيان:
١ـ أن الله تعالى قد تفرّد بالخلق وحده، فلم يشرك معه أحداً.
٢ـ وأن هذا الخلق لم يخلقه عبثاً أو دون غاية، وإنما هو يقول: (خلقنا لهم)، وهذا يعني أن الله تعالى قد خلق هذه الأنعام لتكون في خدمة الإنسان. والأنعام من النعمة. فيكون هذا الخلق من جملة النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان.

والثاني: فهم لها مالكون، ويعني أن الله تعالى قد أطلق يد الإنسان في التصرّف بهذه الأنعام. فهو مالكها. ومالك الشيء يملك حرية التصرّف به. والأهم من ذلك كله أن تكون مورداً من موارد الرزق الذي يحتاجه الإنسان في حياته، وأول ما يحتاجه الإنسان هو المأكل والمشرب. (ومنها تأكلون) جاءت هنا مطلقة يفهم منها أن الإنسان يمكن أن يأكل من لحومها أو من لبنها... وليس هذا فقط.

- و جاءت الآية ٧٣ لتشير الى أن هذه الأنعام فيها لبني البشر (منافع ومشارب). ومنافعها كثيرة: من أصوافها وجلودها، وأوبارها، ولحومها... كما ورد في سورة النحل، في الآية ٨٠: "وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين".
  وتنتهي هذه الآية بدعوة الإنسان الى شكر الله تعالى على هذه النِّعم. وجاءت الدعوة بصورة الاستفهام التعجبي، وفيها حثّ على شكر هذه النعمة، لأنها نعمة عظيمة وأساسيّة أنعم الله تعالى بها على الإنسان.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)

٧٥- محضرون: مجموعون معهم في النار.

- ثم انتقل الله تعالى الى تبيان جحود الإنسان للنعمة الإلهية المتمثل في العزوف عن عبادة الله، وعدم الاعتراف به. والأسوأ من هذا أنهم دخلوا في خصومة مع الله، وخاضوا حرباً ضدّه، وأرادوا من اتخاذ هذه الآلهة أن تنصرهم في حربهم تلك، وهم يتمنون أن يتحقق لهم مثل هذا النصر (لعلهم ينصرون) (الآية ٧٤).

- ولا يتأخر الجواب عن هذه المسألة، إذ يقول الله تعالى: "لا يستطيعون نصرهم" فالنصر دائماً لله.

وتشير الآية الى شيء آخر هو أن هؤلاء الكفّار جعلوا من أنفسهم جنداً لهذه الآلهة يحرسونها، ويدافعون عنها، ويغضبون لغضبها... وهم يرون ويعرفون أنها لا تفيدهم في شيء، ولا تقدّم لهم خيراً، ولا تدفع عنهم شراً. أفلا يستوجب ذلك السخرية من هؤلاء الناس الذي وضعوا أنفسهم بتصرّف هذه الآلهة. ثم ألا يستوجب ذلك احتقار مثل هؤلاء الناس، لعقولهم الضعيفة التي ما استطاعت أن تدرك هذه الحقيقة الظاهرة.

كما تعني هذه الآية أيضاً أن مصير مثل هؤلاء القوم الى النار، وكذلك مصير هذه الآلهة التي ستحشر معهم في النار، وتحرق كما يحترقون، وسيرون كيف أن هذه الآلهة لا تستطيع أن تحمي نفسها من غضب الله تعالى ولا أن تحمي غيرها.

- وفي الآية ٧٦ يخاطب الله تعالى نبيّه الكريم بالقول: "فلا يحزنك قولهم". والواقع أن مثل هذا الموقف من الكفّار من الله ومن النبيّ الذي جاء يبلغهم رسالة ربّه، مثل هذا الموقف محزن ومؤلم أيضاً، وقد أراد الله تعالى أن يخفف عن رسوله فقال له: (فلا يحزنك قولهم). ليس هذا فقط، وإنما في تتمة الآية الكريمة وعيد للكافرين بأن قولهم هذا يعلمه الله، وهو يعلم أيضاً ما خفي من عقيدتهم (ما يسرّون)، وأن حسابهم سوف يكون عسيراً على كل ذلك: (ما يسرّون وما يعلنون).

وتأتي هذه الآية الكريمة حاملة كثيراً من الملامة، والتأنيب والتوبيخ للإنسان، والعتب على هؤلاء القوم الكافرين الذين أنكروا نبوة رسول الله الأعظم محمد (ص)، وذلك في قوله تعالى: (أولم يَرَوْا)، وتعني أنه كان يجب عليهم أن يفهموا ذلك، ويستنتجوه بأنفسهم، وهو واقع حقيقي ماثل للأذهان والعقول، كما لو كان شيئاً مادياً ماثلاً أمامهم تراه الأعين المبصرة، ولا ينكر وجوده إلا الأعمى.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي
الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ
الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)
أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا
أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي
بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

٧٧ـ خصيم مبين: خصم فصيح. يقول كلما يخطر بباله دون تفكير عميق.

٧٨ـ رميم: بالية.

٧٩ـ أنشأها: خلقها.

- ويستمر العتب والتأنيب والتوبيخ... لأولئك الكافرين هنا أيضاً، متمثلاً بقوله تعالى: (أولم ير الإنسان...) ويزيد اللوم هنا ليشمل الناس جميعاً (الإنسان).

ولا بدّ من التوقف عند ما ورد في كتب التفسير من أن أحد المشركين جاء بعظم بالٍ متفتت، وقال لرسول الله (ص): أتزعم يا محمد أن الله يبعث هذا؟ فأجابه الرسول (ص) نعم. فنزلت هذه الآية (حتى آخر السورة).

وهنا يذكر الله تعالى الإنسان كيف خُلق. وهو في الأصل نطفة. أي نقطة من ماء الرجل، وهو (ماء مهين) (سورة المرسلات الآية ٢٠). ويحكي الله تعالى قضية الخلق في هذه في سورة "المؤمنون" (في الآيات ١٢ ـ ١٦). فيقول: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون."

وعند النظر في الآيات الكريمة نجد أن خلق الإنسان ـ عندما خلقه الله تعالى ـ كان بمقتضى خطّة في الخليقة ذات ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: هي مرحلة الخلق "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين...
وهذه هي المرحلة الأساسيّة التي توزعت على أطوار:
الطور الأول: النطفة... وهذه أيضاً مرت بأطوار...
والطور الثاني: العلقة.
والطور الثالث: المضغة.

والطور الرابع: العظام.
والطور الخامس: كسو العظام لحماً.

والطور السادس: ثم أنشأناه خلقاً آخر. وتعني أنه مختلف بكثير من الصفات عن أهله... وكان من أحسن مخلوقات الله (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم). وفي هذا الطور تبدو القدرة الإلهية العظيمة التي إذا ما فكّر فيها الإنسان لا بدّ له من الإقرار لله تعالى بالعظمة، والقدرة...
ولا ننسى هنا أن نشير الى ما في قوله تعالى (من سلالة من طين) من تذكير بأن الأصل (من طين) ثابت، ولا يتحوّل الى شيء آخر على مدى الزمن، ولا يرتقي في المادة والأصل.

وتأتي بعد ذلك مرحلة أخرى في حياة الإنسان ـ
المرحلة الثانية
وهي مرحلة الموت. وفيها حديث كثير ليس هنا مجاله.

أما **المرحلة الثالثة**
فهي مرحلة البعث التي تميّز الناس بين مؤمن وكافر، ومخلّد في الجنة، ومخلّد في النار...
وهذه المرحلة الثالثة ضرورية جداً للخليقة، ولولاها لما كان هناك ما يجعل للخلق قيمة. ولعل هذا هو الذي أراده الله تعالى في قوله في سورة "المؤمنون" الآية ١١٥: "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون".

والعجب العُجاب هو أن هذا الإنسان الذي خلق من ماء مهين، والذي خلقناه ـ يقول الله تعالى ـ على ذلك النحو الذي ذكرناه، وبدلاً من أن يفكّر في خلقه، ويتّعظ ويؤمن بالله، إذا هو "خصيم مبين". فهو يخاصم ربّه. بما في تلك المخاصمة من القباحة والوقاحة، وسوء الأدب، وقلة اللياقة، وقلة التفكير والتدبّر، تجاه خالقه الذي خلقه في أحسن تقويم، ثم كرّمه، وفضله على كثير مما خلق، ورقّاه على سائر المخلوقات بالعقل والشكل، والعاطفة، والحواس... ثم ترى هذا الإنسان يقف موقف المحاججة أمام ربّه، ويشغل فكره ويجهد نفسه في مقارعة ربّه ومخاصمته، ويقدّم حججه وبراهينه السخيفة ليثبت لنفسه ما وسوس له به الشيطان. فبئس الخصم وبئس ما سوّلت له نفسه، وبئس ما وسوس له به الشيطان... فأتى بعظم بالٍ يفتّه بيده، ويقول للرسول الأكرم (ص) بكل صفاقة ووقاحة: من يحيي العظام وهي رميم؟ وفي سؤاله هذا إنكار وجحود.

ولا يتأخر الجواب، فيوحي الله تعالى لرسوله: "قل يحييها الذي أنشأها أول مرّة وهو بكل خلق عليم."
وفي هذه الآية الكريمة تركيز على أمرين:

الأول : أن إعادة الخلق للمرة الثانية أهون من الخلق أول مرة.
والثاني : أن هذا الخلق لأول مرّة ما كان لهواً، ولا لعباً، ولا بدون غاية، وإنما كان ضمن إرادة واضحة لها غاياتها ومقاصدها، وتعرف بداياتها، ونهاياتها...

ثم تتتابع البراهين على هذا الخلق العظيم الذي يتخطى المفاهيم الإنسانية المحدودة والتي يشكل عليها فهم الحقائق الإلهية، والإرادة العظيمة التي أرادها الله تعالى، وذلك بمقتضى محدودية العقل الإنساني، والقدرات التي يتمتع بها الإنسان... والتي أشار إليها الله تعالى في سورة الحاقة الآيتين ٣٨ و ٣٩ "فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون". وفي سورة الواقعة "فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون. ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون." (الآيات ٨٣ و٨٤ و٨٥).

ويأتي **المثل الأول** هنا عن الشجر الأخضر الذي تنقدح منه النار. فالراسخ في أذهان الناس أن الخضرة في الشجرة دليل الرطوبة فيها، والنار تطفئها الرطوبة، وفي الحقيقة أن الشجر الأخضر قابل للاشتعال بإرادة إلهية، وهو أعلم بسرّه، وذلك على نحو ما ورد في قوله تعالى في سورة التكوير: "وإذا البحار سُجّرت" أي صارت ناراً تضطرم. الآية ٦. ومثلها في سورة الطور الآية ٦.

والمثل الثاني عن خلق السموات والأرض: "أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم. بلى وهو الخلاق العليم". وقد كثر الحديث في القرآن الكريم عن السموات والأرض: سورة البقرة ٢٢ و ٢٩ وسورة الحجر (٦) والأنبياء ٣٢ والحج ٦٢ والفرقان ٦١ وفصلت ١٢ وق ٦... وفي سورة غافر الآية ٥٧ "لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس." وفي السؤال: أوليس الذي... جاء الاستفهام تعجبياً من قلة إدراك الناس للحقيقة، ومعرفة الفرق الذي بين خلق الإنسان وخلق السموات والأرض. فالإنسان صغير صغير صغير... إذا ما قورن بالسموات أو بالأرض، وفي كل واحد منهما
من الأسرار والمخلوقات التي تجعل الإنسان في شكله، وحجمه، وتركيب جسمه، وتكوينه... أصغر وأحقر من نملة أو بعوضة...

ولا يتأخر الجواب حتى يأتي صادحاً: بلى، هو قادر، قادر، قادر. ذلك أنه الخلاّق العظيم. والخلاّق تشير الى كثرة المخلوقات التي خلقها الله تعالى. وهذا الخلق لم يأت صدفة ولا عبثاً، بل عن علم ودراية، وإرادة، ولغاية معينة لا يعلمها إلا الله، ويعلمها الإنسان من خلال ما أطلعه الله تعالى عليه من أسرار الخلق في القرآن الكريم...

- ويستمر الحديث عن عملية الخلق التي تتعلق بالمشيئة الإلهية، والتي لا تكلفه جهداً، ولا طاقة... وقد عبَّر تعالى عن ذلك بقوله تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون." وقد اسهب الفلاسفة وعلماء الكلام في الحديث عن الصفات الإلهية، وقالوا إن (الصفات عين الذات) في تفسيرهم لقوله تعالى: إنما أمره إذا أراد شيئاً... .

- وينتهي الحديث في هذا الموضوع بدعوة الله تعالى للإنسان بقوله ـ جلّ شأنه ـ : "فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء. وإليه ترجعون."

ففي ذلك دعوة للإنسان الى ما ينفعه، وهو تسبيح الله تعالى.
ومعناها: فسبّحوا بحمد ربكم ـ أيها الناس ـ والتسبيح هو التمجيد والتقديس، والتنزيه لله تعالى، والإقرار له بالربوبية، والقدرة والعظمة والكبرياء... ومدحه، والثناء عليه... وهذا هو الطريق الوحيد الأمثل لنيل رضاه وبركاته.

ثـم تأتي الجملة الأخيرة فـي الآية الكريمة: وإليه ترجعون. ومفادهـا نوع مـن التخيير للإنسـان، مع التحذير. فالرجوع الى الله محتّم، ولا مهرب منه، وعنده الثواب على أعمال الخير، والعقاب على أعمال الشر، والثواب على عقيدة التوحيد لله تعالى، والعقاب على الشرك والتشكيك، والاستماع الى وسوسة الشيطان، وممالأة الكافرين، ومسايرة الجاحدين.

- ٢ -

شرح سورة (ق)

بسم الله الرحمن الرحيم

في أسباب نزول الآية ٣٨ من هذه السورة المباركة أن اليهود أتت الى رسول الله(ص)، فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهنّ من منافع. وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب. وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة الى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق في أول ساعة الآجال حتى يموت من مات. وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس. وفي الثالثة خلق آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة.

قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش. قالوا: قد أصبت لو أتممت. ثم قالوا: ثم استراح.

فغضب النبي (ص) غضباً شديداً، فنزلت الآية الكريمة: "ولقد خلقنا السموات والأرض وما مسّنا من لغوب. فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب..."

وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أن من قرأها هوّن الله تعالى عليه سكرات الموت. ومن قرأها في فرائضه ونوافله وسّع الله تعالى عليه رزقه، وأعطاه كتابه بيمينه، وحاسبه حساباً يسيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)

١ـ المجيد العظيم والكريم

- تبدأ هذه السورة الكريمة المباركة بالقَسَم. والمقصود بالقسم عندما يأتي في الكلام، في أوله أو في أيّ مكان منه، توكيد هذا الكلام، حتى يصدّق السامع ما يقال له، وتطمئن إليه نفسه، ولا يبقى أيّ مجال للشك فيه...

وجاء القسم هنا بالقرآن المجيد مسبوقاً بالحرف (ق)، (والواو هنا واو القسم). كما أن هذه الجملة (القسم) قد نقص منها جواب القسم. لأن تمام اللغة العربية أن تأتي بالقسم، وأن تأتي بعد القسم بالجواب، والجواب هو المقصود تأكيده بالقسم، كأن تقول: والله إني أقول الحق. وفيها: (والله) هي القسم. و(إني أقول الحق) هي جواب القسم، وهي (هذه الفكرة) هي المراد توكيدها بالقسم.

- وهنا يواجهنا أمران: الحرف (ق) الذي تصدَّر السورة، ثم غياب جواب القسم، فهو محذوف. وفي اللغة يجوز حذف جواب القسم في أحوال.

<u>أما في الأمر الأول</u>: ففي القرآن الكريم سور تبدأ بحروف مقطعة. منها ما يبدأ بحرف واحد مثل (ق) و (ص)، و (ن). ومنها ما يبدأ بحرفين مثل (طه) و (يس) و(حم). ومنها ما يبدأ بثلاثة أحرف مثل (ألم) و(ألر) و(طسم). ومنها ما يبدأ بأربعة أحرف مثل (ألمص)، و(ألمر). ومنها ما يبدأ بخمسة أحرف كما في (كهيعص) و (حمعسق).

وهناك أقوال كثيرة حول بدء بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة. ومنها: عن سفيان الثوري قال: قلت لجعفر (الصادق) بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام: يابن رسول الله، ما معنى قول الله عز وجل: ألم، وألمص، وألر... قال: أما (ألم) في أول سورة البقرة فمعناه: أنا الله المجيد. و(ألمص) فمعناه: أنا المقتدر الصادق. و(ألر) فمعناه: أنا الله الرؤوف. و(ألمر) فمعناه: أنا الله المحيي المميت الرزاق. و(كهيعص) معناه: أنا الكافي، الهادي، الوليّ العالم، الصادق الوعد. وأما (طه) فاسم من أسماء النبي (ص) ومعناه يا أيها السامع للوحي والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم.

وأما (ص) فعين تنبع من تحت العرش، وهي التي توضأ منها النبي (ص) لما عرج به، ويدخلها جبرئيل

كل يوم دخلة فيغتمس فيها، ثم يخرج منها فينفض أجنحته، فليس من قطرة تقطر من أجنحته إلا خلق الله تبارك وتعالى منها ملكاً يسبّح الله ويقدّسه، ويكبّره ويحمده الى يوم القيامة.

وأما (حم) فمعناه: الحميد المجيد. وأما (حمعسق) فمعناه: الحليم المثيب العالم السميع القادر القوي. وأما (ق) فهو الجبل المحيط بالأرض، وخضرة السماء منه، وبه يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها. وأما (ن) فهو نهر في الجنة قال الله عز وجل: اجمد، فجمد، فصار مداداً. ثم قال عزّ وجلّ للقلم: اكتب، فسطّر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة. فالمدد مداد من نور، والقلم قلم من نور، واللوح لوح من نور.

ويفهم من هذا القول أن هذه الحروف المقطعة مأخوذة من أسماء الله الحسنى، إما من أولها، وإما من بين حروفها... فتكون الحروف المقطعة إشارات على سبيل الرمز الى أسماء الله تعالى...

ولا يخفى أن الرمز في الكلام إنما يُصار إليه في الإفصاح عن الأمور التي لا يريد المتكلم أن يطلع عليها غير المخاطب بالخطاب... فتكون رموزاً مستورة عنا، مجهولة منّا، دالةً على هذه المعاني التي هي أدق وأرقى وأرفع من أفهامنا.

أما سبب اللجوء الى هذا الأسلوب في القرآن الكريم فهو أن قريشاً واليهود كذبوا بالقرآن الكريم، وقالوا للنبي: سحر مبين تقوله. فقال الله: (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه)، أي: يا محمد، هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك هو بحروفكم وهجائكم، فاتوا بمثله إن كنتم صادقين.

ويعتبر هذا الأسلوب من باب إسكات الكفار، لأن المشركين كانوا تواصوا بينهم أن لا يستمعوا للقرآن، ويلغوا فيه، كما حكاه القرآن بقولهم: "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه" (سورة فصلت الآية ٢٦). فكانوا إذا سمعوا النبي (ص) يقرأ القرآن ربما صفروا، وربما صفقوا، وغلطوا فيه ليغلّطوا النبي في تلاوته. فأنزل الله تعالى هذه الحروف، فكانوا إذا سمعوها استغربوها، واستمعوا إليها، وتفكروا فيها، واشتغلوا بها عن شأنهم، فوقع القرآن في مسامعهم.

والأمر الثاني: هو حذف جواب القسم. إلا أن متابعة قراءة الآيتين الثانية والثالثة من السورة المباركة تدل على المحذوف. وهما تصوران حالة المشركين تتمثل في أمرين:

الأول: عجبوا أن جاءهم منذر منهم (وهذا العجب دليل على رفض الرسالة وما جاءهم من عند الله.)

والثاني: قولهم: أإذا متنا وكنّا تراباً؟!

وهنا الجواب محذوف وهو: حقيقة ما أنذرهم به الرسول (ص) من البعث يوم القيامة، بعد الموت، وتحوّل الأجسام الى تراب.

والمقصود من القسم تثبيت النبي (ص) على ما أنزل عليه من السماء، وما قدّره الله تعالى من موضوع النشور، وهو الإحياء بعد الموت للحساب، وعدم التأثر بما كان من ردة فعل الكافرين عندما سمعوا إنذار النبي (ص) لهم بالحشر والنشور.

بسم الله الرحمن الرحيم

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ
عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ
عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ
كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)

٣- بعيد: صعب حصوله.

٤- حفيظ: يحصي كل عمل ويحفظه فلا يضيع.

٥- أمر مريج: مضطرب وغير مفهوم.

- وهنا تفسير للموقف الذي اتخذه الكافرون والمشركون من النبي (ص)، ومما جاء به من عند الله، ودفعهم الى إعلان موقفهم من ذلك. وتذكر الآيتان ٢ و ٣ سببين للإنكار.

أما السبب الأول فهو: بل عجبوا أن جاءهم **منذر منهم**. وهذا الأمر يتكرر في الرسالات، إذ أن الذين يرسل الله إليهم نبياً يتوقعون أن يكون النبي:

١- ملكاً ينزل من السماء كما في سورة الأنعام، الآية ٨. والفرقان الآية ٧.

٢- أو رجلاً نافذاً في قومه، أو غنياً... كما في سورة البقرة، الآية ٢٤٦: "وقال لهم نبيّهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يُؤْتَ سَعَةً من المال...".

٣- أو رجلاً عظيم الشأن بينهم، كما في سورة الزخرف، الآية ٣١: "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم."

ومثلها في سورة الأعراف ٦٣ و ٦٩. وسورة يونس ٢.

و (بل) هنا تثبت الحكم لما بعدها، وتنفيه عما قبلها. فيكون هنا (أن جاءهم منذر منهم هو السبب في تعجبهم... وعبّروا عن هذا التعجب تصريحاً بقولهم: "هذا شيء عجيب".

أما السبب الثاني فهو: عدم تصديقهم بما جاءهم به النبي (ص) من أمر البعث للحساب، وقولهم: "أإذا متنا وكنا تراباً"، ثم أعلنوا موقفهم من هذا الأمر، فقالوا: "ذلك رجع بعيد"، أي أنهم يستبعدون حصول ذلك.

- وفي الردّ عليهم تأتي الآية الكريمة: "قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ". وهنا يخبر الله تعالى عن حقيقة ثابتة، وهي أن الله تعالى يعلم ما يحصل للإنسان بعد الموت، وكيف أن أجسام الناس تفنى في التراب، وتتحلل حتى يصعب التمييز بين عضو وعضو آخر من جسم الإنسان. وإذا كان ذلك صعباً

على الإنسان فإنه لا يصعب على الله، وهو الذي خلقهم، ويعلم ما خلق، ويميتهم، ويعلم من مات منهم...ثم يكمل الردّ على هؤلاء الكافرين المكذبين بقوله: "وعندنا كتاب حفيظ". وفي هذا معانٍ:

١- أن موضوع الخلق، والموت، وكل ما يجري من الحوادث للخليقة من الإنسان وغير الإنسان مسجّل في كتاب.

٢- وأن هذا الكتاب حفيظ، أي حافظ، فلا يغيب عنه شيء، ولا ينقص منه شيء، ولا يمرّ عليه الزمن، ولا يبلى، ولا يمكن تحريفه، ولا الزيادة عليه، ولا الإنقاص منه... كما ورد في سورة طه الآية ٥٢: "قال علمها عند ربي في كتابٍ لا يضل ربي ولا ينسى". وفي سورة الجاثية الآية ٢٩ "هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق." وهو اللوح المحفوظ.

ويعود فيؤكد سبب كفرهم، وهو كما يأتي: بل كذّبوا بالحق لمّا جاءهم. و(بل) هنا تفيد ـ كما أشرنا ـ الى تأكيد سبب كفرهم، وهو أنهم لا يريدون تصديق الحقيقة، بل كذبوا بها. (والحقيقة هنا بعث الأموات للحساب).

- أما نتيجة هذا التكذيب فهي أنه جعل هؤلاء الكافرين "في أمر مريج" ومعناها أنهم قد اختلطت عليهم الأمور، وجعلهم ذلك في حيرة لا يعرفون كيف يخلصون منها. كما أن هذه الجملة (في أمر مريج) تتهمهم بأن موقفهم عدم التصديق بما جاءهم به الرسول (ص) هو نوع من العناد، والتنكر للدين، واتخاذ موقف مخالف لما يعرفونه أنه حقيقة واقعة، ولكنهم أنكروها لتكون تبريراً لعدم إيمانهم بالنبي، وتصديق ما جاء به.

ويتبيّن هذا (الأمر المريج) بعدم ثباتهم على موقف واحد من الرسول (ص) وتعدد وصفهم لهم، فهو عندهم مرة ساحر، ومرة شاعر... وغير ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ
فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ
زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ
بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا
كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)

شقوق ولا تصدّعات.
٧- رواسي: جبالاً تثبتها على وضع واحد مستقر.
- بهيج : له منظر جميل يبهج النفس.
٨- تبصرةً: ليراه الناس فيكون في مرآة (شكله ولونه وثماره) ما يجعل الناس يفكّرون، ويأخذون العِبْرَة.
- عبد منيب: إنسان يعبد الله، ويرى خلقه فيؤمن به ويعود عن ضلاله.
١٠- باسقات: عاليات، ترتفع في السماء.
- طلع نضيد: ثمار مرتبة ومنظمة تنظيماً حسناً.
١١- الخروج من القبور.

- وتتوالى البراهين الإلهية التي تثبت القدرة على الخلق، متمثلة بنماذج من خلق الله تعالى.

أما **النموذج الأول** فهو في قوله تعالى: "أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج".

وهنا دعوة للتأمل في خلق السماء من ثلاث نواحٍ:

الناحية الأولى: بناء السماء، فقال في ذلك: " الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها" (سورة الرعد الآية ٢.) وفي سورة لقمان "خلق السماوات بغير عمد ترونها" الآية ١٠." وهو هنا بغير عمد ظاهرة (ويعني أن هناك عمداً غير ظاهرة). ولعله هنا يشير الى حقائق كونية من مثل الجاذبية، التي جاءت متوازنة، وتقيم ذلك البناء العظيم، ليس في سماء واحدة، وإنما في سبع سموات طباقاً... على عظمة كل سماء، وعظمة ما فيها من المجرات والكواكب...

والناحية الثانية: زينة السماء: ويكفي للإنسان أن ينظر في السماء الأقرب إليه، ليرى ما فيها من النجوم، على اختلاف أشكالها، واختلاف ألوانها... وعجيب مشهدها، بما يأخذ بمجامع القلوب، ويأسر العقول، ويترك الإنسان المشاهد صريع العظمة الإلهية التي تتجلى في هذه الإبداعات العظيمة، حتى يأخذك شعور عميق، يخترق القلب، ويسلبك التفكير فيظهر عجزك عن إدراك أسرار هذا الكون، وتفيض ينابيع الرحمة من عينيك دموعاً تهمي فتغسل ما علق بعقلك وقلبك من أدران الكفر والجحود.

والناحية الثالثة: وما لها من من فروج: أي أنّ هذه الخليقة التي تراها في السماء، والتي يمتلكك التعجب عندما تقرأ عنها بعض التفاصيل في كتب الجغرافية من حيث أحجامها، وأوزانها، ومقاييسها، وأفلاكها، و ما يجري حولها، وما تنتسب إليه من المجموعات... وتتأمل في ذلك كله، وتنظر، وتحدّق، وتطيل التحديق، علك ترى فيها شقوقاً أو صدوعاً، أو خلاف ذلك من العيوب، فيعجزك ذلك.

والنموذج الثاني هو نموذج الأرض. وهي واحدة من مثيلاتها من الكواكب، والإنسان أعلم بالأرض منه بسواها، لأنها جعلت له مقراً في الحياة والموت وبعد الموت. فيقول في ذلك: "والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج."

وفي هذا النموذج الثاني أيضاً ثلاثة أمور، وهي:

أولاً: والأرض مددناها.

هذه الأرض تبدو لنا اليوم ـ كبقية الكواكب ـ كرة مستديرة، وهي كرة عظيمة... وككل كرة، ومع استدارتها، يبدو أنه لا يستقر على سطحها شيء، كمثل الكرة الصغيرة التي يصعب استقرار كثير من الأشياء عليها، لو أننا جربنا ذلك. غير أن هذه الأرض ـ عندما خلقها الله ـ أرادها أن تكون مستقراً للإنسان، فقد جعلها قابلة لذلك، فمدّها. ومعنى ذلك أنه جعلها مسطحة وفيها وديان، وجبال وسهول وهضاب... تتعاقب على هذه الأرض، حتى ينسى الذي يعيش عليها استدارتها في الأصل، هذا مع العلم أننا لو شاهدنا الأرض في الفضاء، لرأيناها كرة مستديرة لا يبدو امتدادها ظاهراً... وهذا الأمرالذي جعل الأرض المستديرة الصالحة للعيش عليها ما كان ليحصل لولا التدبيرالإلهي، والحكمة الإلهية، والقدرة العظيمة على الخلق، وتسخير المخلوقات لتؤدي دوراً ضمن النظام الكوني العام.

ثانيا: وألقينا فيها رواسي:

وهنا يطرح قضية استقرار الأرض الذي هو أيضاً ضروري لتقوم عليها الحياة. فلو أن هذه الأرض لم تكن مستقرة، وكانت تتعرض للاضطرابات بسبب ما يمكن أن يؤثر عليها من حركة الفلك، أو الرياح، أو غير ذلك، لكانت الحياة عليها معرضة للخراب، كما لو كانت ناحية من نواحي الأرض معرضة للزلازل بصورة دائمة، فما كان ليستقر عليها المقام، ولكانت كل منشأة عليها تؤول للخراب في وقت سريع، ولا يعود للإنسان أمل ولا مطمع فيها.

أما كيف تحقق هذا الاستقرار؟ تحقق عن طريق إلقاء الرواسي، أي الجبال التي تثبتها في مكانها، فكانت هذه الجبال ـ كل واحد منها ـ مرساة تثبت الأرض في الفضاء، بحيث أنها تقيم توازناً بين العوامل الطبيعية، كما تفعل المرساة التي تثبت السفينة في البحر، التي إن حركتها الأمواج، فإن حركتها تأتي خفيفة، ولا تؤثر تأثيراً كبيراً على استقرارها.

ثالثا: وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج:

ولا يكفي مدُّ الأرض، ولا إلقاء الرواسي فيها، بل لا بد ـ لاكتمال الخلق ـ من أن تتزين الأرض بأجمل زينة. وهذه الزينة تتمثل بما خلقه الله تعالى من النباتات الصغيرة، والأشجار الكبيرة... التي تنبت في كل مكان، وبكل لون جميل، وفيها من بديع الخلقة، وانسجام الألوان، وتناسق المقاييس والأشكال، وعجيب المنظر... ما يجعل ذلك كله كالثوب الجميل الذي به تتزيّن الأجسام، ويظهر جمالها، ولولا ذلك لبدت عوراتها، ولكان سطح الأرض صحراء قاحلة ميتة لا تنفع للحياة، أو تستحيل فيها الحياة، أو ـ على الأقل ـ تصعب عليها.

أما كيف ذلك؟ فعن طريقة الخلق التي أرادها الله تعالى أن تكون من مصدرين اثنين هما الزوجان (من ذكر ومؤنث) يتفاعلان فتتكون منهما الحياة... وتصير الأرض ذات رونق وجمال وبهجة، لأن مبدأ الخلق كان يقوم على غاية أن يأتي هذا الخلق جميلاً، وعن هذا الجمال تنتج تلك البهجة التي تمتلئ النفس بها غبطة وسعادة.

أما ماهو السبب الذي دعا الى ذلك؟

ويأتي الجواب في الآية ٨: "تبصرة وذكرى لكل عبد منيب."

أما التبصرة، فحتى يكون النظر في هذه المخلوقات (الأرض وما عليها) مجالاً للتفكر في أمر الخليقة، وهذا التفكر هو الذي يهدي الإنسان الى الحقيقة، فيعرف الخالق، وفضله على المخلوقات، وواجب هذه المخلوقات تجاه خالقها...

ومع التبصرة كان القصد من هذه الخليقة أن تكون وسيلة لتذكر الخالق، فلا ينسى المخلوق خالقه، ولا ينسى فضله عليه، وتبقى الصلة قائمة بين الخالق والمخلوقين، وهي صلة المخلوق المحتاج الى خالقه الذي أحسن إليه، وبما يتوجب على المخلوق من الاعتراف بجميل خالقه عليه، فيعبده، ويقدّسه ويسبّحه. ومن هنا قوله تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون" (سورة الذاريات الآية ٥٦).

رابعا: ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنّات وحبّ الحصيد: وهذا من أهم آيات الخلق، إذ أن المخلوقين جميعاً بحاجة الى هذا الماء، فلا حياة بدونه. وهذا ما ورد في سورة الأنبياء الآية ٣٠ "وجعلنا من الماء كل شيء حي".

وهذا الماء "مبارك" وتعني أن فيه الخير للناس، وهو سبب ما ينالهم من البركة والرزق... هذا بالإضافة الى ما فيه من التطهير للإنسان، والخليقة جميعاً من كل دنس. وبهذا صار هذا الماء المبارك أول مادة الحياة الطيبة، النقية، الصافية، المطهرة... ثم المباركة، بمعنى أن من يعرف كيف يتعامل بها فقد حصل على بركة سماوية له منها كل نفع، وله فيها كل مصلحة.

وهذا الماء المبارك هو أصل الرزق وأصل الحياة.

أما أصل الحياة فيقول فيه تعالى: "فأنبتنا به جنّاتٍ". وتشمل هذه الجنّات كل ما توحي به الجنّة من الطعام اللذيذ، من ثمار الأشجار المتنوعة والتي لا تعدّ أشكالها، ولا أصنافها، ولا توصف لذاتها... فتغتني بها حياة الإنسان، كما تغتني بها نفسه بما يحسّه معها من لذيذ العيش، والسعادة الناتجة عن الشعور باللذة العارمة مما ينتج عنها من مأكل ومشرب... هذا بالإضافة الى رائحتها الطيبة التي تملأ نفسه غبطة وسروراً، يضاف الى ما تستمتع به العين من الرؤية البديعة، في ألوانها وأشكالها... وسهولة الحصول عليها (قطوفها دانية)...

وهذه النباتات ليست واحدة، ولا على نسق واحد، ولا شكل واحد... بل هي جنات متعدّدات بحيث لا تحصى أعدادها، ولا أشكالها. ولا تحصر أنواعها... ويتنقل الإنسان بينها من جنّة الى جنة دون سأم ولا ملل. وذلك على نحو ما ورد في سورة الزخرف الآية ٧١: "وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين." وكذلك في سورة فصّلت: "ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون" الآية ٣١. وكذلك في سورة الأنبياء الآية ١٠٢ "وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون".

وبالإضافة الى هذه الجنات فهي السبب في كل نبات، وخصّ منها هنا أمرين:

١- حب الحصيد:

وهنا يشير الى جميع أنواع الحبوب التي تنبتها الأرض من القمح والذرة... مما يشكل أساس غذاء الإنسان في هذه الحياة. يحصده الناس، ويفتنّون في حفظه، وتصنيعه، واختراع أنواع لا تحصى من الأطعمة، تكتمل معها

لذات الإنسان الجسديّة، وتكون له منها الطاقة التي تحفظ حياته، ويستخدمها استخدامات مختلفة، ويتقوّى بها على الصعاب...

٢- ثم: والنخل باسقات لها طلع نضير.

وبالإضافة الى ما في ثمار النخل من الغذاء للإنسان، ومن اللذة الكبيرة، والطاقة التي تمدّه بالقوّة... فقد أشار الى أمرين:

باسقات: ويشير بذلك الى هذه الشجرة (النخلة) العجيبة في امتشاقها وارتفاع هامتها في الفضاء، في عظمة، وأنفة، وعزّة، وكبرياء... ولها من جميل الشكل، ولطف المنظر ما يجعلها رمزاً للإنسان ذي الكبرياء، والشعور بالكرامة...

ولها طلع نضيد: وهنا يلفت القرآن الكريم الى ثمار هذه النخل التي تأتي متراكبة منضّدة، مرتبة خير ترتيب، في تنسيق عظيم، ودقّة في التوزيع، وتعدّد العناصر... كل ذلك دون أن يحيف شيء من الحَيْف (الغبن) بأيّ عنصر من هذه العناصر: فكلها متساوية في ما تحصل عليه من الغذاء، وفي شكلها، ولونها، ومنفعتها، والفوائد التي يمكن أن تجنى منها... وتشكل غذاء كاملاً فيه نفع وبركة.

كل ذلك من الرزق الذي قدّره الله تعالى لعباده: "رزقاً للعباد". بحيث تستقيم به (وبغيره) حياتهم...

وهذا "الرزق" ليست محصورة فائدته في أنّه غذاء للإنسان ولذة فقط. وإنما فيه موعظة أخرى، وهي "وأحيينا به بلدة ميتاً". فهذا الماء هو أصل الحياة وسببها. وحتى نعرف أهمية هذا الأمر، فإن علينا أن نتخيل أرضاً لا زرع فيها، ولا نباتات، ولا غابات ولا أشجاراً... فماذا تكون حالتها؟

وهذه الحالة هي ما تسبق فصل المطر، فإن الحياة تكمن في الأرض، متمثلة بالبذور، والجذور، والحبوب... وهي بانتظار هذا المطر. فإذا نزل هذا الماء من السماء ـ ولا يكون ذلك إلا بإذن الله تعالى ـ فإذا بالحياة تعود الى الأرض بعد موات.

وهنا العبرة:

"كذلك الخروج"

أيّ أن إحياء الناس بعد الموت عملية شبيهة بهذه العملية، فيكفي أن تمطر السماء مطراً خاصاً، يخترق الأرض، وينفذ الى باطنها، فيحيي الأموات، وتشقق الأرض عنهم سراعاً وكذلك "النشور". ومثل هذا ما ورد في الآية ٦٤ من سورة النحل. وفي سورة البقرة الآية ١٦٤، وسورة الروم الآية ٢٤...

وصدق الله العظيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)

١٢ـ أصحاب الرسّ: الرسّ: البئر، وأصحاب الرسّ: القوم الذي قتلوا نبيّهم وألقوه في تلك البئر.
ـ ثمود: قوم النبيّ صالح (ع).

١٣ـ عاد: قوم عاد، ونبيّهم هود.
ـ فرعون: ملك مصر.
ـ لوط: نبي، وهو ابن أخي ابراهيم.

١٤ـ أصحاب الأيكة: قوم شعيب.
ـ قوم تُبّع: تبّع: أحد ملوك اليمن.
ـ حق وعيد: نزل بهم العقاب الذي توعدهم الله به.

- وتنتقل السورة الكريمة هنا الى موضوع تكذيب الرسول عبر العصور، فتذكر أن هذا التكذيب للرسل هو حالة مشتركة بين الشعوب الكافرة التي أرسل الله تعالى إليها الأنبياء لهداية البشر. وتسمّي بعض هذه الشعوب بالاسم.

أول الشعوب التي كذبت الرسل كان قوم نوح. وقد تحدّث القرآن الكريم عن هؤلاء القوم في عدة سور. ومنها نوح، وفيها: "قال ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزدهم دعائي إلا فرارا. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا... مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً..."

ومثل ذلك في سورة يونس الآية ٧١. وسورة هود الآيات ٣٢ و٣٦ و٤٢ و٤٥...

فدعا نوح ربّه، قال: "ربِّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا. ومكروا مكراً كُبّارا. وقالوا: لا تذرنّ آلهتكم، ولا تذرن وداً ولا سُواعاً ولا يغوث، ويعوق ونسرا..."

وكان قومه يعبدون هذه الأصنام. فأوحى الله الى نوح أن يصنع السفينة. فبدأ في صنعها. فكانوا يمرّون به فيسألونه: تعمل سفينة في البر؟ فكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون. وصنعها كما أمر الله.

وكان الله تعالى قد عهد الى نوح: "فإذا جاء أمرنا وفار التنّور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك، إلا من سبق عليه القول، ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل."

وحمل نوح في سفينته أولاده الثلاثة: سام، وحام، ويافث، وأناساً مؤمنين... وتخلف عنه ابنه (يام)، وكان

كافراً...وجاء أمر ربك: "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر". فالتقى ماء السماء بماء الأرض، وكثر الماء، وارتفع، وحمل معه السفينة التي سارت برعاية الله: "وحملناه على ذات ألواح ودُسُر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر."

وخاف نوح على ابنه (يام) من الهلاك فناداه: "يا بنيّ اركب معنا ولا تكن من الكافرين". فأجابه: "قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء". فأجابه نوح: "لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم." "وحال بينهما الموج فكان من المغرقين."

وكان بين بدء الطوفان وانتهائه ستة أشهر وعشر ليال... وبقيت السفينة تسير حتى انتهت الى الجوديّ، وهو جبل في أرض الموصل، فاستقرت عليه. وأمر الله تعالى: "قيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي." فابتلعت الأرض ماءها، وتوقفت السماء عن المطر، وتجمعت المياه بحاراً على الأرض.

ولما خرج نوح من السفينة بنى لمن كان معه مساكن قريبة من جبل الجودي... وسام هو جد الجنس الأبيض من بني البشر، وحام جد الجنس الأسود، ويافث كان أولاده شقراً وحمراً. وقسم نوح الأرضين بين أولاده...

- أما أصحاب الرسّ فكانوا يعبدون شجرة صنوبرة كان أحد أبناء نوح (يافث) قد غرسها بعد الطوفان عند عين ماء. وكان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطئ نهر يقال له الرسّ... وقد كان أهل كل قرية يخرجون الى تلك الصنوبرة في شهر معين من أشهر السنة، وهو الشهر الذي تسمَّى باسمه هذه القرية، ويقدّمون لها القرابين، ويذبحون الذبائح ثم يحرقونها، ويسجدون للشجرة ويبكون ويتضرّعون، والشيطان يكلمهم من الشجرة... وبعث الله إليهم رسولاً من بني إسرائيل فدعاهم الى عبادة الله وترك الشرك، فلم يؤمنوا. ودعا ذلك النبي على الشجرة فيبست... واجتمعت آراؤهم على قتله، فحفروا بئراً عميقة وألقوه فيها، وسدّوا رأس تلك البئر، وأقاموا عليها يسمعون أنينه حتى مات. فأهلكهم الله عن آخرهم.

- وثمود هم قوم النبي صالح عليه السلام، والذين ورد ذكرهم في سورة الأعراف (الآيات ٧٣ وما بعدها): "والى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره... هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم... فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين."
- سأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: "كذبت ثمود بالنذر. فقالوا: " أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ". فقال (ع): (ثمود هم قوم صالح) بعث الله إليهم صالحاً فلم يجيبوه،

وقالوا له: لن نؤمن لك حتى تخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عشراء. وكانوا يعظمون تلك الصخرة ويعبدونها، ويذبحون عندها في رأس كل سنة... فدعا صالح ربّه، فاستجاب دعاءه، وأخرج لهم تلك الناقة، وقال لهم صالح، كما طلب منه ربّه: لها شِرب يوم ولكم شرب يوم. فكانت الناقة ـ إذا كان يومها ـ شربت الماء ذلك اليوم، فكانوا يحبسونها، فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك. فإذا كان الليل... ثم أصبحوا في اليوم التالي غدّوا الى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة منه. ومكثوا على ذلك ما شاء الله.

وعَتَوْا عن أمر ربّهم، واتفقوا على قتل الناقة. ووعدوا من يقتلها بأن يجعلوا لها مكافأة ما أحب. فجاءهم رجل أحمر، أشقر، أزرق، ولد زنا لا يعرف له أب.

فلما توجهت الناقة الى الماء لتشرب، تركها حتى شربت وأقبلت راجعة، فضربها بالسيف فقتلها... وهرب فصيلها حتى صعد الى الجبل... وأقبل القوم فلم يبق منهم أحد إلا شارك في ضربها... واقتسموا لحمها، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها.

فأوحى الله تبارك وتعالى الى صالح: إني مرسل إليهم عذابي الى ثلاثة أيام، فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم، وإن لم يتوبوا ولم يرجعوا أنزلت عليهم عذابي في اليوم الثالث.

فلما أخبرهم صالح بما أوحى إليه ربّه أجابوه: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. وأعدوا خطة للخلاص منه، فنجاه الله من شرهم.

وبعد مرور ثلاثة أيام وهم على كفرهم وعنادهم وإصرارهم على تكذيب نبيّهم... ولمّا كان نصف الليل، أتاهم جبرئيل فصرخ صرخة خرقت أسماعهم وقطعت قلوبهم، وفتت أكبادهم... فماتوا جميعاً في طرفة عين... وأرسل الله إليهم من الصيحة ناراً من السماء أحرقتهم أجمعين.

وثمود وقوم صالح من العرب الذين كانوا يسكنون وادي القرى ما بين المدينة والشام. عمروا الأرض، وبنوا القصور، ونحتوا البيوت في الجبال. وحفروا الآبار وزرعوا الزرع من النخيل وسواها...

- وعاد هم قوم هود، وحديثهم في سورة هود (الآيات ٥٠ ـ ٦٠)

"والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون... ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولّوا مجرمين... ولمّا جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ..."

- في "الميزان في تفسير القرآن" يقول عن عاد قوم هود:

هؤلاء قوم من العرب من بشر ما قبل التاريخ، كانوا يسكنون الجزيرة العربية، انقطعت أخبارهم، كانوا قوماً يسكنون الأحقاف، وكانوا أولي بطش شديد، وكان لهم تقدم في الحضارة، وبلاد عامرة، وأرض خصبة ذات جنان ونخيل وزروع، ومقام كريم.

والأحقاف واد تمتد من عمان الى حضرموت. وقيل إنها جبل بالشام. وعن عاد قوم هود تحدث القرآن الكريم في سور عدة، منها سورة الفجر:"ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد." انتشرت بينهم الوثنية، واللهو واللعب، وبنوا القصور العظيمة ظناً منهم بأنها تخلّدهم فلا يموتون...

فبعث الله إليهم أخاهم هوداً يدعوهم الى الحق، ويرشدهم الى عبادة الله وترك عبادة الأوثان... فامتنعوا عن اتباعه، وأنكروا دعوته، ولم يؤمن منهم إلا عدد قليل. واتهموه بالجنون، وتحدّوه بأن ينزل عليهم العذاب الذي كان يتوعدهم به. فأنزل الله عليهم العذاب، فأرسل عليهم الريح العقيم ما تذر شيئاً أتت عليه إلا جعلته كالرميم... في أيام نحسات استمرت سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، "فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية". وكانوا لما شاهدوا تلك الريح قادمة نحوهم ظنوها عارضاً (مطراً) يتجه نحوهم مستقبل أوديتهم وقالوا: "عارض ممطرنا"، ولكنها كانت غير ذلك: كانت العذاب الذي طلبوا من نبيّهم أن يعجّله عليهم "بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمّر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم" (الأحقاف الآية ٢٥). فأهلكهم الله عن آخرهم ونجّى هوداً والذين آمنوا معه برحمته. (هود: ٥٨).

- والحديث عن فرعون هنا جاء بالاشارة السريعة الى هؤلاء القوم (فرعون وقومه)، مع الإشارة الى أن الحديث عن فرعون يقتضي الحديث عن نبي الله موسى عليه السلام (كليم الله)، والذي هو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم. فقد ورد اسمه في أكثر من مئة وثلاثين موضعاً، وفي أكثر من ثلاثين سورة. وقد اعتنى القرآن الكريم بتفصيل قصته أكثر من غيره.

وقد كانت لفرعون على قومه سلطة قوية جعلتهم يأتمرون بأمره، ويتّبعونه، ويفرض نفسه إلهاً عليهم (ما علمت لكم من إله غيري) سورة القصص الآية ٣٨. و"قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد" سورة المؤمن الآية ٢٩.

وقد تحدث القرآن الكريم عن فرعون وقومه، وما سيكون مصيرهم جميعاً يوم القيامة، فقال تعالى: "يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود"، سورة القصص الآية ٤١. وفي الآية ٤٦ من سورة

المؤمن: "وحاق بآل فرعون سوء العذاب. النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب".

ولا نجد مجالاً للإطالة في هذا الموضوع الذي جعل المثال الأول للجماعة التي تغوي بغواية سيّدها، وتهلك معه ويهلك معها، ويكون في هلاكه، وأحداث حياته مع موسى عليه السلام أبرز وأهم مثال عن الطغاة، والكافرين، والمكذبين للرسل، والضالين... وما يكون من عذابهم في الدنيا والآخرة.

- عن الإمام محمد الباقر عليه السلام (أبي جعفر الصادق عليه السلام)، قال: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله. فطلبهم إبليس الطلب الشديد، وهو يريد غوايتهم. وكان من فضلهم أنهم إذا خرجوا الى العمل خرجوا بأجمعهم، وتبقى النساء خلفهم... وكان إبليس يخرّب ما يعملون.

وقال بعضهم لبعض: تعالَوْا نرصد هذا الذي يخرّب عملنا. فرصدوه، فإذا هو غلام من أحسن الغلمان... فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه... فأفسد بعضهم بأن علمهم بعض العادات القبيحة. وعلّم بعضهم بعضاً هذه العادات القبيحة، حتى اكتفى الرجال بالرجال، ثم تركوا نساءهم وأقبلوا على الغلمان... وأغوى نساءهم أيضاً حتى اكتفت النساء بالنساء.

وبعث الله تعالى جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في زيّ غلمان مَرّوا بلوطٍ وهو يحرث أرضه. فسألهم لوط: أين تريدون؟ فقالوا: إنّا رُسُل سيّدنا الى ربّ هذه البلدة. قال: أولم يبلغ سيّدكم ما يفعل أهل هذه القرية؟ (وأخبرهم بما كانوا يفعلون).

وسقط المطر تلك الليلة بغزارة... وأخذ إبليس من حجر امرأة صبياً، فطرحه في الماء، فاجتمع أهل المدينة على باب لوط يتصايحون... فلما نظروا الى الملائكة في منزل لوط، ظنوهم أشخاصاً عاديين من الغلمان، فأرادوا أن يأخذوا هؤلاء الغلمان، فقال لهم لوط: هؤلاء ضيفي فلا تفضحون... وأصرّوا على طلبهم، وتدافعوا على الباب، وكسروه، وطرحوا لوطاً أرضاً، فقال له جبرئيل: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك. وأخذ كفاً من تراب الأرض، فضرب به وجوههم...

وأراد لوط من رُسُل الله أن يعجّل لهم العذاب، فقال: يا لوط إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فخذ أنت بناتك وامض ودع امرأتك.

وكان عدد قرى لوط أربعاً. وكان لوط وقومه من الكلدان، فنجاه الله مع عمّه ابراهيم الى الأرض المقدسة، فنزل في بعض بلادها، وهي مدينة سدوم، وهي المعروفة (بالمؤتفكات) سورة التوبة الآية ٧٠. وكان أهلها يعبدون الأصنام، ويأتون الفاحشة: اللواط... فأرسل الله لهم لوطاً، فدعاهم الى تقوى الله، فنقموا عليه، وحاولوا إخراجه من

قريتهم. وأرسل الله على قوم لوط حجارة من طين، وقلب مدائنهم فجعل عاليها سافلها وأخرج من كان فيها من المؤمنين.

- وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب النبي (ع). وكانوا يسكنون الغيضة على الطريق ما بين المدينة والشام. والأيكة تعني الشجر الملتف بعضه ببعض، وهي الغيضة، ومعناها أيضاً البقعة كثيفة الأشجار.

ويقال إن قوم شعيب كانوا يسكنون الخربة، وقد أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم لدعوة شعيب (ع). ويقال إنهم أهل (مَدْيَن) وهي مدينة في طريق الشام.

وشعيب ثالث الرسل من العرب الذين وردت أسماؤهم في القرآن الكريم، وهم هود وصالح وشعيب، ومحمد عليهم السلام. وقد ذكر الله تعالى قصة شعيب مع قومه في سور الأعراف، وهود، والشعراء، والقصص، والعنكبوت.

وكان شعيب معاصراً لموسى (ع)، وقد زوّجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج (سنوات)... فخدمه موسى عشر سنين، ثم ودعه وسار بأهله الى مصر.

كان أهل مدين يعبدون الأصنام، وكانوا يعيشون حياة رفاهية وخصب... فشاع الفساد بينهم، وبالأخص نقص المكيال والميزان... فأرسل الله تعالى إليهم شعيباً ينهاهم عن عبادة الأصنام، وعن الفساد في الأرض، ووعظهم ووعدهم وبشّرهم، وأنذرهم وحذرهم وذكرهم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط... فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً. ولم يؤمن به إلا فئة قليلة منهم اضطهدهم قومهم، وسخروا منهم، وهددوهم، وتوعدوهم... ورمَوْا شعيباً (ع) بالجنون والكذب والسحر، وهددوه بالرجم، كما هددوا أتباعه بإخراجهم من أرضهم وديارهم... فدعا شعيب ربّه: "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين." فأرسل الله تعالى عليهم عذاب يوم الظلّة (الشعراء ١٨٩)، وأخذتهم الصيحة (هود ٩٤) والرجفة (الأعراف ٩١) و(العنكبوت ٣٧). "ولمّا جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين." (هود ٩٤).

- ويطلق أهل الأخبار لقب (تُبّع) على الملوك الذين حكموا اليمن، كما يطلقون على مجموعهم (التبابعة)، لأنهم يتبع بعضهم بعضاً، كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعاً له على سيرته... وهذا اللقب لا يلقب به إلا الملوك الذين يملكون اليمن والشحر وحضرموت. ويتبعهم (بنو جشم بن عبد شمس). وأول ملوكهم (الحارث بن ذي شمر). وقد زالت مملكتهم عندما دخلت الحبشة اليمن وملكته. ويقول بعضهم: إن (التبّع) الحميري الذي ورد ذكره في القرآن الكريم أتى سمرقند فهدمها. ويقول آخرون إن (التبّع) هذا كان رجلاً صالحاً

من العرب، دخل اليمن، وكان أهلها يعبدون الأوثان، فدعاهم الى دينه. وكانت بينه وبينهم أحداث، فدخلت حِمْيَرُ اليهودية. وهدم بيت (رئام) وهو بيت كانوا يعظمونه وينحرون عنده... وانتصر عليهم.

وقد ذكر أن تبّعاً هذا أول من كسا البيب، وأن الرسول (ص) نهى عن سبّه. وللتبابعة قصص طويل في كتب أهل الأخبار... منها أن بعض التبابعة قد آمنوا برسالة الرسول (ص)، وعرفوا اسمه قبل ميلاده بمئات السنين. ويذكر أن تُبَّعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هنا حتى يخرج هذا النبي... أما أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه.

وبلغت فتوحات التبابعة الصين في المشرق، وروما في المغرب. وكان الحميريون يسيطرون على القسم الجنوبي الغربي من العربية الجنوبية، ولا سيما في مدينة ظفار...

وكان الحميريون قد أقاموا إمارات ودولاً عديدة، مترامية الأطراف، وقامت بينهم وبين دول غيرهم من أهل ذلك الزمان حروب كثيرة، وقد بلغوا من السطوة، وشدّة البأس، والسلطان، وخضوع الناس لهم... ما امتلأت به كتب التاريخ. *(المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ـ الجزء الثاني)*.

- وتكمل الآية ١٤ من هذه السورة الكريمة (ق) الحديث الذي بدأته بإعطاء المثل للنبي (ص) عما كان موقف المشركين منه، بعد أن عددت أمماً وشعوباً كانت مواقفهم من أنبيائهم كموقف قريش من النبي (ص)، وانتهت الآية بقوله تعالى: كلٌّ كذب الرسل.

أما الموقف الإلهي من هذا التكذيب فكان الوعيد، وهو التخويف من العقاب. وقد رأينا أن الله تعالى كان يحدد لكل شعب من الكافرين العقاب الذي يمكن أن ينزل بهم.

أما الكافرون، فما كان أحد منهم يرتدع عن موقفه من الرسل وتكذيبه لهم، واستمر على عناده... حتى إذا انتهت مهلة الإنذار ـ كما رأينا في ما عرضناه من أحوال تلك الأقوام ـ كان الله تعالى ينزل بهم العقاب الذي قرّره لهم. وهذا معنى: فحق وعيد. ويعني هذا التعبير (فحق وعيد) أيضاً في ما يعني:

ـ أنه كان عقاباً يستحقونه، وليس فيه ظلم لهم... وجرى في طريق صحيح من تحذير، الى إندار، الى توضيح نوع العقاب...

ـ وأن هذا العقاب لم يكن من باب التهويل، وإنما هو من كلام الله الذي يجب أن يحمل دائماً على محمل الجد، والله لا يخلف وعده.

ـ ثم إن هذا العقاب (الوعيد) هو وسيلة من وسائل الدعم للرسل ليكون عبرة للكافرين، وعبرة لكل متأمل، ومشاهد، ومفكّر... وضمانة للرسالات السماوية وإثبات مصداقيتها. وردعاً للمعاندين...

- أما لماذا يذكر الله تعالى أخبار هذه الشعوب القديمة، وأخبار الأنبياء الذي أرسلوا إليهم... فقد ورد تفسير ذلك في سورة هود الآية ١٢٠ "وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين." ولسبب آخر ذكره في سورة الأعراف الآية ١٧٦: "ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون."

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ
الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا
لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)

١٥ـ افعيينا: هل ترى أنه يصعب علينا خلقهم من جديد (كما خلقناهم أول مرة.)
ـ لبس: شك واختلاط، وعدم يقين.

١٦ـ حبل الوريد: أكبر شرايين العنق.

١٧ـ المتلقيان: الملكان اللذان يسجلان أعمال الإنسان.
ـ قعيد: ملك يثبت في موقعه لا يغيب عنه أبداً.

١٨ـ رقيب عتيد: ملك يراقبه، حاضر معه دوماً.

- ثم ينتقل الله تعالى بعد ذكر مثل الأقوام الآخرين وما جرى لهم ليؤكد موضوع الخلق، وكيف بدأ الله خلق هذه المخلوقات، وهنا يأتي السؤال: أفعيينا بالخلق الأول؟

وفي هذا الكلام رد على الكافرين والمشركين هنا موجّه للنبي (ص)، وفيه بحث عن السبب الذي دفع بالكافرين والمشركين من العرب الى رفض فكرة الحياة بعد الموت، والبعث والحساب. كما أن فيه احتمالين للرفض:

ـ **الأول**: هو عدم فهم فكرة (الخلق الأول)، أي خلق المخلوقات ـ والإنسان من هذه المخلوقات ـ لأول مرّة. وقوله أفعيينا بالخلق الأول، وهو خلق غير مسبوق لا بمثاله، ولا بمادته... ثم إن هذا الخلق يحتاج الى كثير من الضرورات حتى يصير خلقاً سوياً.

ومنه أيضاً أن هذا السؤال (الاستفهام) هو استفهام إنكاري، يقصد به إبعاد هذه الفكرة من الأذهان، ويصير المعنى: أن الخلق الأول لم يكن مستحيلاً علينا، ولا صعباً، وما كان فيه علينا عناء (تعب) ولا مشقة.

ـ **والثاني**: بل هم في لَبْس من خلق جديد. وهذا الاحتمال الثاني هو الأرجح في حالة هؤلاء الكافرين، وذلك بدليل استعمال (بل). وبها (بل) تجري المقابلة بين احتمالين: فهي تنفي الاحتمال الأول، لتثبت الاحتمال الثاني.

فالقضية إذن هي أن هؤلاء المشركين قد التبس عليهم أمر <u>الخلق الجديد:</u>

١ـ لأنهم لا يعرفون أن هذا (الخلق الجديد) هو إعادة إحياء لشيء كان موجوداً قديماً، من مواد أولية باقية، ويمكن إعادة تصنيعها... كما يحصل اليوم في بعض قضايا علوم الأحياء، إذ أنه يمكن إعادة تكوين شيء قديم انطلاقاً من خلايا كامنة في بقايا ذلك المخلوق القديم...

٢ـ ثم لأنهم نسوا أنفسهم وكيف كان بدء خلقهم، على نحو ما ورد في سورة (يس) من قوله تعالى: "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم". (يس الآيتان ٧٨ و٧٩).

٣ـ وفي بعض كتب التفسير أن من أسباب نزول هذه السورة أنها نزلت في أُبَيْ بن خلف الذي قال لأبي جهل: تعال إليّ أعجبك من محمد. ثم أخذ عظماً ففتّه، ثم قال: يا محمد، تزعم أن هذا يُحيا؟

فأبي هذا جاهل بالخليقة، ودليله هذا سخيف، وعلمه ناقص، وإدراكه محدود... فوقع هو وأمثاله في أمر مريج لا يجدون له تفسيراً، ويتجاوز أفهامهم، ويجعلهم في حَيْرةٍ لا يعرفون كيف يخلصون منها.

ولكن القرآن الكريم يشرح هذا الأمر، ويبقى أن يكون للإنسان القارئ أوالسامع... أن يكون له قلب يفقه ما يسمع، أو أذن تسمع، أو عين ترى...

- ولا يتأخر الرد على هؤلاء الكافرين. ويتأتى هذا الرد بكشف بعض أسرار الخليقة، وبصورة خاصة الإنسان.

تقول الآية الكريمة: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد".

فهذا الخلق ليس عملية رسم صورة الإنسان، تأتي بعدها فترة التخلّي عن هذا الإنسان وتركه يواجه الزمن والقدر وحده، ولا يكون لخالقه ـ بعد الخلق ـ أي شأن معه. وأنه لا علم للخالق بما يصير إليه مخلوقه... كالنجار الذي يصنع خزانة، أو كرسياً، أو باباً... ثم لا هو يدري بما سيحدث له فيما بعد، ولا هو مسؤول عنه: عن حياته وأفعاله، ومسيرته في حياته الدنيا، وما سيؤول إليه بعد انتهاء عمره في هذه الحياة الدنيا.

- ويصف الله تعالى علاقة الإنسان بخالقه، ومقدار إحاطة الله تعالى بأحوال مخلوقاته، ومدى سيطرته على هذه المخلوقات في بقائها، ثم بعد موتها (فنائها) في فترة ترقّب... وفي الفترة التي تعقب هذه الفترة، وهي الحياة الآخرة.

- أما عن علاقة الإنسان بخالقه فالله تعالى يعلم عن الإنسان ليس فقط ما يقوم به من الأعمال الظاهرة، وما يأتيه من الأفعال المرئية... وإنما علمه يمتد الى كل حركة من حركات جسمه الداخلية، والى كل فكرة تخطر بباله، والى كل عقيدة يعتقدها، والى كل مخطط يرسمه، والى نظرته الى الأشياء... والإنسان يظن أن هذه الأمور كلها تبقى مدفونة في نفسه لا يعرفها سواه... فيخبره الله تعالى: ونعلم ما توسوس به نفسه.

فالسيطرة الإلهية لله تعالى على مخلوقاته سيطرة تامة، وذلك على نحو ما ورد من قوله تعالى في سورة الإسراء الآية ٢٥، وفي سورة البقرة الآية ٢٣٥، و ٢٨٥.

هذا بالإضافة الى تفصيل آخر عن علاقة الإنسان بربّه تتمثل في قوله تعالى: "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد." وحبل الوريد هذا هو مجموعة تلك الأوردة التي يمتلئ بها جسم الإنسان، فما من عضو ـ صغير أو كبير ـ إلا وهو يتعلق بهذه الأوردة. فما من شيء يحصل في جسم الإنسان إلا وهو حاصل من خلال هذه الأوردة. وقوله تعالى: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد يعني أن الله تعالى هو الأعلم بما تحمله هذه الأوردة من الأعضاء وإليها. وما من شيء يعبر خلالها إلا هو مسيّر بإرادة الله تعالى، وهو يحمل هذه الإرادة الى كل مكان، وبأسرع ما يكون، سواءً أكان جريانه في هذه الأوردة ظاهراً أو باطناً، يحس به الإنسان أو لا يحسّ به... وكل ذلك كناية عن أن الله تعالى محيط بكل شيء، فلا يحصل شيء إلا بإذنه، ولا يكون إلا بإرادته، وهذا الكون بالإرادة أسبق من الكون الفعلي.

- فمعرفة الله تعالى بما يصير إليه الإنسان معلوم من الله بعلم مسبق، وقبل أن تثبت هذه الصيرورة... وقد يسبق العلم بما سيجري حدوث هذا الشيء بزمن طويل، وهذه هي حال معرفة مصير الأبدان الميتة المتحللة عندما يأتي يوم القيامة.

- ومظهر آخر من مظاهر هذه المعرفة ما يبنى على واقع الرقابة المفروضة على الإنسان في حياته الدنيا، إذ يرافقه ملكان (المتلقيان)، وهما اللذان يشهدان الأفعال، فيسجلانها. وهما قد أحاطا بالإنسان عن يمينه والشمال، وقد قعد كل واحد منهما لهذه الغاية، لا يبرح مكانه، ولا يسهو، ولا ينسى، ولا يتلكأ في القيام بواجباته من إحصاء الأفعال وتسجيلها. كما أنهما لا يهملان شيئاً مما يحدث على مرأى ومسمع منهما، ومهما كان صغيراً، حتى لو كان من الحاجيات الجسدية الروتينية كالتنفس والكلام... وهذا معنى قوله تعالى: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد". فالمراقبة مشدّدة، ولا يغيب عن الرقيب شيء.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩)
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ
مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا
عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)

٢٠ـ الصور: آلة ينفخ فيها (بوق)
ـ يوم الوعيد: اليوم الموعود الذي ضرب موعداً للحشر (يوم القيامة).

٢٢ـ حديد: ثاقب، يرى ما كانت تصعب عليه رؤيته من قبل.

- ثم ينتقل الحديث بعد ذلك في الآيات الكريمة (١٩ـ ٢٢) الى إعطاء صور مما سيحدث للإنسان عند الموت، ثم يوم القيامة، ثم عن كيفية الحساب...

ـ أول طريق الإنسان باتجاه الحياة الآخرة هي ما يصيبه مما يسمى (سكرة الموت). وهي نوع من الغياب عن الوعي، يتبعه شيء من الضعف وعدم القدرة على الحركة الكاملة... وعدم القدرة على النطق والتعبير عما في داخله من المشاعر... في ما يشبه حالة السكران... وهي حالة تشتدّ وتزيد شيئاً فشيئاً حتى تصير حالة همود كامل تنقطع معه الأنفاس، وتسكن الحركات...

ـ وتتبع هذه الحالة من الهمود والضعف حالة أخرى تشكل بداية الدخول في الحياة الآخرة، وتتمثل في أمور منها:

ـ حدة البصر، وانكشاف جوانب العالم الآخر، مثل رؤية الملائكة الذين يتلقون الإنسان المحتضر... كما في سورة الأنبياء ١٠٣. وكذلك في سورة محمد (ص) الآية ٢٧... وتبدأ مسيرة الحياة الآخرة باتجاه الخير والبركة ورضا الله... أو باتجاه الشر الذي يحيط بالكافر من كل جانب، ويتمثل بالعقاب والضرب...

- وهذه الحالة الجديدة التي يدخلها الإنسان عند مفارقته للحياة الدنيا هي بداية انكشاف الحقيقة التي كذب بها الكافرون. وما يحصل لهم من معاملة فيها امتهان لكرامة الكافرين، واحتقار لهم، وتقريع وملامة وعقاب أوّلي... هي ما يستحقه هؤلاء الكافرون. كما أنهم يوقنون وهم في هذا الموقع، وعلى تلك الحال بأن وعد ربهم حقيقة حاصلة لا محالة، وما كانت من باب التخويف والتهويل.
- وهذه الحالة التي يصير اليها الكافرون كانوا قد سمعوا عنها من الأنبياء، ولكنهم كانوا يتحاشونها بالتكذيب للمرسلين، وعدم القناعة بأن مثل هذا العقاب يمكن أن يطالهم (ذلك ما كنت منه تحيد). ولعلّهم ما كانوا

يفكرون بأنهم سيموتون... وهذا بسبب المكابرة، أو لعله غفلة عن الحقيقة، وأملهم بأن وقت مثل هذا العقاب ما زال بعيداً، وما زال أمامهم متّسع من الوقت، فلا يحسبون له حساباً.

- وتتحدث هذه الآية الكريمة عمّا يحدث للإنسان عند الاحتضار باستعمال صيغة الماضي (المعلوم أو المجهول)، وكأنه أمر قد حدث فعلاً. والغاية من هذا تأكيد حصول هذه الأمور على النحو الذي ورد ذكره، أو كأنه يحصل الآن فعلاً، فيصبح الكافر كأنما يرى صورة من صور الغيب ماثلة أمام عينه، فلا يجد بعد ذلك مجالاً للانكار أو عدم التصديق.

وتأتي الصورة الثانية، وهي صورة البعث يوم القيامة للحساب. ومبدأ هذه الصورة نفخة في الصور. وهي ما توعدهم الله بها، وحدثهم عنها الانبياء.

وعن النفخة في الصور تحدثنا الآيات: الأنعام ٧٣، والكهف ٩٩، وطه ١٠٢، والمؤمنون ١٠١، والنحل ٨٧، ويس ٥١، والزمر ٦٨، والحاقة ١٣، والنبأ ١٨.

وفي الحديث عما يحصل للإنسان عندما يسمع تلك النفخة:

- تجمع الناس للحساب (الكهف ٩٩).
- وسقوط فكرة الأنساب والروح العشائرية والقبلية (المؤمنون ١٠١)
- وفزع عظيم يصيب من في السموات ومن في الأرض. ويصعقون منها...
- وخروج الناس من القبور...

أما صيغة الحديث عن هذا الأمر فهي استعمال الفعل الماضي المجهول. والصورة الكاملة أن هؤلاء الناس الذين يصيبهم ذلك الهلع لا يعرفون ما يجري لهم، ولا ما ينتظرهم. وكأنما هم يتساءلون: ما هذا؟ فيأتيهم الجواب: ذلك يوم الوعيد. واستعمال ذلك هنا (اسم إشارة للبعيد) للدلالة على أن هذا ما أخبركم به الأنبياء منذ زمن بعيد قد حان وقته الآن.

- ثم تدخل الآية الكريمة (٢١) في بعض تفاصيل يوم القيامة، ففيها: "وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد". وهذان (السائق والشهيد) من الملائكة، واحد يدفع هذه النفس دفعاً، ويسوقها سوقاً، مع ما يوحي به سياق الكلام من الغلظة والقساوة... والثاني جاء ليشهد يوم الحساب بما يعرفه عن هذه النفس، ولعله هو الذي كان مأموراً بتسجيل الوقائع التي كانت تحصل لتلك النفس.

- وأمام هذا الموقف المرعب الذي يضع الإنسان في مواجهة أعماله، والشهود الذين يشهدون عليه، وما أصابه من الخوف في ذلك الموقف... ويرى ذلك منه من وكلوا به من الملائكة، ويقدّرون مدى خوفه...

فيأتيه تفسير ما هو فيه: "لقد كنت في غفلة من هذا". وهذه الغفلة معناها عدم التصديق بما كان يسمع من الأخبار عما سيأتي، وبما كان يعظ به الأنبياء كلّ كافر... وهو في لهو ولعب، وعدم يقين، لأنه يرى ذلك أمام ناظريه، وهو ـ بسبب ماديته ـ ما كان ليؤمن بشيء لا يراه، وهو واقع فعلاً. واليوم، وقد كشف الغطاء الذي كان يمنعه من الرؤية: كشف عن عينيه، فهو يرى الآن الحقيقة كاملة، وبخاصّة بعد أن قوي بصره (فهو حديد) فصار يرى ما لم يكن يراه من قبل.

- وكأنما يتعجب هذا الإنسان الكافر مما هو فيه، وكأنه يريد أن يتنصّل من العقاب، فيلقي باللائمة على سواه، ويدّعي عدم العلم بما يجري، وبأنه لم يخبره أحد بذلك.

ويأتيه الخطاب: "لقد كنت في غفلة من هذا." وهذا معناه: إنك كنت تعرف ذلك، وقد سمعت به، وحدثك به رسولك... ولكنك كنت منكراً، وجاحداً، وغير مصدّق، أو غير مقدّر لصحة ما يقال لك، ومستهتراً به...

- ثم تشرح له الآية الكريمة ما يجري فتقول: كنت تسمع ولا ترى. فتكذب ما تسمع ولا تصدق ما لا تراه. أما الآن، فقد رفعت عن عينيك الغشاوة التي كانت تمنعك من الرؤية فصرت ترى ما لم تكن تراه من قبل. "فكشفنا عنك غطاءك" "فبصرك اليوم حديد".

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)

٢٣ـ قرينه: الملك المرافق له.
ـ عتيد: مهيأ وحاضر.
٢٥ـ مريب: متردد.

- وفي الخيال تثور مسألة كبيرة، ونوع من الجدل أو النقاش من ذلك الإنسان الكافر في محاولة للرمي بالمسؤولية على غيره، والنجاة بنفسه، أو على الأقل السعي لتخفيف العقوبة.

وللملاك الذي جاء معه (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) دور في الأمر. ولعل الكافر هو الذي استنجد به ليكون الى جانبه ويساعده في الخروج من المأزق الذي وقع فيه. وعندما يصل الأمر الى هذا الملاك الشاهد، تكون شهادته كالآتي: "هذا ما لديّ عتيد". ونفهم من هذا الجواب أنه يقول: ليس لديّ الحق في النظر في هذا الأمر، ولا في التوسط لأحد، ولا في أي تغيير أو تبديل... فالحكم حاضر، وما علينا إلا التنفيذ (هذا ما لديّ عتيد). ثم يأتي الجواب من عند الله تعالى، وبكل قوة وحزم، ورفض لتغيير الحكم أو النظر فيه، وهو مثل الحكم الذي حكم به على أمثاله: "ألقيا في جهنم كل كفّار عنيد. منّاع للخير معتدٍ مريب. الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد". فالحكم هو عقاب على عدة جرائم ارتكبها الكافر فاستحق عليها مثل هذا العقاب الشديد.

ـ **أما الجريمة الأولى**: فهي أنّه كفّار. وكفّار صيغة مبالغة، ومعناها شديد الكفر، والظاهر أن الكفر ليس جريمة واحدة. فكل كفر في قضية من القضايا هو جريمة، فإذا كفر الإنسان بعدّة أمور، فهو يستحق على كل أمر كفر به عقاباً خاصاً به.

ـ **والجريمة الثانية**: العناد. ويعني ذلك أن الدعوة الى الإيمان قد تكررت، وتكرر الرفض حتى صار موقفاً معانداً، لا عن عقيدة ولا عن رويّة.

ـ **والجريمة الثالثة**: منع الآخرين من عمل الخير، وامتناعه هو نفسه عن عمل الخير مع المحتاجين الى هذا الخير، بل كان لا يكفّ أذاه عن هؤلاء المحتاجين، وكان يعتدي عليهم بمختلف أنواع الاعتداء، وهذا الاعتداء مما يثير الريبة حوله، ويجعله موضعاً للتهمة والمساءلة.

ـ **والجريمة الرابعة**: معتد مريب: فهو ما كان ليمتنع عن عمل الخير مع المحتاجين الى هذا الخير فقط. بل كان لا يكف أذاه عن هؤلاء المحتاجين. فكان يعتدي عليهم بمختلف أنواع الاعتداء. وهذا الاعتداء مما يثير الريبة حوله، ويجعله موضعاً للتهمة والمساءلة.

ـ **والجريمة الخامسة**: هي الشرك بالله: الذي جعل مع الله إلهاً آخر. ولعل هذه هي أكبر جرائمه. والدليل على ذلك قوله تعالى: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر دون ذلك لمن يشاء." (سورة النساء الآيتان: ٤٨ و ١١٦). ويكون الموقف النهائي من الله تجاه الكافر:

ـ "فألقياه في العذاب الشديد".

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧)
قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨)
مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ
لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)

٢٧ـ قرينه: الملك الذي يسجل أعماله ويشهد عليه. أو صاحبه الذي أغواه.

٢٨ـ الوعيد: التحذير

- جاء الحديث عن القرين في القرآن الكريم في عدة سور:

ـ في سورة الزخرف: ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. الآيات ٣٦ـ ٣٧ـ ٣٨.

ـ وفي سورة النساء: ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا. الآية ٣٨.

ـ وفي سورة فصلت: وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين. الآية ٢٥.

وفي البحث عن هؤلاء القرناء في ما ذكرنا هنا من الآيات الكريمة، معطوفة على ما ورد في سورة المجادلة الآية ٢٢، وفيها "أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه..." نجد أن الله تعالى يقيّض للإنسان المؤمن روحاً منه تهديه الى الخير. كما يقيّض للكافرين قرناء، وهم عادة من الشياطين، وهؤلاء الشياطين يصدّون قرناءهم عن السبيل. والشياطين عادة هم قرناء سوء... ويكون ذلك على سبيل الاختبار، وعقاباً للمشركين على شركهم بالله وكفرهم به.

- فإذا جاء يوم الحساب يحاول الكافر أن يلقي باللائمة على قرينه الذي أفسده وخدعه، وأورده موارد الهلكة. كما يحاول القرين أن يتنصّل من التهم التي يلقي بها الكافر عليه. ومن هنا: "قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد" وهنا يأتي الجوا ب من الله تعالى:

ـ لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد. ومعناها:

أنه في هذا الموقف أمام الله تعالى لا مجال للاختصام، وذلك لأسباب منها:

ـ وقد قدمت إليكم بالوعيد، فقد كان هذا الوعيد تحذيراً من الشيطان وشركه، وتخويفاً للإنسان من العقاب الذي يناله على كفره. وبتقديم الوعيد تسقط الحجة من يد كل معترض، ولا تعود لحجته قيمة ولا منفعة. فهي حجة في غير مكانها.

ـ ومنها أيضاً: أن الحجة ثابتة على الكافرين، وجميع أقوالهم وأفعالهم مسجّلة عليهم في كتاب أعدّه الحافظون الذين ورد ذكرهم في سورة الانفطار الآية ١١ وما بعدها. "وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يكتبون ما تفعلون". هذا بالإضافة الى شهادة أعضاء البدن على الإنسان، وغيرها من وسائل الإثبات. والنتيجة في قوله تعالى: "ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلاّم للعبيد."

- أما المصير ـ مصير الكافرين فإلى جهنم حتماً.

ويمكن أن يتساءل بعضهم: وكيف تستوعب جهنم تلك الأعداد الكبيرة من الكافرين المجرمين؟

ويأتي الجواب من النار عندما تسأل عن استيعابها لكل هذه الأعداد الكبيرة بقوله تعالى: هل امتلأت؟ والجواب: هل من مزيد؟ ويعني ذلك أنها تتسع للكثير من المجرمين، وهي لا تضيق بهم أبداً.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)

٣١ـ أزلفت الجنة: كانت قريبة منهم.

٣٢ـ أوّاب: من ترك المعصيات وعاد الى ربه يطيعه ويعبده...

٣٣ـ جاء بقلب منيب: عاد الى ربه تائباً.

٣٤ـ يوم الخلود: هذا بدء الحياة الآخرة التي لا نهاية لأمدها..

- وتستمر الآيات الكريمة في رسم صورة من صور يوم القيامة. فبعد أن جاء وصف النار التي ألقي فيها ذلك الكافر الجبار العنيد، وكل جبار عنيد مثله... إذا بصورة الجنة تنقلنا الى شيء من الطمأنينة بعد الرعب الذي أصاب القارئ عن جهنم وأهلها، وما يلقون فيها من العذاب. وتبقى الصورة راسخة في الذهن، ولا تمحى من الذاكرة، وكأن المشهد ثابت أمامنا، وفيه خوف من النار ورغبة في الابتعاد عنها. كما فيه أُنس بالجنة ورغبة في أن يكون المصير إليها.

- و"أزلفت الجنة للمتقين غير بعيد"، بحيث يرى أهل النار ذلك النعيم الذي أصاب أهل الجنة، ويقارنون بينه وبين ما هم فيه من العذاب... وبحيث يرى أهل الجنة ما أصابهم من النعيم في مقابل ما وقع فيه أصحاب النار من العذاب، فيشكرون الله على تلك النعم، ويفرحون بها.

ويأتي الصوت من جديد ليخاطب المؤمنين ويطمئنهم الى ما ينتظرهم من خير يوم القيامة، والذي لا يزال وعداً جسدته تلك الصورة من صور الجنة عملاً بأسلوب الترهيب (التخويف من النار)، والترغيب (التشويق الى الجنة). "هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ". وهذا الوعد حتى يتحقق يجب أن يكون الإنسان مستعداً لذلك بما قدّمه من العمل الصالح، والمتمثل بأمرين:

١ـ الأوبة الى الله تعالى (أوّاب)، وهي توبة الإنسان الى ربّه عن جميع الذنوب التي يكون قد ارتكبها في ما سلف من العمر، والاستمرار في طاعة الله والالتزام بأوامره ونواهيه، والمحافظة على الأركان، وترك الخطايا والموبقات...

٢ـ وحفظ ما تعهّد به الإنسان الى ربّه بأن يطيعه ولا يخالف شريعته، ويحفظها، ويحافظ عليها، فلا ينسى منها شيئاً، ولا ينسى ذلك العهد الذي قطعه على نفسه.

ثم تزيد الآية ٣٣ في وصف الإنسان الذي يدخل الجنة وهو (أوّاب حفيظ). والى جانب هاتين الصفتين صفتان أُخريان هما:

١ـ من خشي الرحمن بالغيب: وهو الإنسان الذي يخشى الله تعالى ويخاف عقابه على الدوام، وبرغم من أنه لا يراه (بالغيب)، لأن طبع الإنسان أن يتعامل بالمحسوسات وحدها. وبالتالي فإن هذا إنسان لا ينسى ذكر الله، ويتصرّف على أساس أن الله تعالى معه دوماً، يرى كل ما يفعل، ويسمع كل ما يقول، ويعرف خفايا نفس الإنسان ولو أنه لم يجهر بها.

٢ـ وجاء بقلب منيب: وهو الإنسان الذي يؤوب الى ربّه، معتمداً عليه، مفوضاً أمره إليه، شاعراً أن الأمر كلّه لله وبيده، يفعل ما يشاء، وما يفعله فيه خير الإنسان.

- ويأتي الصوت مرةً ثانية مطمئناً المؤمنين الذين وقفوا على أبواب الجنة، وكأنهم لا يصدقون ما منّ الله به عليهم من النعمة، ليس تشكيكاً بالأمر، وإنما استعظاماً لتلك النعمة الإلهية، ولشعورهم بأنها أعظم بكثير مما كانوا ينتظرونه من الثواب... ويؤمن بعد ذلك بما جاءت به الآية الكريمة: " وبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً". (سورة الأحزاب: الآية ٤٧). و "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم" (سورة المائدة الآية: ٤٥).

ويبشّرهم الصوت "ذلك يوم الخلود"، وكأنما هو يذكرهم بوعد الله للمؤمنين بالجنة التي يخلّدون فيها، ومعنى ذلك: لا ينازعكم فيها منازع، ولا تخرجون منها أبداً.

ولعلّ هذا الكلام: "ذلك يوم الخلود" أي أن هذا هو ما تكون عليه حال المؤمنين يوم القيامة. وتأتي هذه الجملة لاستكمال الصورة التي ترسمها هذه الآيات عن الجنة التي تنتظر المؤمنين. و(ذلك) هنا للتعظيم، ولتبيان مقدار ما كان يحسه الإنسان من البعد بينه وبين ذلك اليوم (اللام في ذلك لام البعد).

- وتتابع الآية ٣٥ وصف حال أهل الجنة فتقول: "لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد". ومعناها أن هذا الذي يراه المؤمنون من حال الجنات ومن خيراتها ليس كل شيء، وإنما هناك أمران آخران:

<u>الأول</u>: "لهم فيها ما يشاؤون" مما "تشتهيه الأنفس وتلّذ الأعين" (سورة الزخرف ٧١). فيصير حضور النعم مرتبطاً بشهوة الأنفس من كل شيء جميل، وتلذ رؤيته الأعين.

<u>والثاني</u>: ولدينا مزيد: أي أن فضل الله لا يكتفي بتنفيذ رغبات الإنسان فقط. بل إن هذا الفضل يغطي كل شيء جميل يفيض به على الإنسان، فوق ما يشتهيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا
فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى
لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)
وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)

٣٦ـ هل من محيص: هل من مهرب. (أو من ملجأ).

٣٧ـ ألقى السمع: يسمع ويتأمل في ما يسمعه.

٣٨ـ وما مسنا من لغوب: لم يتعبنا ذلك الخلق.

- وتعود بنا الآيات الكريمة الى الموضوع الأساسي في السورة المباركة (ق)، إذ أنها ابتدأت بالحديث عن نبوّة سيّد الرسل محمد (ص)، وما جاءت به من العقيدة، ومنها موضوع البعث والحساب... وكيف أن المشركين لم يصدّقوا بما جاء به الرسول الأعظم.

وتدخل السورة المباركة في مناقشة فكرة الحياة بعد الموت، وكيف أن كثيراً من الشعوب قد كذبت رسلها، فأهلكهم الله تعالى بذنوبهم، ومنهم عاد وثمود وقوم لوط، وأصحاب الرس، وأصحاب الأيكة، وقوم فرعون...

وتعود الآية ٣٦ من السورة الكريمة الى هذا الموضوع وفيها:

ـ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشدّ منهم بطشاً...

وكم هنا هي (كم التعجبية) وتفيد الكثرة بمعنى: كثيراً ما أهلكنا. والقرن بمعنى أول: السيّد، وتعني به الأمة، لأن الأمة تعرف بسيّدها، كما في (عاد) و(ثمود)... وبمعنى ثانٍ: المئة من الأعوام. ويصير المقصود منها جيلاً كاملاً يمتد على مائة عام. وبتعدد المئات تتعدد القرون أو الشعوب أو الأمم.

ومعنى الآية أن الله تعالى أهلك قروناً كثيرةً قبل هؤلاء القوم المكذبين. فليس صعباً عليه تعالى أن يهلك هؤلاء. هذا مع العلم أن القرون السابقة كانت أشدّ بطشاً من هؤلاء.

وهؤلاء القوم الأشداء الذين أهلكهم الله كانوا إذا حلت بهم الكارثة التي رماهم بها الله تعالى يموتون جميعهم، أو يتيهون في البلاد يفتشون عن مكان يلجأون إليه ويحتمون به، ويهربون من تلك الكارثة وذلك العقاب الإلهي الذي حل بهم. ولكن لا مهرب، ولا ملجأ، ولا فرار... والله هو القاهر فوق عباده. (سورة الأنعام ١٨).

أما ما هو سبب التذكير بهذه القرون السالفة وما جرى لهم؟ فتقول الآية الكريمة (٣٨): "إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد". فهي:

ـ ذكرى. ولكن من طبع الإنسان أن ينسى. وإذا تذكر، كثيراً ما لا تنفعه الذكرى، لأنه لا يأخذ منها العبرة، ولا يفكر فيها، ولا يسمع أخبارها.

ـ وشرط هذه الذكرى أن يكون الإنسان ذا عقل يفهم معنى تلك الذكرى، ويستفيد منها. والقلب هنا العقل. واستعمال كلمة القلب للعقل معروف في لغة العرب قديماً، وهذا هو الشرط الأول.

ـ أما الشرط الثاني فهو أن يسمع الإنسان ما يقال له، وهذا يذكّر بقوله تعالى في سورة الأنعام: "ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون". الآية ٧٩. وفي سورة الحج: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور." الآية ٤٦.

وفي هذه حثّ للمشركين والكافرين على الاستفادة من سير الشعوب السابقة، كما أشارت الآيتان ١٢ و ١٣ من هذه السورة المباركة.

ثم يعود ـ جل شأنه ـ للتذكير من جديد بمخلوقاته كما في الآيتين ٥ و ٦ من هذه السورة، فيقول في الآية ٣٨: "ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب." فهذا الخلق العظيم كان سهلاً على الله تعالى، وما كان فيه تعب ولا نصب. فقدرة الله تعالى عظيمة بحيث لا يصعب عليها شيء. وهذا الذي يخلق مثل هذا الخلق لا يصعب عليه أن يعيد خلق شيء سبق له أن خلقه من قبل. إذ أن إعادة الخلق أهون من الخلق أول مرة... وقد تحدثنا عن هذا الموضوع عندما تحدثنا عن أسباب نزول هذه السورة المباركة.

بسم الله الرحمن الرحيم

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
الْغُرُوبِ(٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ
يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ
يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ
تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

٤٠ـ أدبار السجود: بعد كل صلاة.

٤١ـ المنادي: إسرافيل.

٤٢ـ يوم الخروج من القبور استعداداً للحساب.

٤٤ـ يسير: سهل.

- ويعود الله تعالى بالخطاب المباشر لنبيّه صلى الله عليه وآله، كما بدأ السورة الكريمة. والغاية في آخرها كالغاية في أولها، وهي تثبيت النبي (ص) على الدعوة وطمأنته بأنه على حق، وعلى صواب.

وإذا كانت البداية بالقَسَم، وهو أشدّ رهبة، وأعظم تأثيراً في نفس النبي (ص)، وبخاصّة أنه قسم من الله تعالى خالق كل شيء، ورب السموات والأرض وما بينهما ومن فيهن... فإن الخاتمة تأتي هادئة، مُطمئنة، وفيها تعاليم من السماء، وفيها دعوة للعبد وانتظار الحدث العظيم، يوم الخروج. ثم تنتهي هذه السورة المباركة بتحديد مسؤولية الرسول والمطلوب منه في تبليغ الدعوة للناس، وترك الباقي لله تعالى، وهو يعرف كيف يدبّر الأمور.

فالنصيحة إذن تأتي في الآية ٣٩. وفيها: فاصبر على ما يقولون. والوصية بالصبر هذه وصية لجميع الرسل، كما للناس. حتى صار الصبر هو الطريق الى الجنة والثواب. كما في قوله تعالى: "وما يُلَقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم." سورة فصّلت الآية ٤٥.

ثم ترسم هذه الآية خطة من خطط العبادة ليمتلئ بها وقت النبي وهي بعد الصبر، ومعه:

وسبّح بحمد ربك:

- قبل طلوع الشمس،
- وقبل الغروب،
- ومن الليل فسبحه،
- وأدبار السجود.

وما يزال الحديث موجهاً الى رسول الله:

ـ واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب.

والمطلوب هنا انتظار يوم القيامة (يوم ينادي المنادي) الذي يعلن أن قد حان وقت القيامة. وهو هنا يتمثل في قوله تعالى: "إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً." (سورة المعارج الآية: ٦). كما أن فيه معنى أن هذا الحدث (القيامة) سوف يكون على مسمع ومشهد من الرسول (ص). وفيه أيضاً أن جميع الناس يسمعون النداء. إذ أنه (النداء) يأتي من مكان قريب، حتى يظن كل إنسان أنه ينطلق من المكان الذي هو فيه.

وتعود الآية الكريمة ٤٣ الى تطمين الرسول (ص): "إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير." وتفيد بأن الله تعالى هو صاحب الأمر كلّه. وهو يحيي المؤمنين والأنبياء والمرسلين والصالحين...

ثم تصف الآية ٤٤ ذلك اليوم (يوم الخروج): "يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً" فإن هذه العملية في إحياء الأموات وخروجهم من القبور لا تأخذ وقتاً طويلاً (سراعا)، على عكس ما قد يخطر بالبال، لعظمة هذا الحدث... وتتابع الآية عن الله تعالى: "ذلك حشر علينا يسير".

وتنتهي السورة كما بدأت:

"نحن أعلم بما يقولون". وفيها من جديد تطمين للنبي، وضمانة له، وحفظ ورعاية، ودفاع عنه...

وزيادة في الطمأنينة تحدد الآية الكريمة مهمة الرسول (ص): " وما أنت عليهم بجبار". ومعناها أنه ليس مطلوب منك أن تفرض عليهم الإيمان فرضاً وبالقوة، كما ورد في سورة الإسراء: الآية ١٥: "من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى". ومثلها في سورة يونس الآية: ١٠٨.

وتبقى مهمة النبي (ص) التذكير: "فذكر بالقرآن من يخاف وعيد". "وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين" (فصلت الآية: ٥٥).

وتختم هذه الآية الكريمة موضوع العقاب كلّه، جاعلة وعيد الله للكافرين أشد الوعيد. ومن أراد أن يتيقن بما سيكون عليه حال الكفار يوم القيامة، ومن يشكك في هذا العقاب وفي صدق تنفيذه، ومقدار قساوته وشدّته، وحزم الله تعالى مع الكافرين... أن يعودوا الى ما ورد في القرآن الكريم من وصف للعقاب، وهو أمر واضح وصريح وثابت، لا لبس فيه.

- ٣ -

شرح سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

في الحديث عن أسباب نزول هذه السورة المباركة أن قريشاً اجتمعوا في دار الندوة للنظر في أمر النبي (ص). فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربّصوا به المنون، حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير، والنابغة... فإنما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك: "أم هو شاعر نتربص به ريب المنون."

وفي الحديث عن ذكر ثواب هذه السورة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه من قرأها كان حقاً على الله تعالى أن يؤمنه من عذابه، وأن ينعّمه في جنته. كما روي عنه –عليه السلام- أن من قرأها جمع له خير الدارين.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦)

١ـ الطور: جبل الطور في سيناء.
٢ـ مسطور: مكتوب في اللوح المحفوظ.
٣ـ رقّ: صحيفة.
٤ـ البيت المعمور: الكعبة الشريفة.
أو: هو بيت في السماء الرابعة تعمره الملائكة بالعبادة.
٥ـ السقف المرفوع: السماء...
٦ـ المسجور: الملتهب، المشتعل...

- أشرنا في عدة أمكنة الى موضوع (القَسَم)، والى أنه وسيلة من وسائل الإثبات والتوكيد. وفي التعامل بين بني البشر، إذا أراد الواحد أن يؤكد كلاماً، ويجد أن السامع الذي يلقى إليه الكلام قد داخله الشك، وبدا عليه عدم الاقتناع بما يسمع، فإنه يلجأ الى القَسَم.

أما بماذا يقسم الإنسان؟ فإنه يقسم بالمقدسات التي يؤمن بها، من بيت لله، أو من مسجد أو نبي، أو إمام، أو إنسان عزيز على قلبه، أو محترم عنده كالأم والأب، والأولاد... ومن قدسية هؤلاء ومقدار ما يكن لهم المقسم من المحبة والتقدير والاحترام يستمد القسم أهميته، إذ أن القسم على أمر مكذوب يعرّض الإنسان المقسم ومن (أوما) أقسم به لخطر العقوبة وللأذى يصيبه في نفسه أو في من أحبّ. وصار القسم وسيلة إثبات شرعية وقانونية يؤخذ بها في بعض الحالات، ودليلاً على صدق القسم ولو ظاهرياً وصحة ما يقسم عليه.

أما إذا كان الله تعالى هو المقسم، فإن القسم يكون وسيلة توكيد وتثبيت للفكرة المطروحة حتى يقتنع السامع بالفكرة. والإنسان بطبعه صاحب شك، وميّال لعدم تصديق ما يسمع، ومتردد في قناعاته، ومتكبّر، ومدّع للفهم والعلم والمعرفة... ويأتي القسم ليفتح في هذا الجدار من الشك والادعاء والتكبّر والجبروت... كوّة تنفذ منها الحقيقة لتثبت في النفس، وتقرّب الناس الى الصواب.

وما يقسم به الله تعالى يركزّ دائماً على الأمور العظيمة والفريدة، والعجيبة في الخلق، وذات القيمة الكبيرة في ذاتها، أو في الدور الذي لعبته في الحياة أو في ما تخفيه من الأسرار، وما تنطوي عليه من القيمة... وما أراده

لها الله أو استخدمها فيه لإحقاق الحق، وإثبات إرادته... ثم ما حدث في الزمان أو المكان من المعجزات بإذن الله والأمور الخارقة للطبيعة... والتي لو عرفها الإنسان، أو تأمل فيها، لوجد فيها الكثير من العِبَر المقنعة والقاطعة للجدل في الأمر المطروح والمراد إثباته بالقَسَم.

وقد أشرنا الى هذه الأمور في شرحنا لدعاء السِّمات الذي امتلأ بذكر كثير من الأحداث والمواقع والمعجزات، والأيام...

- وهنا تبدأ السورة الشريفة بالقسم. والله تعالى يقسم بعدة أمور، يأتي في أولها: القَسَم بالطور.

وأداة القسم هنا (الواو) والطور. وتسمى هذه الواو (واو القسم). وهي في اللغة حرف جر، تجرّ الاسم الذي يأتي بعدها. كما يمكن أن يكون القَسَم باستعمال الفعل، فعل القسم، كأن يقول المقسم: أقسم بـ... كذا. كقوله: أقسم بالله العظيم، مثلاً.

أما الطور، فهو هنا جبل الطور في صحراء سيناء. وهو من الأمكنة المقدسة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم عدة مرات: في سورة البقرة الآيتان: ٦٣ و ٩٣. وفي سورة النساء الآية ١٥٤. وفي سورة مريم الآية ٥٢. وفي سورة طه الآية ٨٠. وفي سورة المؤمنون الآية ٢٠ وفي سورة القصص الآية ٢٩ والآية ٤٦. هذا بالإضافة الى سورة الطور.

والطور هو المكان الذي تجلّى فيه الله تعالى لموسى عليه السلام. وفي سورة الأعراف يتحدّث عن هذا التجلّي فيقول: "فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقا. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين"، الآية ١٤٣. كما أن تلك المنطقة (الطور) كانت قد حصلت فيها أحداث مقدسة كثيرة، لا نرى مجالاً هنا لذكرها.

- أما الأمر الثاني الذي يقسم به الله تعالى فهو "كتاب مسطور. في رق منشور". ويقول المفسّرون أن المراد بالكتاب هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله تعالى فيه ما كان وما يكون... وقيل إنه القرآن الكريم، كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ...

- والبيت المعمور هو: إما الكعبة المكرمة، وهي " أول بيت وضع للناس" بناه آدم عليه السلام، ثم جدّد بناءه نبي الله ابراهيم وابنه اسماعيل... وهو بيت مطهّر "للطائفين والعاكفين والركّع السجود". وهو البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا" البقرة ١٢٥. فهم يرجعون إليه ويلتجئون إليه ويحتمون به في كل شأن من شؤونهم...

وفي بعض التفاسير أن البيت المعمور هو بيت في السماء الرابعة، تعمره الملائكة للعبادة، وهو بحيال الكعبة، أي أن موقع الكعبة على الأرض يوازي موقع البيت المعمور في السماء. وروي عن الإمام علي عليه السلام قوله: ويدخله كل يوم سبعون ألف من الملائكة ثم لا يعودون إليه أبداً.

ومهما يكن من أمر، فإن كلاً من الكعبة الشريفة والبيت المعمور مقدّس عند الله، ولو كان أحدهما للناس (الكعبة) والثاني للملائكة (البيت المعمور).

- أما السقف المرفوع: فهو السماء، هذه السماء التي رفعها الله. ولو تفكّر الإنسان في شأنها فهي:

١ـ كما قال الله تعالى: "الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها" الرعد/٢. و: "خلق السموات بغير عمد ترونها..." لقمان/١٠.

وهذه السماء من عظيم خلق الله: "وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون" ٢٢/ الأنبياء. ومحفوظاً تعني حافظة للكون من أي خلل يمكن أن يقع، مما جعل الخليقة كلها في مأمن وسلام. وهذه واحدة من آيات السماء، فلو تدركون أيها الناس بعض خفايا الخليقة!!!.

- والبحر المسجور: وهذه أيضاً من الآيات الربانية العظيمة. فما نعرفه نحن البشر هو أن الماء تطفيء النار، فكيف بالبحر يسجر وتشتعل النار على سطحه؟...

وهذا ما نشاهده في عالم الواقع، وبخاصة في البحار التي تكون قريبة من البراكين، وتتدفق حمم البراكين والمواد السائلة الملتهبة من البركان، وتغطي سطح الماء، فإذا البحر مسجور، وكأنما تخرج منه النار.

والواقع أن في ذلك سراً من أسرار الخليقة لو يبحث الناس عنها، ويتأملون فيها. ومنها أن الماء يتحول الى مادتيه الأساسيتين بالنار، وهما الهيدروجين والأوكسجين. والهيدروجين قابل للاشتعال، والأوكسجين يساعد على ذلك... والأعظم من هذا كله، أن "البحر المسجور"، أي بحر هو من آيات الله، وقد يكون وسيلة من وسائل العقاب للمجرمين... أفلا يستحق ذلك من الإنسان بعض الوقت يتأمل فيه فيعتبر، ويتعظ؟!!

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ(٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ
مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ
(١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢)

٩- تمور: تضطرب وتدور.

١٢- خَوْض: المكان الذي فيه ماء، يأتيه الناس ويعبرون فيه مشاة وركباناً...

- وبعد ذلك القسم الغليظ، أو المغلّظ، أي المؤكد والعريض، والكبير الذي فيه يقسم الله تعالى بأشياء كثيرة من المقدسات السماوية والأرضية، ومن أسرار الكون والوجود التي جعلها تعالى نواميس للكون، وأمر الناس والعلماء بصورة خاصة بمتابعتها، واستقصاء أخبارها، ودراستها... لعلّهم يعرفون أسرارها، فيؤمنون... بعد كل ذلك القسم يأتي المُقْسَم عليه، فإذا هو إنذار للناس أجمعين: "إن عذاب ربك لواقع".

وهذا الأمر يطرح قضية هامّة وهي أن بعض الناس يجادلون في موضوع العقاب الذي توعّد الله تعالى به الكافرين والمنافقين والمكذّبين والمجرمين... ويعتبرون أن كل ما ورد من الحديث عن العقاب الإلهي، ووصف مشاهد النار، وعذاب المجرمين ما هو إلا على سبيل التخويف والتهويل، فإذا جاء يوم القيامة فإن الله الرحمن الرحيم لا بد أن يعفو عن المجرمين بمقتضى قانون الرحمة للعباد.

وهنا يدحض الله تعالى حجج الطامعين بالعفو والمغفرة، ويرتكبون الآثام والذنوب، من الكبائر بخاصّة، وينتظرون أن يسامحهم الله يوم القيامة، ولو لم يتوبوا... ويردّ الله تعالى إدعاءات هؤلاء المدعين بعدة أمور:

الأول : بالأيمان الغليظة المعظّمة في بداية السورة الكريمة.

والثاني : بتأكيد وقوع العذاب: إن عذاب ربك لواقع. (إن، واللام).

والثالث : بالتأكيد أن قول الله تعالى هو الثابت الذي لا يمكن ردّه، ولا دفعه، ولا مناقضته، ولا إلغاؤه، ولا تأجيله (ما له من دافع).

والرابع : بوصف بعض أهوال يوم القيامة: يوم تمور السماء موراً. وتسير الجبال سيراً.

والخامس : بالوعيد: فويل يومئذٍ للمكذبين.

والسادس : وصف ما عليه هؤلاء المكذبون من الذين يخوضون في موضوعات كثيرة، لا يعرفون حقيقتها، ولا يفهمون إرادة الله فيها، ولا يقدّرون أخطارها، ولا الغاية منها... ومثلهم في ذلك مثل الأطفال الذين يخوضون في الماء لاهين لاعبين، ولا يعرفون أن هذا اللعب قد يكون فيه حتفهم وهلاكهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

١٣- يُدَّعون: يُدْفعون بعنف وجفوة.

- ثم يأتي الحديث في هذه الفقرة عمّا يصيب المكذّبين يوم القيامة. ويتركز الحديث هنا على النار التي يُرمى فيها أولئك المكذّبون. فيقول فيها: "يوم يُدَعّون الى نار جهنّم دعًّا". والذي يتأمّل في تركيب هذه الجملة يلاحظ ما تحمله من الجفوة، والغلظة والعنف الذي لا هوادة فيه ولا مجال للرحمة ولا للشفقة. ويتمثل ذلك في لفظة "يُدَعّون" في ضخامة الدال، ومضاعفة العين (التشديد)، وما ينتج عنها من صوت ضخم تختلط فيه ضمة تطبق الفم، وحنجرة تنفتح على مداها، وتنفث مثل عاصفة تنطلق من الصدر، وتحرق كل ما تمرّ عليه من اللين والرقة، لتأتي النون بعدها فترمي بثقل تلك الصاعقة وعصفها على الكافرين الذين يخاطبهم الله تعالى... وينغلق باب الرجاء على المكذّبين بالتوكيد ما بين يُدَعّون و دعّاً. ودعّا هذه مفعول مطلق، وغايته توكيد الفعل: يُدَعّون، ويوحي بالصفة: دعّاً عظيما...

وتتخيل عنف الموقف، والحزم فيه، والإصرار على العقاب، والقناعة بأن هؤلاء المكذّبين يستحقونه، وأن لا هوادة فيه، ولا مكان للتراجع عنه.

- وقد يستغرب المكذّبون هذا الموقف الذي لا ينسجم مع ما وعدوا به أنفسهم وعداً كاذباً من المسامحة والرحمة التي لا يستحقونها... وقد يتساءلون عن سبب العقاب. حتى لو أنهم لا يتساءلون يأتيهم التفسير: "هذه النار التي كنتم بها تكذبون".

ويبدو أن هؤلاء الكافرين ما زالوا يؤملون بالعفو، فهم كمن يشاهد مشهداً من مشاهد السحر فلا يخاف، لأنه في قرارة نفسه يعرف أنه سحر وليس واقعاً صحيحاً. أو كأن بهم عمى، أو كأن أبصارهم لا ترى الأمور على حقيقتها... ويريد (الصوت) أن ينبههم بقوله: هذا ليس سحراً. وبقوله: لعلكم لا ترون هذه النار العظيمة التي تنتظركم لضعف في أبصاركم.

ويتجاوز محدّثهم ما هم فيه، ويعلن لهم أنه سواء أكان موقفكم هذا محاولة احتمال لهذه النار، أو محاولة تصبّر على تحمّل أحوالها... أو كان ذهولاً أمام جبروت هذه النار وعنفها، وقساوتها... فأنتم سوف تدخلون فيها حتماً. ومع هذه الحتمية في المصير فإنه لا يعنينا ـ يقول محدّثهم ـ ما ستكون عليه حالكم من الصبر أو عدمه. لأن دخولكم هذه النار كان جزاءً لكم على أعمالكم (إنما تجزون ما كانتم تعملون). ويكون العقاب موازياً للذنب. ويكون العقاب حقاً عليكم، لأن كل إنسان يتحمل نتيجة أعماله. فعقابه عدل، وليس للإنسان أن يعترض على هذا العقاب، ولا أن يطالب بتبديله...

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ
رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
(١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ
مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ
بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا
وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ
(٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا
قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ
(٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)

١٨ـ فاكهين: متنعمين، مسرورين ومتعجبين.

٢٠ـ مصفوفة: متصلة بعضها ببعض.

٢١ـ ما ألتناهم: ما أنقصناهم (وصلهم ثواب أعمالهم تاماً غير منقوص).
ـ رهين: مُرْتَهَنٌ ومقيّد، يأتي جزاؤه بحسب أعماله...
٢٢ـ يتنازعون: يأخذ كل منهم ما يشاء من ذلك الشراب.
ـ لا لَغْوٌ فيها: لا تذهب بعقولهم. صافية من كل محرّم.
ـ لا تأثيم: إذا شربوها لا يرتكبون الفواحش...

٢٦ـ مشفقين: خائفين.
٢٧ـ السَّموم: نار جهنم...
٢٨ـ البَرّ: اللطيف. إذا وعد وفى بوعده.

- وبعد الحديث عن المكذبين، والطريقة التي يعاملون بها في نار جهنم، وما فيها من العنف الذي يستحقونه نتيجة لمواقفهم من النبي (ص)، وعدم التصديق بما جاء به، يأتي الحديث عن المؤمنين بما جاء به الرسول، والمصدّقين برسالته، ويسميهم: المتقين. هؤلاء المتقون في جنات ونعيم. فهي ليست جنة واحدة بل هي جنات. ويمكن أن يكون المقصود بهذا الجمع أن لكل واحد منهم جنة، فهي جنات. أو: أن لكل واحد منهم جنات يتنقل بينها، بحيث أنه دائماً أمام أشياء جديدة، فلا هو يملّ، ولا جناته تنتهي. ومثل هذا ما ورد من قوله تعالى في سورة ق الآية: ٣٥ "لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد."

ومع هذه الجنات نعيم مقيم دائماً ثابت لا يزول... ويتمثل في غضارة العيش، وحسن الحال، ونعيم البال والراحة والهدوء، والاستمتاع بكل ما يخطر ببال الإنسان. أما حالهم فيتمثل بالسرور بما هم فيه، والتنعّم بكل هذه النعم، وشعور بالرضى عن النفس، واستعظام نعمة الله تعالى وإدراكهم بأن نعمة الله تعالى التي أصابتهم ما كانت تخطر ببالهم في عظمتها، وتنوّعها، وتجدّدها، واستمرارها...

والأعظم من هذا كله ذلك الشعور بالأمان والطمأنينة بعد أن وقاهم ربّهم عذاب النار. فلا خوف يؤرقهم ويشغل بالهم من أن يصيبهم الله ببعض ذنوبهم...

- ويأتي الصوت، ويناديهم زيادة في التطمين، والتمكين والبشرى يقول لهم: "كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون". إذن فإن جزاء الإيمان هو أمن، وأمان، وطمأنينة، وسعادة دائمة... كما أنها تتمثل أيضاً في شيء آخر: في الطعام والشراب. وهما قوام حياة الإنسان في الدنيا. وأصعب تهديد يلقاه الإنسان في هذه الحياة هو تهديده في أن يقل أو ينقطع طعامه أو شرابه... أما في الحياة الآخرة، فلا تهديد، ولا انقطاع، ولا شُحَّ ولا نقص، كما ورد في سورة الواقعة الآية ٢٣: "وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة."

وهذا الأكل والشرب سائغ شرابه، ولا يغصّ به آكله، فقد جعله الله تعالى "هنيئاً"، يشعر الإنسان معه بسعادة غامرة لا ينغّصها عليه شيء.

وهذا الطعام والشراب الهنيء هو جزاء الأعمال الحسنة التي عملها المتقون في حياتهم الدنيا (بما كنتم تعملون)، فهي حق لهم وثواب من الله تعالى على حسن أعمالهم "والله عنده حسن الثواب" آل عمران ١٩٥.

وفي وصف بعض أحوال المتقين:

١ـ متكئين على سرر مصفوفة: وهذا مظهر من مظاهر النعمة والتكريم. كما أنه مظهر من مظاهر المساواة بين المؤمنين في الدرجة الواحدة من درجات الجنة.
وهذه السُّرُرُ مزوّدة بكل ما يحتاجون إليه من وسائل الراحة من الوسائد وخلافها... بحيث تؤمن لهم أعلى مستوى من النعيم والراحة.
٢ـ وزوجناهم بحور عين: وفي أساس الخليقة أن الحياة تبدأ بالتوافق بين طرفي هذه الحياة اللذين هما الزوجان. وابتعاد الزوج عن زوجه، والقرين عن قرينه يشكل نقصاً في هذه الحياة التي لا تتم إلا بالتقاء هذين الطرفين.

وهذا الالتقاء في الحياة الآخرة على وجوه، على نحو ما ذكر في الآيتين ٢٠ و ٢١ من السورة الكريمة (الطور).

من هذه الوجوه: تزويج المتقين بالحور العين.

وقد ورد الحديث في القرآن الكريم عن الحور العين في أربعة مواضع:

١ـ في سورة الدخان الآية ٥٤: كذلك وزوجناهم بحور عين.

٢ـ وفي سورة الطور الآية ٢٠: متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين.

٣ـ وفي سورة الرحمن الآية ٧٢: حور مقصورات في الخيام.

٤ـ وفي سورة الواقعة الآية ٢٢: وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون.

وقد انشغل المفسّرون بالحديث عن الحور العين، وما وصفهن به القرآن الكريم، وما ورد في الروايات بشأنهن.

ففي تفسير روح المعاني للألوسي في شرح ما ورد في سورة الرحمن من وصفهن: بـ (قاصرات الطرف) يقول: أي نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن الى غيرهم. أو يقصرن طرف الناظر اليهن عن التجاوز الى غيرهن. (وهذا المعنى مروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن رسول الله (ص). وفي بعض الآثار: تقول الو احدة منهن لزوجها: وعزّة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك. فالحمد لله الذي جعلني زوجك، وجعلك زوجي...

وعن قوله تعالى: "كأنهن الياقوت والمرجان" (معناها): في صفاء الياقوت، وبياض اللؤلؤ وحمرة المرجان. أما التشبيه بالياقوت ففي حمرة الوجه. وبالمرجان في بياض البشرة وصفائها. وقال بعضهم يروي عن النبي (ص): ينظر الى وجهها في خدرها أصفى من المرآة. وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب...

وعن قوله: حور مقصورات في الخيام: الحوراء هي الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها (العين). والحَوَر: أن يشتد بياض العين، ويشتد سواد سوادها، وتستدير حدقتها، وترق جفونها، ويبيضّ ما حواليها... أو شدّة بياضها وسوادها في بياض الجسد، أو سواد العين كلها مثل الظباء.

وفي حديث أم سلمة: مقصورات في الخيام أي مخدّرات، (ملازمات لبيوتهن لا تطوف في الطرق).

ومقصورات قلوبهن وأبصارهن ونفوسهن على أزواجهن.

والخيام هنا بيوت من لؤلؤ. والخيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة أربعة فراسخ، لها أربعة آلاف مصراع (باب) من ذهب. وعن أبي الدرداء: الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون باباً من در. وعن النبي (ص) أنه قال: الخيمة درة مجوّفة طولها في السماء ستون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون...

وقد جاء في حديث أم سلمة: "قلت: يا رسول الله: أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يا رسول الله: وبِمَ ذلك؟ قال: بصلاتهنّ وصيامهنّ وعبادتهنّ. ألبس الله وجوههنّ النور، وأجسادهن الحرير، بيض الوجوه، خضر الثياب، صفر الحلى، مجاهرهنّ الدرّ، وأمشاطهنّ الذهب. يقلن: ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً. ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً. طوبى لمن كُنّا له وكان لنا".

وقد توسع بعض المفسّرين في بحث طبيعة الحور العين، فرأى بعضهم أن الحور العين هي أعمال الإنسان الحسنة، يخلقها الله تعالى بصورة الإنسان، وهن غير نساء الحياة الدنيا...

- ولا يتأخر القرآن الكريم ـ في الآية ٢١ من السورة الشريفة (الطور) في حلّ ما يمكن أن تمتلئ به عقول الناس عن مصير نساء أهل الدنيا وعن علاقتهن بأزواجهن في الحياة الآخرة، فيأتي حل هذه المسألة ضمن حلّ علاقة أفراد العائلة الواحدة من الأب والأم والأولاد بعضهم ببعض في الحياة الآخرة. فتقول الآية ٢١: "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء...".

فأساس الحل في هذه القضية هو الإيمان. فالمؤمنون يمكن اجتماعهم في الحياة الآخرة، ولا يمكن اجتماع مؤمن وكافر على صعيد واحد، إذ أن لكل منهما شأناً خاصاً، ومكاناً خاصاً، ومعاملة خاصة...

فالولد المؤمن (واتبعتهم ذريتهم بإيمان) يلحقه الله تعالى بأبيه المؤمن (ألحقنا بهم ذريتهم).

وفي تعليل ذلك (وما ألتناهم من عملهم من شيء) فيكون الجمع بين أفراد العائلة الواحدة المؤمنة وفاء للالتزام الإلهي بجمع المؤمنين، لما في هذا الجمع من السعادة، وقرَّة العين. وهذا كله مكافأة الإيمان، والعمل بتقوى الله تعالى.

وتأتي تتمة الآية الشريفة لتشكل قاعدة في محاسبة الناس يوم القيامة، حين تجعل مصير الإنسان مرهوناً بمأعماله، كما يجري ترتيب أوضاعه النهائية بوحي مما استحقه نتيجة لتلك الأعمال التي قام بها في حياته.

وهذه الحالة من الجمع بين المؤمن وذريته التي اتبعته بإيمان تشبه حالة الجمع بين الفرد المؤمن وزوجته المؤمنة في الجنة، وذلك على ما ورد في القرآن الكريم:

أ ـ في سورة الرعد الآية ٢٣: "جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريتهم..."
ب ـ وفي سورة يس، الآية ٥٦: "هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون".
ج ـ وفي سورة غافر، الآية ٨: "ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم."

ومن هذا يتصوّر لنا أن الحياة الآخرة هي نوع من الاستمراريّة للحياة الدنيا، إذ يجمع الله بين المؤمنين يوم القيامة، كما يجمع بين الكافرين أيضاً ممن كانت تجمعهم في الحياة الدنيا علاقات خاصة. ومثل ذلك ما ورد في سورة الصافات الآيتان ٢٢ و ٢٣: "احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم".

- وتتابع الآيات الكريمة تصوير حال المتقين في جنات النعيم، فتذكر بحياتهم (اليومية) العادية من طعام وشراب على النحو الآتي:

ـ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون.

فيأتيهم طعامهم وقتاً بعد وقت، وحيناً بعد حين من دون انقطاع. وهذا الطعام منوّع ما بين اللحوم والفاكهة، ويكون بحسب ما يشتهون.

ـ يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم.

ولفظة الكأس هنا مستعلمة استعمالاً مجازياً، والمراد بها ما في الكأس من الشراب. (ويتنازعونه) تعني أن هذا الشراب غير محدود، يأخذ منه كل منهم ما يشاء. وهو شراب طاهر، نظيف، نقي، لا يذهب بالعقول، ولا يصيب الناس بسببه خمول ولا ذهول، ولا ضياع ولا فقدان العقل، ومن هنا فإن هذه الكأس ليست كالخمرة التي يتعاطاها الناس في الحياة الدنيا بحيث أنه:

ـ لا لَغْو فيها. واللغو هو الكلام السخيف والهذيان الذي لا يحصل منه فائدة ولا نفع، وكلام لا يراد معناه.

ـ ولا تأثيم: والتأثيم ارتكاب الإثم وهو الذي يستحق مرتكبه العقاب عليه. فهم لا يرتكبون الآثام بسبب هذا الشراب، كما في الخمرة التي هي أم المعاصي.

ـ وتمتد حالة النعيم التي هم فيها لتشمل الخدمة أيضاً، إذ لا يكلّف المؤمن في الجنة خدمة نفسه، بل إن الله تعالى قد سخر لهم من الخدم من يحقق لهم جميع مطالبهم، ويؤمن لهم جميع حاجاتهم. وهؤلاء الغلمان كأنهم لؤلؤ مكنون، في جمال الخلقة، وبياض اللون، وصفات الكمال التي تميّز الشيء الغالي الثمين النادر الوجود، والتي بها يسعد صاحبه، ويأنس به.

- ثم تنتقل الآيات ٢٦ و ٢٧ و٢٨ من السورة الكريمة (الطور) الى تصوير ما كان ينتاب هؤلاء المتقين من الهواجس والخوف في الحياة الدنيا، يبوح به بعضهم لبعض بما كان يخشاه، ويستنطق كل منهم صاحبه عن السبب الذي أوصله الى النعيم:

ـ قالوا: إنا كنا في أهلنا مشفقين.

وهذه تصف مسلك الإنسان المؤمن في أهله ـ يعني في عائلته وأهله. والإشفاق هنا إشفاق على النفس وعلى الآخرين. ومعناه الحرص على أن يسير الجميع في دروب الصلاح والتقوى، والخوف من الانحراف الذي قد يرمي بهم في نار جهنم بما يسبب لهم من غضب الله عليهم ونقمته أيضاً. ويتمثل هذا الإشفاق في السهر على راحة الأهل وتأمين جميع حاجاتهم ومستلزماتهم... ثم تزويدهم بالنصح والإرشاد، والسهر على أن يبقى سلوكهم حسناً، والتزامهم الديني ثابتاً حتى يرضى الله تعالى عنهم.

ونتيجة لهذا المسلك رضي الله تعالى عنهم، ومنّ عليهم، فوقاهم عذاب النار.

وهذه النتيجة برضى الله تعالى عنهم كانت استجابة من الله تعالى لدعائهم، إذ أنهم لم يكتفوا بالقيام بما عليهم من الواجبات، وإنما القيام بها مع إدراكهم لأهمية الدعاء والتضرّع الى الله تعالى بأن يسدّد خطاهم، ويثبتهم على الدين والحقيقة، ويبعد عنهم وساوس الشيطان.

واستجاب الله لدعائهم بحكم أنه هو **البرّ الرحيم**. إذا وعد وفى بوعده. وهو لطيف بعباده، وهو يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وهو القائل: "ادعوني استجب لكم". وهو القائل: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني. وهو الرحمن الرحيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ
(٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ
مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ
الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ
(٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ
سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ
لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ
مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ
كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

٢٩ـ نتربص به: ننتظر الوقت المناسب.
ـ ريب المنون: الموت وحوادث الدهر.

٣٢ـ أحلامهم: عقولهم.
٣٣ـ تقوّله: جاء به من عنده، (هو من قوله وليس وحياً من السماء).

٣٦ـ لا يوقنون: لا يصدّقون.

٣٨ـ بسلطان: بحجّة أو برهان.

٤٠ـ مَغْرَم: حمل ثقيل.
ـ مثقلون: لا يستطيعون حمله.
٤١ـ يكتبون: يحكمون.

٤٢ـ كيداً: مكراً (أن يمكروا بكم ـ يخدعوكم)
ـ المكيدون: الذين ينقلب عليهم كيدهم.

٤٣ـ سبحان الله: أقدسه وأمجده.

في هذا المقطع من السورة الكريمة (الطور)، وبعد أن أكّد الله تعالى للنبي بأن ما وعد به المكذبين من العذاب واقع بهم لا محالة، ثم بعد أن وصف حال المكذبين في النار، ووصف حال المؤمنين المصدّقين بالجنة، إذا به يعود الى مخاطبة النبي (ص) ويدعوه الى متابعة التبليغ، ونشر الدعوة الإسلامية، وتثبيت الرسالة، ويتحدّاهم بكثير من الأمور، مثبتاً كذبهم، ونفاقهم، وكِبْرَهم، وضعفهم، وجهلهم، وعجزهم وأوهامهم...

ويبدأ ذلك بقوله تعالى:

ـ الآية ٢٩: "فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون".

ونفهم من قوله تعالى: فذكر، أي استمرّ بالتذكير. أي بنشر الدعوة دون خوف، ولا وجل، ولا استماع الى ما يقولون، ولا مبالاة بما يوجهونه إليك من التهم، ولا ما يتخذون منك من المواقف...

وبعد الطلب من النبي (ص) أن يستمر في نشر الدعوة يدافع الله تعالى عنه ويشهد له: فما أنت بكاهن ولا مجنون. وهاتان التهمتان مما كان الكفار يرمون بهما النبي. والآية تدحض هاتين التهمتين، وتنفي عن الرسول (ص) تهمة الكهانة، أو أن يكون كالكهان في ما عرف عنهم من اختلاق الروايات، ووصف الكلام وتنميقه، وادعاء المعرفة، والكذب والخديعة ليصدّقهم الناس. وردّ هذه التهمة من باب تطهير النبي (ص) من هذه الصفات القبيحة، وتثبيت أن كل ما يقوله هو من عند الله. "وما ينطق عن الهوى" سورة النجم الآية ٣.

وكذلك فالآية تدفع عن النبي (ص) تهمة الجنون. وقد رماه بها الكافرون والمشركون ليقولوا إن ما جاء به كلام غير معقول، والعقيدة التي ينشرها أيضاً لا تناسب ما نشأوا عليه من عقيدة الكفر والإلحاد...

وردّ هاتين التهمتين عن النبي يدخل ضمن النعمة التي أنعم الله تعالى بها عليه. وهذه نعمة عظيمة دائمة، ثابتة لا حدود بها... ونعمة الله تعالى إذا أحاطت بإنسان جعلته طاهراً مطهراً، صادق القول، حسن التفكير، عاقلاً، مدركاً...

الآيتان ٣٠ و ٣١: "أم يقولون: شاعر نتربص به ريب المنون. قل تربصوا فإني معكم من المتربصين".

في الآية ٣٠ حديث عن موقف الكفار والمشركين من النبي، بعد ما عجزوا عن الوقوف في وجهه ومنعه من نشر رسالة السماء. وهذا الموقف يتمثل بالصبر على النبي منتظرين أحد أمرين: إما الموت، أو كارثة تحل به... وينتهي دوره وتعود الأمور في مطلع الشرح...الى ما كانت عليه قبله. وهذا ما يؤملونه. وقد أشرنا الى أسباب نزول هذه الآية.

ويأتي الرد على هذه المقولة في الآية ٣١: "قل تربصوا فإني معكم من المتربصين". والمراد بذلك أن يعلن النبي (ص) هو الآخر موقفه منهم. فهو يتربص مثلهم، لا أن يحصل ما يتمنون له، بل أن يحصل لهم ما يسوؤهم ـ بإذن الله ـ من الموت أو الهلاك، أو الكوارث الناتجة عن غضب الله تعالى عليهم...

ـ الآية ٣٢: "أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون".

وهذه الآية الكريمة هي أيضاً تستعرض الاحتمالات التي يمكن أن تكون وراء رفض الدعوة النبوية، واتهامه بأنه كاهن أو مجنون. والاحتمال هنا أن يكون هؤلاء الكافرون قد توصلوا الى هذه النتيجة بعد إعمال الفكر والجد في تفسير ذلك...

ولا يطول الانتظار حتى نعرف الموقف الإلهي من هؤلاء: أم هم قوم طاغون؟ وفي هذا الرد احتمالان: وجاء الاحتمال الثاني ليدحض الاحتمال الأول، ويثبت الاحتمال الثاني: أم (هم قوم طاغون).

- ومن جملة اتهامات الكفار للنبي (ص) ما ورد في الآية ٣١:

"أم تقوّله" "بل لا يؤمنون".

وهنا تعرض الآية احتمالين أيضاً: الأول: أم تقوّله. ومفادها اتهامهم للنبي (ص) بأنه جاء بالقرآن من عنده. وتقوّله تعني أنّه ألّفه واخترعه ونسقه... على هواه.

والاحتمال الثاني: بل لا يؤمنون. وهذا اتهام للكفار بعدم الإيمان، وصيغة الآية الكريمة بعض احتمالين بينهما (بل)، و (بل) هذه تنفي الاحتمال الأول، وتثبت الاحتمال الثاني.

- ثم تنتقل الآية ٣٣ من الرد عليهم واتهامهم بعدم الإيمان، الى التحدّي والإحراج. والآية هي: "فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين". والتحدّي هو: أنه إذا كان بإمكان النبي (ص)، وهو إنسان، أن يتقوّل هذا الحديث، فإن ذلك يعني أنه يمكن لإنسان آخر أن يتقوّل مثله.

والتحدي: "فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين". وهو هنا يتهمهم مرة ثانية بالكذب في ما قالوه.

ومثل هذا التحدي للكافرين في أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة... في الآيات ٢٣ من سورة البقرة. والآية ٣٨ من سورة يونس، والآية ١٣ من سورة هود.

ثم ينهي هذا التحدي بتأكيد عجز الإنسان والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" سورة الإسراء الآية ٨٨.

- وفي الآية الكريمة ٣٥ "أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون".

وتعرض هذه الآية الى موضوع جديد في خلق الناس: فالناس جميعهم خلق لله، من طينة واحدة، وهم جميعاً من صنف واحد... وعلى هذا كانت الشريعة الإلهية تسري عليهم جميعاً، وفرضت عليهم التكاليف الربانية دون استثناء...
والاحتمال المطروح في هذه الآية الكريمة أن يكون هؤلاء الكافرون قد ظنوا أنفسهم "خلقوا من غير شيء" أي من طينة مختلفة، وبصفات غير صفات البشر، ومن طبيعة أرقى... أو ما اشبه بذلك، مما يجعلهم مختلفين، وغير خاضعين لما يخضع له غيرهم، وأن التكاليف الشرعية لا تسري عليهم...

وهناك احتمال آخر في هذه الآية الكريمة، وهو أن يكون هؤلاء الكافرون يظنون في أعماقهم أنهم هم الخالقون. والخالق هو الذي يشرّع لمخلوقاته وينظم شؤونهم. ولا سلطان لمخلوقاته عليه...

وهنا نذكر ـ مرة أخرى ـ أمرين:
الأول: أن ذكر احتمالين في الآية الواحدة يأتي الثاني منهم أقوى من الأول وأوضح لعقيدة الكفر عند هؤلاء الكافرين. كما تأتي الصيغة مؤكدة لهذا الاحتمال الثاني في ما يعتقدونه.

والثاني: أن ذكر هذه الحالات جميعاً ليس لمعرفة حقيقة ما كانت تنطوي عليه نفوسهم من العقائد والأفكار المستنكرة، بل تأنيباً، وتوبيخاً وتحقيراً لهم. وتبياناً لسخف عقيدتهم، وعنادهم، وعنفوانهم الكاذب، وظلالتهم...

وفي الآية ٣٦: "أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون". وتتقدم الاحتمالات صعداً في تصوير سخف هؤلاء القوم، وتصوير كبريائهم الكاذب الذي لا يقف عند حد. وذلك بقوله: "أم خلقوا السموات والأرض". ويأتي ذلك بعد قوله: "أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون". وذلك لأن "خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس" كما في سورة غافر الآية ٥٧.

والاحتمال الثاني: "بل لا يوقنون". وتعني أن هؤلاء قد أمعنوا في تكذيب الرسول (ص) بحيث صار العناد والإنكار والرفض دينهم ومذهبهم وشريعتهم التي يسيرون عليها. على نحو ما ورد في الآية ١٤٥ من سورة البقرة...
وفي الآية: "أم عندهم خزائن ربك"، وقد جاء الحديث عن هذه الخزائن في سورة (المنافقون) الآية ٧: "ولله خزائن السموات والأرض...". وهؤلاء المنافقون قد غرّهم مالهم، وظنوا أنهم مالكو خزائن السموات والأرض،

وأخذتهم العزة، وظنوا أنهم بمالهم يقدرون على كل شيء، وينفقون كما يشاؤون. وهم، ـ كما وصفتهم الآية الكريمة ٣٨ من سورة النساء: "الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر." وكما وصفتهم الآية الكريمة ٣٦ من سورة الأنفال: "إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون". وهذا الاحتمال مستحيل تحققه، لأن مثل هذا الملك لا يكون إلا لله، إنما هو الغباء جعلهم لا يفقهون.

والاحتمال الثاني: أن يكون قد بلغ بهم الغباء أيضاً الى الاعتقاد بأنهم "هم المسيطرون"، يسيطرون على كل شيء. ويعود إليهم الأمر والنهي، وتدبير أمور هذا الكون، أو على الأقل هذا المجتمع، وهم ليس لهم من الأمر شيء، ولا يقدرون على التحكم في أرزاق الناس فيعطون هذا، ويمنعون ذاك.

والسخرية من هؤلاء الكافرين ظاهرة في هذه الآية الكريمة، ويكفي بأنها تنفي أن تكون لهم هذه السيطرة، ولكن دون تعليق بأي شيء.

- وفي الآية ٣٨: "أم لهم سُلَّم يستمعون فيه". وهذا الاحتمال منفيّ أيضاً من الصيغة التي وردت في هذا المقطع كله من السورة الكريمة. ولسبب آخر، وهو أن هذا الاستماع كان من صفات الجنّ الذين يسترقون السمع. وفي الجن صفات خاصّة ليست للإنسان. ثم إن الله تعالى قد تحدّث عن هذا الأمر في سورة الجن في الآيتين ٨ و ٩ "وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشُهباً. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رَصَداً."

وتصوّر الكافرين أن لهم: "سُلَّم يستمعون فيه..." يجعلهم يعتقدون أنهم يعلمون الغيب، ويستمعون الى ما يجري في السماء وما يدور فيها من أحاديث... وهي عقيدة كاذبة توقعهم في الوهم، وتجعلهم يثقون بأنفسهم ثقة في غير محلّها. ومن هنا كانت الحجّة لله تعالى عليهم: "فليأت مستمعهم بسلطان مبين". ومطالبتهم بتقديم الدليل والبرهان دليل على كذب ادعائهم...

- وفي الآية ٣٩: "أم له البنات ولكم البنون".

وفي هذه الآية تحوّل في الحديث الذي كان رداً من الله تعالى يعلّمه لرسوله، فيقول، بعد عرض حجتهم وموقفهم وظنونهم: (قل...) مثل: قل تربصوا... في الآية ٣١.

وفي هذه الآية تصوّر الكفّار بأنهم أعظم قوة وشأناً من الله تعالى. وهذه القوة تتأتى عن طريق العصبية المتمثلة في الذكور، والتي تجعل الرجل الذي يلد الذكور عزيزاً في قومه، قوياً وذا سلطان، في حين أن من يلد

الإناث لا يشعر بمثل هذه القوة والعزة... وشعورهم بأن الذكور من الأولاد لهم، والإناث لله، هو وراء هذا العنفوان الكاذب. وهو كاذب لأن الفكرة والعقيدة في ذلك خاطئة، "فالخلق كلهم عيال الله"، والله تعالى لا يحتاج الى أحد من عباده، ثم إن "لله العزة ولرسوله وللمؤمنين". سورة (المنافقون) الآية ٨. وأن "العزة لله جميعاً" النساء ١٣٩.

وقد عرض القرآن الكريم الى هذه الفكرة في سورة الصافات في الآيات ١٤٩ ـ ١٥٥.

- وفي الآية ٤٠: "أم تسالهم أجراً فهم من مغرم مثقلون". وتستمر الآيات في ذكر الأسباب التي تمنع هؤلاء الكفار من الإيمان بالنبي (ص) وما جاء به من رسالة.

وفي ذهن الناس أنّ كل من قام بعمل مفيد للآخرين يستحق عليه أجراً. وهذا الإنسان قد يطلب أجراً على عمله. ويحاول البخيل أن يبخسه أجره فيدفعه منقوصاً، أو يحاول أن يتهرّب من دفع هذا الأجر نتيجة حبّه للمال، على عكس الإنسان المؤمن الذي من صفاته الكرم وإنفاق المال في سبيل الخير، وتأدية الحقوق الى أصحابها. ويشعر الكافر البخيل "بالخسارة" إذا هو دفع من ماله شيئاً حتى الى من يستحقه.

وفي الآية الكريمة: "أم تسألهم أجراً"، وهي تنفي عن النبي أن يكون هو الذي يسأل الناس أجراً عما يقدّمه اليهم من الخير. إذن فلا يبقى إلا الاحتمال الثاني الوارد في الآية الكريمة من أن يكون سبب صدّهم عن الرسول وعدم الإيمان بما جاء به نتيجة خوفهم من أن يطالبهم بأجر عليه.. وهم ـ لبخلهم ـ قد شعروا بثقل هذا (الغرم) الأجر قبل دفعه. وحرصهم على المال هو الذي أخافهم وأشعرهم بثقل هذه المؤونة.

وقد جاء الحديث في القرآن الكريم عن الأجر على تأدية الرسول (ص) للرسالة، والخير الذي يقدمه للناس بنقلهم من الكفر الى الإيمان في الآية ٩٠ من سورة الأنعام، والآية ٥١ من سورة هود. والشورى ٢٣ ... وما من أحد من الأنبياء قبل رسولنا الأكرم طلب أجراً على تأدية الرسالة.

- وفي الآية ٤١: "أم عندهم الغيب فهم يكتبون".

وعلم الغيب يسمح بأن يعرف العالم بالغيب الأحداث والمصائر قبل حصولها. وبالتالي فإنه قد يتخذ من المواقف، وقد يصدر من الأحكام ما يرتكز الى هذه المعرفة بالغيب التي تبرّر الحكم.

وحكم هؤلاء الكفار أن هذه الدعوة التي جاء بها رسولنا الأعظم لن يكتب لها النجاح. وبناء على هذا يتخذون موقف الكفر والعناد وعدم التصديق، ويثبتون عليه.

- وفي الآية: "أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون".

وهذا احتمال آخر قد يكون وهو الدافع لهؤلاء القوم للثبات على كفرهم، وهو أن باستطاعتهم أن يكيدوا للنبي، فيحيكون المؤامرات عليه، وينصبون له المكائد حتى يفشل في مهمته.

ويأتي الرد هنا أيضاً سريعاً، وفيه تثبيت للنبي ووعد بالحفظ فلا يصيبه شيء من مكائدهم، ولا تؤثر عليه مؤامراتهم. وما في الوجود من يستطيع أن يكيد لمن تحيط به العناية الإلهية من كل جانب. فالله خير حافظاً. وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره. الأنفال ٦٢. والبقرة ٩، والنساء ١٤٢...

- وفي الآية ٤٣: "أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون."

وفي هذه الآية احتمال أخير هو أن هؤلاء الكافرين يعتقدون بوجود إله يعبدونه غير الله. وهو الذي يلجأون إليه إذا دعت الحاجة.

- وتتمة الآية الكريمة: "سبحان الله عما يصفون". وفيها الإشارة الى بطلان هذه العقيدة، وفداحة ما وقعوا فيه من الخطأ نتيجة لهذه العقيدة، والتي جاء الرد عليها بتقديس الله وتعظيمه، وحمده، وذكره الدائم، والاعتراف له بالوحدانية، والاعتذار منه تعالى عن مثل هذه العقيدة التي يشعر المؤمن بالذنب لمجرد أن تخطر بباله مثل هذه الفكرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤)
فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي
عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)

٤٤- كِسْفاً: قطعة عظيمة.
- مركوم: جمع بعضه فوق بعض.
٤٥- يصعقون: تصيبهم الصاعقة. تقضي عليهم.
٤٧- دون ذلك: غير ذلك.
٤٨- بأعيننا: في حفظناوحراستنا.
٤٩- إدبار النجوم: مغيبها.

- وبعد أن عرض في المقطع السابق من السورة الكريمة (الطور) الى كل ما يمكن أن يخطر ببال هؤلاء الكافرين من الأوهام التي تجعلهم يثبتون على الكفر، في نوع من التحليل النفسي العميق لما يعتمل في صدورهم، وتمتلئ به عقولهم... ينتقل في المقطع الأخير الى توصيف حالتهم، ويحدد للنبي (ص) طريقة التعامل مع هؤلاء الكافرين، ويتوعّدهم (للكافرين) بالعقاب يوم القيامة...

أما في توصيف حالتهم فهم في حالة من الضياع تعطل عندهم الإدراك السليم، بحيث تختلط عليهم الأشياء، وتهتزّ الصورة، ولا يقدرون حقيقة ما يجري عليهم من الأحداث، لأنه إذا اختلطت المفاهيم واهتزت الصورة، أدى ذلك الى أحكام غير سليمة: "وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم".

فهم هنا لا يميّزون بين العقاب الذي وقع عليهم، وبين السحب. وكفرهم وعنادهم يجعلهم يغلطون في الحكم كما حصل مع قوم هود على نحو ما تذكره سورة الأحقاف في الآيات ٢٤ و٢٥ "فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي المجرمين... فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون".

وأما التوصية للنبي (ص): "فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون". والمراد هنا أن ما يحلّ بهم من العذاب سوف يكون فعله كفعل الصاعقة عليهم وفي أنفسهم، في أحداثه ونتائجه التي ما كانوا يتصوّرون أنها سوف تجري عليهم.

وتشير الآية ٤٦ الى أن كيدهم (جميع خططهم) التي حبكوها، وسعوا الى تنفيذها، وظنوا أنها سوف تحقق لهم أحلامهم، وتؤمن لهم النصر في مواجهة الرسول (ص)، كيدهم هذا "لا يغني عنهم شيئاً" كما أنهم لا يمكن أن ينتصروا في تلك المواجهات، ولن يجدوا في الخليقة من يمكن أن يقف الى جانبهم.

وأما التهديد فيتمثل في قوله تعالى: "وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك" فيصبح عذابهم على درجتين: درجة في الحياة الدنيا وهي ما يصيبهم من الخيبة والانكسار والاندحار في الحياة الدنيا، ومن المذلة وغير ذلك، ودرجة ثانية في الحياة الآخرة لا يذكر تفاصيلها. والسكوت عن ذكر هذه التفاصيل أوقع في النفس، إذ يجعل الإنسان المقصود بمثل هذا التهديد يتوقع كل نوع من أنواع العقاب الشديد، فيغرق في الخوف والهمّ والترقّب والانتظار.

- وتعود الآيتان ٤٨ و ٤٩ الى رسم خطة للتعامل مع الأحداث تتمثل بما يأتي:

١ـ الصبر: "فاصبر لحكم ربك"

ومع الصبر وعد برعاية دائمة وحفظ وحماية، ودفاع عن النبي (ص) "فإنك بأعيننا".

٢ـ العبادة: وتتمثل هذه العبادة هنا بالتسبيح بحمد الله (حين تقوم) بكل عمل، أو تقوم لكل صلاة...

والتسبيح في الليل أيضاً والمراد به صلاة الليل.

وإدبار النجوم: والمراد بذلك صلاة الصبح...

وبهذا نرى أن عبادة الله تعالى تتمثل في أمرين:

ـ في تأدية الفرائض الواجبة، وصلوات أخرى تعتبر من النوافل...

ـ وفي التسبيح: وهو الذكر الدائم لله تعالى قبل كل صلاة، وبعدها، في الليل وفي النهار.

والمراد بهذا البرنامج العبادي أن يعيش الإنسان مع ربه، لا ينسى ذكره، ولا يسهو عنه. فالله حاضر معه دوماً، وهو يرعاه ويحرسه ويحميه. ولا يغفل عن ذكر الله لحظة واحدة. وذلك على نحو ما ورد في قوله تعالى: "إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. الأنعام ١٦٢.

وفي قوله تعالى: "ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون." الذاريات ٥٦.

- ٤ -

شرح سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

في الحديث عن أسباب النزول ورد أن اليهود كانت تقول إذا هلك لهم صبي صغير: هو صدّيق. فبلغ ذلك النبي (ص) فقال: كذبت اليهود، ما من نسمة يخلقه الله في بطن أمّه إلا ويعلم أنه شقي أو سعيد. فأنزل الله عند ذلك هذه الآية: "هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى."

وفي ذكر ثواب سور القرآن أنه "من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بالنبي وكذب به. ومن قرأها في كل يوم أو كل ليلة عاش محموداً بين الناس محبوباً.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥)

١- هوى: صار في الأفق على وشك الغروب.
٢- صاحبكم: النبي (ص).
- غوى: ضلّ. انحرف عن الصراط المستقيم.
٣- الهوى: الرغبة الخاصة.
٥- شديد القوى: جبرئيل (أو الله)

- في هذه السورة الكريمة حديث عن المعراج، وهو الصعود الى السماء في رحلة الإسراء والمعراج المعروفة، والتي كانت بإرادة الله تعالى، وتوفيقاً منه، ورعاية وعناية بالنبيّ (ص).
هذا الارتقاء الى السماء كان موضع أخذ وردّ بالنسبة للمشركين الذين أنكروا حصوله، واتهموا النبي (ص) بأنه (ينطق عن الهوى) أي أنه يقول أشياء مما يتخيّله، أو يتوهمه أو يتمناه...

ويأتي الردّ من الله تعالى، الذي يتحدّث في هذه السورة الكريمة (النجم) عن أحداث هذه الرحلة الى السماء، ويذكر بعض تفاصيلها.

والبداية قَسَمٌ من الله تعالى غايته تأكيد حادثة المعراج، بحيث لا يبقى مجال للناس بعد القسم الى التكذيب، وعدم تصديق الحادثة (المعراج)، ويصبح الإيمان بها جزءاً من الإيمان بالرسالة، إذ لا يمكن للمؤمن أن ينكر مثل هذا الحدث العظيم...

أما بماذا يقسم الله تعالى في هذه السورة الكريمة؟

- بالنجم "إذا هوى".

ولم يحدّد هذا القَسَم نجماً بذاته، كما أنه لم يشر الى حادثة بذاتها حدثت أو ستحدث في المستقبل.

وإذا أخذنا لفظة (هوى) بمعنى سقط من مكانه، وهو أول ما يتبادر الى الذهن من معنى (هوى)، فيصبح الحديث عن نجم واحد بذاته، بدليل أنه معرّف بـ (أل). وقد يستفاد من التعبير تصوير كل نجم (يهوي)، وعندها لا تعود هوى تعني السقوط بمعنى تغيير مكان وجوده بحادثة معينة، أو بإرادة معينة، بل يصبح المراد بذلك حركة كل نجم ضمن ما نعرفه من نجوم النظام الشمسي، بالنسبة الى حركة الكواكب، وبصورة خاصة بالنسبة الى حركة الأرض. فالشمس أو القمر، يكون كل منهما في كبد السماء، ثم يهوي فيكاد يلامس الأفق، أو هو يلامسه فعلاً بحسب ما ترى عين الإنسان، ويكون النجم في طريقه الى الأفول...

والواقع أن هذه الظاهرة الكونية التي يراها الإنسان، تعبّر عن أشياء كثيرة، وعلى درجة كبيرة من الأهمية، وإن كنا لا نستطيع التأكيد على شيء من المعاني التي تخطر بالبال، ولهذا أقسم الله تعالى بها. وما كانت هذه الظاهرة لتستحق أن تكون مما يُقْسَمُ به لولا ما فيها من الأسرار...

وهذا المعنى المراد، والخفيّ عن مدارك البشر، هو الذي أوقع المفسرين في حيرة عندما عرضوا لهذه الآية الكريمة.

ونحن نراها هنا من أسرار القرآن الكريم، ومن الإعجاء القرآني، على طريقة القسم في (ق)، و(ن)، وحم عسق، وكهيعص...

والمراد بالقسم الإلهي توكيد فكرة معينة، هي صدق النبي (ص)، وتنزيهه عن الضلال والغي، وغير ذلك من الأمور التي اتهمه بها المشركون.

"ما ضل صاحبكم وما غوى"

" ما ينطق عن الهوى"

" إن هو إلا وحي يوحى".

فالنبي (ص) إذن يحدّث بما أمره الله تعالى أن يحدّث به، ونزل في جملة ما نزل من القرآن الكريم، وإن كان هنا يؤرخ ويصف حالة من الحالات الخاصّة بالنبي (ص)، والتي تشكل قضية هامّة جداً، وتحمل في طياتها كثيراً من الألغاز التي يحار معها عقل الإنسان، ولا يهتدي الى الحقيقة إلا إذا كان من المؤمنين بالله جلّ شأنه وأنه يفعل ما يشاء، وبالرسول الأكرم (ص) وأن الله تعالى قد كرّمه بهذه الحادثة، كما كرّم كل نبي من الأنبياء بمكرمة خاصّة... ثم إن الحديث عن هذه المكرمة يطرح كثيراً من القضايا والأسرار الإلهية، وأسرار الكون والوجود والخليقة... ليتفقّه الإنسان في أمور يعتقدها ولا يعرف تفاصيلها، أو يجهلها فتحيّره وتربكه أحياناً كثيرة، أو أنها قد تزعزع إيمانه... ولا خلاص من كل هذه الهواجس إلا بالإيمان المطلق. والنبي (ص) لا ينطق عن الهوى، إنما هو يتحدّث عما حدث معه، وعمّا شاهده بالعين، وهو الصادق الأمين.

إذن النبي (ص) يقول ما أوحي إليه. ولو بقي الأمر مشاهدة دون وحي لما كان النبي ـ في ما نظن ـ ليتحدث عنه خوفاً من عدم تصديق الناس له. ودليلنا على ذلك: ١ـ ما ورد في سورة المائدة الآية ٦٧ "يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس"

٢ـ قول النبي موسى عليه السلام: "وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون" القصص ٣٤.

- ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن الوحي. والملاك الذي كان يحمل الوحي الى الأنبياء هو جبرائيل عليه السلام. وهو الذي حمل الوحي الى النبي. وهو الذي كان يعلمه ما يقول، ويحمل إليه كلام الله.

إذن جبرائيل هو المعلّم. ويصفه القرآن الكريم في هذه الآية من هذه السورة المباركة (النجم) بأنه "شديد القوى".

ونرى أن الأمر هنا يقتضي بعض الحديث عن الملائكة عليهم السلام. وقد خلق الله من هؤلاء الملائكة أعداداً كثيرة، وجعلهم جنوداً له، يعملون بأمره، وأشار الى عددهم فقال: "وما يعلم جنود ربك إلا هو" (سورة المدثر الآية ٣١). ويخصص كل صنف م أصناف الملائكة بعمل محدّد، أو بعدة أعمال... ورؤوس الملائكة جبرائيل واسرائيل، وغزرائيل، وميكائيل...

وفي سورة فاطر، تبدأ هذه السورة بالحديث عن الملائكة. فقد ورد في الآية الأولى من هذه السورة قوله تعالى: "الحمدلله فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رُسُلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير." ولم تحدد هذه الآية أشكال جميع الملائكة، وإن كانت جعلت للملائكة ـ جميع الملائكة ـ أجنحة، إلا أن عدد أجنحتها يختلف. وقد خلق الله الملائكة من نور...

وعن الإمام الصادق عليه السلام: خلق الله الملائكة مختلفة. وقد أتى رسول الله جبرائيل وله ستمئة جناح، قد ملأ ما بين السماء والأرض...

والملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، وإنما يعيشون بنسيم العرش. وإن لله عز وجل ملائكة ركعاً الى يوم القيامة، وملائكة سُجّداً الى يوم القيامة.

وعن الصادق عليه السلام عن النبي (ص): ما من شيء مما خلق الله أكثر من الملائكة. وإنه ليهبط في كل يوم أو في كل ليلة سبعون ألف ملك فيأتون البيت الحرام فيطوفون به، ثم يأتون رسول الله (ص)، ثم يأتون أمير المؤمنين عليه السلام، ثم يأتون الحسين (ع)، فيقيمون عنده، فإذا كان عند السحر وضع لهم معراج الى السماء، ثم لا يعودون أبداً.

وعن الإمام علي عليه السلام في خلق الملائكة: "ثم فتق ما بين السموات العلى، فملأهن أطواراً من ملائكته. فهم سجود لا يركعون، ورُكّع لاينتصبون، وصافون لا يتزايلون، ومسبّحون لايسأمون، ولا يغشاهم نوم العين، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان. ومنهم أمناء على وحيه، وألسنة الى رُسُله. ومختلفون بقضائه وأمره. ومنهم الحفظة لعباده، والسّدنة لأبواب جنابه. ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزّة وأستار القدرة... (نهج البلاغة).

وفي مكان آخر يصف الإمام عليه السلام الملائكة فيقول: وأنشأهم على صور مختلفة، وأقدار متفاوتات، أولي أجنحة تسبّح جلال عزّته...

جعلهم الله فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحمّلهم الى المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشبهات... قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الرويّة من محبته... وليس في أطباق السماء موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد... (نهج البلاغة).

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام في وصف الملائكة: ... وإسرائيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن وحلول الأمر فينبه بالنفخة صرعى رهائن القبور. وميكائيل ذو الجاه عندك والمكان الرفيع من طاعتك. وجبريل الأمين على وحيك، المطاع في سمواتك، المكين لديك، المقرّب عندك، والروح الذي هو على ملائكة الحجب، والروح الذي هو من أمرك... والسفرة الكرام البررة، والحفظة الكرام الكاتبين، وملك الموت وأعوانه، ومنكر ونكير، ومبشّر وبشير، ورؤمان فتّان القبور، والطائفون بالبيت المعمور، ومالك والخزنة، ورضوان وسدنة الجنان، والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والذين يقولون: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. والزبانية الذين إذا قيل لهم: "خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلّوه" ابتدروه سراعاً ولم ينظروه. ومن أُلهمنا ذكره ولم نعلم مكانه منه، وبأي أمر وكلته. وسكان الهواء والأرض والماء، ومن منهم على الخلق. (الصحيفة السجادية).

فجبرائيل عليه السلام هو شديد القوى... وللدلالة على قوته نشير الى أنه (جبرائيل) كان في أربعة أملاك بعثهم الله تعالى لإهلاك قوم لوط، وهم: جبرائيل وميكائيل و اسرافيل وكرّوبيل، وهم الذين مرّوا على ابراهيم لبشارته بمولود... ورئيسهم جبرائيل ... وهو الذي اقتلع مدينة لوط بجناحيه، تنفيذاً لمشيئة الله تعالى كما ورد في سورة هود الآية ٨٢: " فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود.".

وفي الروايات أن رسول الله (ص) سأل جبرئيل أن يتراءى له في صورته. فقال جبرئيل: إنك لن تطيق ذلك. قال: إني أحبّ ذلك. فخرج رسول الله الى المصلى في ليلة مقمرة، فأتاه جبرئيل في صورته، فغشي على رسول الله (ص) حين رآه. ثم أفاق وجبرئيل مسنده، وواضع إحدى يديه على صدره، والأخرى بين كتفيه. فقال رسول الله (ص): ما كنت أرى أن شيئاً ممن يخلق هكذا. فقال جبرئيل: فكيف لو رأيت إسرافيل؟! إن له لاثني عشر جناحاً: جناح في المشرق وجناح في المغرب، وإن العرش على كاهله. وإنه ليتضاءل أحياناً لعظمة الله حتى يصير كالطائر الصغير...

بسم الله الرحمن الرحيم

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى
(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا
أَوْحَى (١٠)

٦ـ ذو مرّة: جمع القوة والعقل السليم وسداد الرأي.
ـ استوى: ظهر على صورته الحقيقية

٨ـ دنا: اقترب.
ـ تدلّى: نزل إلى النبي (ص)
٩ـ قاب قوسين: مقدار ذراعين...
ـ أو أدنى: أو أقل من ذلك.

- وفي الآية: "ذو مرّة فاستوى" يتابع الحديث عن جبرائيل عليه السلام. والمعنى: أنه ذو قدرة وقوّة وطاعة لله، وتنفيذ أوامره... وتنفيذاً لأوامر الله فقد استوى (جبرئيل) أي ظهر على صورته الأصلية هذه المرة، وهو الذي كان ينزل على النبي (ص) في صور مختلفة.

أما متى وأين حدث ذلك، فتقول الآية الكريمة "وهو في الأفق الأعلى"، ولعلّ المراد به غير أفق الأرض.

ثم ماذا جرى بعد ذلك؟ في الآية الثامنة: "ثم دنا فتدلّى" ومعناها أنه اقترب من النبي (ص) نزولاً من الأفق الأعلى، "فكان قاب قوسين أو أدنى" أي أنه كان قريباً جداً من النبي بمقدار ذراعين أو أقرب من ذلك.

"فأوحى الى عبده ما أوحى"، ومعناها أن الله تعالى أوحى الى نبيّه بأمور، نقلها إليه جبرئيل. ولم يحدّد هذه الأمور (ما أوحى)، وذلك يفيد في أمرين:

أولهما: التعظيم لهذا الوحي، **والثاني**: إبقاء هذا الوحي سراً، لأن هذا الوحي يشكل أمراً خاصاً بين الله والرسول، ولا داعي لإطلاع الناس عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ
رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى
(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى
(١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)

١٢- أفتمارونه: هل تجادلونه.
١٤- سورة المنتهى: شجرة عند يمين العرش، فوق السماء السابعة.
١٥- جنة المأوى: جنة الخلد.
١٦- إذ يغشى السدرة ما يغشى: يغطيها نور عظيم.
١٧- ما زاغ البصر وما طغى: ما رأى النبي (ص) شيئاً غير ما أراد له الله أن يراه.

- في الآية ١١ من السورة الكريمة: "ما كذب الفؤاد ما رأى" عودة الى ما بدأت به السورة من موضوع أن ما حدّث به النبي (ص) عن موضوع المعراج هو كلام صحيح، ويعبّر عن حقيقة واقعة، وحادثة جرت بالفعل بإرادة إلهية. وقد أقسم الله تعالى على ذلك لتأكيده بقوله تعالى: " والنجم إذا هوى. ما ضلّ صاحبكم وما غوى...".

وتوافق الآية الكريمة: "ما كذب الفؤاد ما رأى" أمراً آخر، وهو أن الرؤية قد تتم بالعين، فتكوّن رؤيئة حسّيّة، وقد تكون تصوّراً بالفؤاد، إذ أن الإنسان يستطيع أن يتصوّر شيئاً، بناء على معطيات معينة، ومفاهيم ثابتة، وفكر وقناعات عنده... تجعل الصورة المرتسمة في الفؤاد مطابقة لصورة الواقع لو أتيح للإنسان أن يرى هذه الصورة الواقعية. ومن مثل هذا ما يروى من قول الإمام علي عليه السلام: "لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا"، بحيث أنه لو رأى الله جهرة (كشف لي الغطاء)، ما كانت صورة الإله التي رسخت في ذهنه لتتغيّر أبداً. مما يجعل رؤيا الفؤاد تقارب، وقد تطابق الرؤية الحسيّة، رؤية العين.

ويصير المعنى أن ما رآه الرسول الأكرم (ص) بالقلب، بالفؤاد، ما كانت صورة كاذبة، وإنما جاءت الرؤية بالعين مطابقة لرؤية الفؤاد.

- ثم تتوجه الآية ١٢ من السورة الكريمة الى المشركين الذين أخذوا يجادلون في هذا الموضوع، فتسألهم: "أفتمارونه على ما يرى". والسؤال هنا سؤال تعجيبي، فيه توبيخ للمشركين الذين دخلوا مع النبي (ص) في جدال حول أشياء رآها النبي بعينه، وهم لم يروها. والذي يصف شيئاً شاهدوه بأم العين أصدق من إنسان يجادل في أمور لم يرها.

- في الآية ١٣: "ولقد رآه نزلة أخرى".

أما النزلة الأولى فكانت عندما نزل جبرئيل عليه السلام الى الأرض، وعرج بالرسول الأعظم الى السموات. وأما النزلة الثانية فأثناء معراجه، عند سدرة المنتهى. وسدرة المنتهى هذه "عندها جنة المأوى". وهذه الشجرة فوق السماء السابعة، وإليها تنتهي أعمال بني آدم.

وعند سدرة المنتهى "جنة المأوى" أي الجنة التي يأوي إليها المؤمنون، وهي جنة الآخرة، كما ورد في سورة السجدة الآية ١٩، والنازعات الآية ٤١، والذاريات الآية ٢٢.

- وفي الآية ١٦ "إذ يغشى السدرة ما يغشى"

فيبدو من الآية الكريمة، أن هذه السدرة كان يغطيها، ويحيط بها شيء ما، أو أشياء كثيرة، أو أمر ما، أو أمور كثيرة... مما يجعل لها خصوصية ما أراد الله تعالى أن يفصح عنها. وتمثل عدم الإفصاح هذا بـ(ما)، وهي هنا للتنكير، وللتعظيم، والتهويل أيضاً... وهذا كله يجعل فكر الإنسان الذي يقرأ هذه الآية يذهب مذاهب شتى، وتنتابه الظنون. فكيف إذا كان القارئ غير مؤمن، وكارهاً للنبي، ومنكراً للرسالة، ولا يصدق قصّة المعراج... ودفعاً لكل التباس أتت الآيتان، ١٧ و١٨ "ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى." فالبصر ما زاغ: أي أنه ظل ينظر الى ما كان مسموحاً له أن ينظر إليه، دون زيادة ولا نقصان. ويرى الأمور على حقيقتها فلا يؤثر في الرؤية غشاوة ولا غطاء، ولا أي سبب آخر... فكانت الرؤية حقيقية، تنفذ الى أعماق الأمور، فترى وتبصر برؤية ثابتة حقيقية، لا وهم فيها ولا غلط. وحققت الغاية المرجوّة من المعراج لتعليم النبي، وإطلاعه على بعض أسرار الكون والوجود، وذلك على نحو ما ورد في سورة الجن الآيات: ٢٦ و ٢٧ و٢٨ "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا. ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا."

ومن ضمن هذا التحديد للغاية من المعراج أن يُري الله تعالى رسوله الكريم بعض الآيات الكبرى، هكذا دون تفصيل. أما الغاية من ذلك فمعروفة، وهي تزويد النبي بالعلم، والمعرفة، وبعض أسرار الكون والوجود... التي لا يطيق الناس حملها، ولا يقدرون عليه، ومن ضمن تثبيت النبي (ص) ورعايته، وتمكينه، وتفضيله...

وعن بعض أصحاب النبي (ص) قالوا: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: لم أره بعيني ورأيته بفؤادي مرتين.

وقال النبي (ص): "انتهيت الى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظل أمّة من الأمم... وورقها مثل آذان الفيلة، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها، تحولت ياقوتاً وزمرداً، ونحو ذلك.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: "...فلما انتهى به الى سدرة المنتهى، تخلّف عنه جبرئيل، فقال رسول الله (ص): في هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدّم أمامك، فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك. فرأيت من نور ربي... ومعناها أنه رأى ربّه برؤية آياته."

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥)

١٩ و ٢٠ـ اللات والعُزّى ومناة: أصنام كانوا يعبدونها في الجاهلية.

٢٢ـ قسمة ضيزى: قسمة جائرة.

- ويعود الخطاب هنا الى المشركين، بعد الرّ على الموقف الذي اتخذوه من موضوع المعراج، والتأكيد على ما أخبرهم به النبي (ص) مما رأى وشاهد، وتصديق ذلك، وما يكشفه من أسرار الكون والوجود الخفية... يعود ليهاجم المشركين في معتقداتهم الوثنية، وما شاع بينهم من الأفكار السخيفة التي ليس لها ما يؤكدها، ولا ما يبرّرها، فيقول:

"افرأيتم اللات والعزّى ومناة..." وفي هذا الخطاب استخفاف بهذه الآلهة من الأوثان، والاستخفاف بعقول الذين يعبدونها. ويدعوهم الى التفكير في شأنها، وأحوالها... لعلهم بذلك يدركون سخف العقيدة بالأوثان في مقابل عقيدة التوحيد.

وكان العرب يعبدون أوثاناً وأصناماً عديدة، منها:

اللات: بالطائف. وكانت صخرة مربعة. وكان سدنتها من بني ثقيف. وكانوا قد بنوا عليها بناء، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها.

العُزّى: كانت بوادٍ من نخلة الشآمية. وكانت على الطريق من مكة الى العراق. وكانت أعظم الأصنام عند قريش. وكانوا يزورونها، ويهدون إليها، ويتقرّبون عندها بالذبح.

مناة: وكان صنماً منصوباً على ساحل البحر بين المدينة ومكة. وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح له. ولم يكن أحد أشدّ إعظاماً له من الأوس والخزرج. وكان صنماً لهذيل وخزاعة.

وكانت قريش تطوف بالكعبة، وتذكر اللات والعزى ومناة، وكانوا يقولون: هؤلاء بنات الله، وهن يشفعن إليه. ولم تكن قريش بمكة، ومن أقام بها من العرب، يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العُزّى ثم اللات ثم مناة.

وبعد هذا الحديث عن هذه الأوثان الذي يظهر منه لهجة احتقار ظاهرة، في الآيتين ١٩ و ٢٠، انتقل الى تسخيف عقيدة المشركين في هذه الأوثان التي هي ـ في عقيدتهم ـ صور للملائكة الذين هم بنات الله. والأصنام عندهم ذكور. وقد كان مجتمع العرب مجتمعاً يفضّل الذكور على الإناث، وهي عقيدة راسخة عندهم، جعلتهم يحتقرون المرأة، ويئدون البنات، ويعتبرون المولودة الأنثى عاراً على أبيها الذي كان يسودّ وجهه إذا بشّر بالإنثى، ويتوارى من القوم من سوء ما بشّر به "أيمسكه على هون أم يدسّه في التراب" سورة النحل، الآية ٥٩.

وكذلك تظهر لهجة السخرية من معتقداتهم، ولهجة التوبيخ والملامة، والتشنيع عليهم في عقيدتهم "ألكم الذكر وله الأنثى". ومع الإنكار يأتي اللوم والتأنيب أيضاً، واعتبار أن مثل هذه القسمة قسمة جائرة. وأن هذه التسميات هي اختراع هؤلاء القوم المشركين، وقد سبقهم إليها آباؤهم، وهذه التسميات، وهذه القسمة " ما أنزل الله بها من سلطان" أيّ أنهم لا يملكون عليها دليلاً واحداً. وما قولهم هذا إلا اتباع للظن وهوى النفوس، الذي أوحت به أوضاعهم الاجتماعية، وضعف عقيدتهم، وبعدهم عن الرسالات السماوية الحقيقية التي لا يمكن أن تقرّ مثل هذه المعتقدات.

وتنتقل الآية ٢٣ الى تذكيرهم بأن الحقيقة هي ما جاءهم من ربهم بشأن هذا الأمر، وهو الهوى، وكل عقيدة غير ذلك ضلال.

- وفي الآية ٢٤: "أم للإنسان ما تمنّى" وتعني أنه لا يمكن أن تكون الحقيقة ولا الشريعة خاضعة لما يتمنّاه الإنسان. فالتمني شيء، والحقيقة شيء آخر. ولا يمكن التضحية بالحقيقة والشريعة ابتغاء الخضوع لرغبات الأفراد.
- وفي الآية ٢٥ خلوص الى أمرين: **الأول**: أن الله تعالى هو الذي يقرّر الأمور، ويدبّر الأحوال، ويشرّع الشريعة، وليس الإنسان. **والثاني**: نوع التحذير من مثل هذه العقيدة الفاسدة المنتشرة بين المشركين، بما تجرّه عليهم من العقاب يوم القيامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)

٢٨ـ لا تغني: لا تفيد ولا تنفع

- ويتابع الحديث في موضوع الأوثان والأصنام التي كان الجاهليون يعبدونها، وما كانوا يعتقدونه بأن هذه الأصنام ذكور، وهي لهم. وهي أيضاً صورة للملائكة التي كانوا يعتقدون أنها لله (وله الأنثى)... وقد اعتبروا أن هذه الآلهة قد تشفع لهم وتنجيهم من العذاب. واعتبر الله تعالى: أن تقسيمهم للأمور على نحو ما قالوا (قسمة ضيزى) أي جائرة. وأن اعتبار الملائكة إناثاً لله... غير صحيح. واعتبر أن كل هذه الأسماء وهذه المفاهيم دليل على عجز وجهالة (ما أنزل الله بها من سلطان). وأنها تقليد جهل للآباء والأجداد المشركين، وعدم تفكّر لهؤلاء الكفار في هذه القضية لمعرفة الحقيقة.

وهنا يرفض الله تعالى فكرة شفاعة الأصنام للكافرين، ويقرّر مبدءاً أساسياً في الشفاعة: "وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى."

وفي هذه الآية الكريمة أمور، منها:

١ـ أن الملائكة مستقرّهم في السموات وليس على الأرض، وإن كان بعضهم ينزل الى الأرض بتكليف إلهي...

٢ـ وأن هذه الأوثان لا علاقة لها بالملائكة أبداً،

٣ـ وأنها (الأوثان) من عمل الشيطان وهي ملعونة، وممقوتة، ووسيلة غواية ولا تضرّ ولا تنفع.

٤ـ وأن الشفاعة لا تقبل من كل من تشفّع. ولها شروط:

أ ـ أن يأذن بها الله لمن يشاء. فإذا لم يأذن فلا شفاعة لأحد.

ب ـ وبعد الإذن لا بُدَّ من (الرضى) حتى تؤتي هذه الشفاعة نتيجتها. و(كم) هنا في الآية الكريمة (كم التعجبية)، وتفيد الكثرة. فيصبح المعنى أن كثيراً من الشفاعات لا تفيد. وتصبح شفاعة هذه الأوثان والأصنام لا تفيد في شيء.

ومن الأخبار حول هذا الموضوع أن قريشاً كانت تطوف بالكعبة وتقول:

واللات والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى فإنهنّ الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجى.

(عن كتاب الأصنام لابن الكلبي)

- وفي الآية: "إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمّون الملائكة تسمية الأنثى". اعتبر أن تسمية الملائكة بأسماء الأنثى كفر وعدم إيمان بالآخرة.

ثم أكمل في الآية ٢٨ الحديث عن هذا الموضوع فاعتبر أن مثل هذا الفعل ناتج عن جهالة (وما لهم به من علم) وهو نوع من الظن الذي لا يرتكز الى أساس، وليس له ما يثبته. وأنه في مثل هذه الحالات لا يفيد الظن، والحق يقين و (الظن لا يغني عن الحق شيئاً).

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩)
ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى
(٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ
وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ
أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى
(٣٢)

٢٩ـ أعرض: ابتعد.
٣٠ـ مبلغهم: مقدار ما وصلوا إليه.
٣٢ـ يجتنبون: يتحاشون ويبتعدون عنها.
ـ كبائر الإثم: الذنوب الكبيرة.
ـ الفواحش: أقبح الذنوب.
ـ اللمم: صغائر الذنوب.
ـ أنشأكم: خلقكم
ـ أجنة: مفردها جنين.
ـ فلا تزكوا أنفسكم: لا تغتروا بأنفسكم ولا تدعوا الطهارة بادعائكم أنكم منزهون عن ارتكاب الذنوب.

- ثم تنتقل السورة الكريمة الى تحديد الجهة التي يمكن أن يتوجه إليها الرسول (ص) في نشر الدعوة الإسلامية، فلا يتعرض الى قوم وصفهم بصفتين:

١ـ فأعرض عمّن تولى عن ذكرنا.

٢ـ ولم يرد إلا الحياة الدنيا.

أما **الأولى**: فتجعل ذكر الله تعالى منطلقاً الى الإيمان، وتعبيراً عن عقيدة بالله... كما أن ذكر الله من شأنه أن يهذّب النفس، ويحدّ بين الحق والباطل، وينصر الحق، ويفرغ قلب الإنسان من كل شائبة، ويبعد عنه الشيطان، ويفتح أمامه درب الهداية...

وأما **الثانية**: فتدلّ على أن تعلّق الإنسان بالحياة الدنيا وما فيها من مأكل، ومشرب، وملبس، ومال، وجاه، وعشيرة، وزعامة، وتجارة...

مما يجعل القلب يقسو، والفكر يضيق، والعاطفة تجف، والى عمى في القلب. وبلادة في الضمير... وغير ذلك من الآفات التي تباعد بين الإنسان والإيمان.

وتفسّر الآية ٣٠ سبب وقوع هؤلاء الكافرين في هذه الحالات السيئة الى الجهالة (ذلك مبلغهم من العلم). أي أن هذا هو الذي هدتهم إليه عقولهم.

ويمكن لمثل هذا الكلام أن يوقع المستمع في نوع من الحيرة، تقوم على عدم قدرة الإنسان العادي على التمييز بين مثل هؤلاء القوم، ومعرفة حقيقة كل فرد، وقد يأخذه الخوف من الوقوع في الغلط. ولكن الآية الكريمة ٣٠ تبادر الى تبديد مثل هذه الحالة من الخشية أو الخوف من الوقوع في الغلط في تقييم الأمور، وتطلب أن يُتْرَك الأمر الى الله: "إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى". وبمقتضى هذا العلم اليقيني يأتي التمييز بين المؤمنين والكافرين صحيحاً، ولا يظلم أحد شيئاً، فلا المؤمن يضيع حقه وعمله، وليس باستطاعة الكافر أن يوهم أحداً بغير الحقيقة.

- وتأتي الآية ٣١ لتؤكد ما ورد في الآية السابقة من قوله تعالى: (هو أعلم بمن ضل عن سبيله).

وهذا التأكيد مرتكز الى علاقة هذا الكون كله بالله تعالى: لهذا الكون (السموات والأرض) ومن فيهن هي لله. فهو ملكها، ومالكها، وخالقها، ومدبرّ أمورها، ويعلم بأدق تفاصيلها، ولا تخفى عليه خافية فيها، وهو القادر على أن يتحكم بقوانينها، ويسيّرها على نحو ما يريد... وهذه السلطة الإلهية، وهذا الاهتمام من الله تعالى بكل الأمور وبكل التفاصيل كانت له غاية في أساس الخلق، وهو أن يجازي المسيء على إساءته، وأن يكافأ المحسن على إحسانه بالحسنى.

- ثم ينتقل الحديث بعد ذلك الى تحديد مستحقي المكافأة من المحسنين، وهم:

أ- الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش.

ب- الذين يرتكبون الأخطاء الصغيرة ثم يتوبون عن ذلك (إلا اللمم)

أما **الفئة الأولى**: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، فقد حدد نوعين من الخطايا: كبائر الإثم، ومنها: الكفر بالله وملائكته ورسوله. وترك الصلاة والصيام والحج... وعقوق الوالدين، والزنا، وشرب الخمر، والربا... **والنوع الثاني**: الفواحش: الذنوب القبيحة التي تفسد المجتمع، وتسيء الى الناس. والفُحْشُ هو القبيح أو الشنيع من قول أو فعل.

و**الفئة الثانية**: (إلا اللمم). وفي تفسيرها أن يُلِمَّ الإنسان بالمعصية، ويقصدها، ولا يأتيها (لا يفعل).

وسبب تجاوز اللمم من (كبائر الإثم والفواحش) فمردّه الى ما ذكرته الآية ٣٢: إن ربك واسع المغفرة. هو أعلم بكم.

فالمساحة إذن نعمة من الله تعالى على الإنسان، إذ ترك له باب التوبة مفتوحاً بمقتضى رحمته للعباد، وبمقتضى ما ذكرته الآية ١٣٥ من سورة آل عمران: "والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون". وكما ورد في قوله تعالى في سورة النساء الآية ١٧: "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب".

وجعل الله تعالى الحكم في هذا الموضوع مرتبطاً به دون سواه، على أنه هو الأعلم بأحوال الناس الذين خلقهم، بدءاً من خلق آدم (إذ أنشأكم من الأرض)، مروراً بالخلق في بطون الأمهات، وتطوّر هذا الخلق، على نحو ما ذكرت الآية الثامنة من سورة الرعد: "الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار."

وتصل الآية الكريمة ٣٢ من هذه السورة المباركة الى نتيجة وهي: "فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى".

فتجعل هذه الآية التراجع عن الخطيئة والاستغفار من التقوى. وهذه التقوى هي موقف، وتصرّف، وعمل، وعقيدة... وليست كلاماً يدّعيه الإنسان. ومن هنا كان النهي "فلا تزكوا أنفسكم" لأن تزكية الإنسان لنفسه قد تكون ادعاءً فارغاً لا قيمة له. والله أعلم بمن اتقى، والحكم على الناس بأنهم أتقياء متوقف على أعمالهم. والله وحده يعلم كل شيء، وعلمه بكل شيء يجعل حكمه هو الصحيح وحده. وأحكام الناس بما أنهم لا يعلمون بكل شيء. وتغيب عنهم الخفايا، فهي قد تأتي ناقصة، ولا يمكن أن يتخذ حكم بناء على علم ناقص.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ
فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى
(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩)
وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ
الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)
وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ
النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩)
وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ
كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى
(٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥)

٣٣ـ تولى: ابتعد، أشاح بوجهه...
٣٤ـ أكدى: بخل بالعطاء.
٣٨ـ لا تزر وازرة: لا يحمل آثم إثم غيره.
ـ وزر: حمل ثقيل. ذنب
٤١ـ الأوفى: الكامل غير المنقوص.
٤٢ـ المنتهى: نهاية الأمر.
٤٧ـ النشأة الأخرى: الإحياء بعد الموت.
٤٨ـ أقنى: أرضى.
٤٩ـ الشّعرى: كوكب كانوا يعبدونه.
٥٢ـ عاد الأولى: قوم هود.
٥٣ـ المؤتفكة: مدائن لوط.
ـ أهوى: دمّرها.
٥٤ـ غشّى: حلّ بهم عذاب عظيم.
٥٥ـ تتمارى: ترتاب وتشكك.

- في أسباب النزول أن رجلاً من المسلمين كان ينفق من ماله في سبيل الله، وارتد عن الإسلام فامتنع عن الإنفاق خوف من نفاد ماله، وافتقاره. وعندما حدّث من كان يشجعه على الردة عن خوفه من عقاب الله، ضمن له ذلك الشخص أن يحمل عنه عذاب الله إن رجع الى الشرك، وأعطاه من ماله.

عن ذاك الرجل تتحدث الآيات الكريمة (٣٣ ـ ٥٥).

وجملة (أفرأيت) معناها: أخبرني عن ذاك الرجل. ويصفه: فهو قد غيّر عقيدته، وأشاح بوجهه، وابتعد، بعد أن كان قد أنفق بعض ماله، ثم أكدى: انقطع عن العطاء...

وفي البحث عن أسباب تصرّف هذا الرجل احتمالات هي أقرب الى أمثلة من الأنبياء، وهي من باب تأنيب ذلك الرجل وتوبيخه، واتهامه بالجهل، وبنقص الإيمان، وعدم معرفته بحقيقة الأمور، وكيف يحصل الإنسان على

الرزق، والى أين تنتهي حياة الإنسان، ومن خالق الكون، ومن الذي يرعى هذا الوجود... ويذكره بمصير بعض الأمم السالفة ممن عاقبهم الله على ذنوبهم...

وفي أسباب تصرف هذا الرجل احتمالات:

١ـ أعنده علم الغيب فهو يرى؟

وهذا السؤال تعجبي وإنكاري. فالغيب لايعلمه أحد إلا الله. ورؤية ما يحدث في المستقبل كذلك من الأسرار التي لا يطلع عليها أحد.

٢ـ أم لم ينبأ بما في صحف موسى.

وفي هذه ملامة لذلك الرجل أن يكون غير مطلّع على ما ورد في صحف موسى وابراهيم. ومعرفة ما كان من شأن موسى مع نبي الله شعيب، الذي استأجره لثماني سنوات يعمل في خدمته ورعي مواشيه، فوفى بوعده. وقبله ابراهيم الذي رأى في المنام أن يذبح ابنه اسماعيل، فسعى للوفاء بوعده حتى أنقذ الله اسماعيل فافتداه بذبح عظيم.

وفي هذه الصحف ـ صحف ابراهيم وموسى ـ مبادئ إلهية حملتها جميع الأديان الى الناس. ومنها:

١ـ ألا تزر وازرة وزر أخرى (٣٨) ـ أي أنه لا يمكن تحميل إنسان مسؤولية ذنب اقترفه سواه. وهذا ردّ على ذلك الذي ادّعى أنه سوف يحمل عن صديقه عقاب الله على بخله بالإنفاق على المحتاجين.

٢ـ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩) ـ أي أن الإنسان لا تنفعه في الآخرة إلا أعماله وسعيه في سبيل الخير.

٣ـ وأن لكل عمل ثواباً (٤٠) ـ بحيث لا يكون عمل دون أجر عند الله.

٤ـ وأن الإنسان يأخذ أجره على عمله وافياً غير منقوص (الجزاء الأوفى) (٤١).

٥ـ وأن الى ربك المنتهى (٤٢) أي أن الإنسان مهما طال عمره فإن له نهاية، وهو سوف يرجع الى ربّه، فيحاسبه على أعماله. ولا مفرّ من هذا الحساب.

٦ـ وأنه هو (الله تعالى) أضحك وأبكى. أي أن كل سعادة تسرّ الإنسان هي من الله. وأن كل مشقة تحصل له هي من عند الله، وهي مقدرة عليه، وإن كان باستطاعة الإنسان أن يخلص من الشرور بطاعة الله، إذ أن الله تعالى "يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب" سورة الرعد الآية ٣٩.

٧ـ وأنه هو أمات وأحيا. ولا يقدر على ذلك أحد غيره، وفي سورة فاطر الآية ١١ " وما يُعَمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب".

٨ـ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. في عملية تنظيمية للخلق، تستمر بإرادته وتستمر معها الأحوال كما تقتضي المشيئة الإلهية.

٩ـ وزيادة في التوضيح: كان أصل الخلق "من نطفة إذا تمنى". ويمكن للإنسان الذي يتابع عملية الخلق هذه في آليتها، ودوافعها، والمراحل التي تمر بها، وأهميتها للإنسان، ومهانة الإنسان، ثم تكريم الله تعالى للإنسان بعد تلك المهانة... كل ذلك ليعتبر المتأمل في هذا الأمر. ولكن هل من يعتبر؟

١٠ـ ثم يموت الإنسان. والله تعالى هو الذي شرّع الحياة بعد الموت (وأنه عليه النشأة الأخرى). وهذا الإحياء بعد الموت لا يقدر أحد عليه إلا الله.

١١ـ وأنه هو أغنى وأقنى. فهو الذي رزق الإنسان الذي جاء الى هذه الدنيا لا يملك شيئاً فأغناه بالمال، وبالصحة، والعافية... وبأمور كثيرة... و (أقنى) أي أن هذا الإنسان رضي بعطاء ربّه، وبنعمه عليه، وبالحالة التي أوجده عليها.

١٢ـ وأنه هو ربُّ الشِّعرى، أي أن الله خالق كل شيء. وهو ربّ المخلوقات جميعاً، وربّ هذه الكواكب التي يعبدها بعض الناس، ومنها الشعرى. كل ذلك ليقول لهؤلاء: أليس أولى بكم أن تعبدوا اله الخالق، من أن تعبدوا النجم المخلوق كالشعرى وغيرها؟

١٣ـ وأنه أهلك عاداً الأولى، أي قوم هود، ويراد بذلك تذكير الجبابرة والطغاة، والأمم الضالة بالعقاب الذي أصاب أمثالهم ممن سبقهم، ويهددهم بمصير مثل مصيرهم.

١٤ـ ومثل ما حصل لعاد حصل لثمود. وهذا مثل آخر من الأمم السالفة زيادة في التذكير. إذ دمرهم جميعاً، فلم يبق منهم أحد.

١٥ـ ومثل ثالث: قوم نوح... وكان هؤلاء أشد ظلماً، وأكثر طغياناً، وما استعصى أمرهم على الله. فلما أراد إهلاكهم أهلكهم بالطوفان.

١٦ـ ومثل رابع "والمؤتفكة أهوى". والمؤتفكة: مدائن لوط، فقد دمّرها تدميرا، فحل بهم عذاب عظيم.

وينتهي هذا المقطع بالآية الكريمة: "فبأي آلاء ربك تتمارى" والمقصود من الآية الكريمة، أنه بعد هذا العرض للسياسة التي قامت عليها إدارة المجتمع من ضمن البنود الستة عشر التي أشرنا إليها، والتي تحقق العدالة في المجتمع، وتحدد المسؤولية، وتجعل العمل أساس الحياة. وعلى أساس العمل تقوم محاسبة الناس... وبعد عرض السياسة القائمة على أساس الثواب والعقاب، وحماية المجتمع من المجرمين الفاسدين. والسيطرة التامة على الكون والوجود بما يحفظ حسن الانتظام في الكون بمشيئة إلهية واحدة تحيط بكل شيء... أفلا يكفي هذا كله أن يكون المجتمع كله في أمان. وهذا الأمان بجميع جزئياته يشكل نعماً أنعم الله تعالى بها على الخليقة... وهل يبقى بعد كل هذه النعم من مجال للتشكيك بالارادة إليها، وبأن هذه الإرادة هي الخير كل الخير للخليقة جمعاء. وهذا معنى: فبأي آلاء ربك تتمارى.

بسم الله الرحمن الرحيم

هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتِ الْآَزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ
اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا
تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)

٥٧ـ أزفت الآزفة: دنا يوم القيامة.
٦١ـ سامدون: في حيرة وبهتان.

- وتنهي السورة الكريمة بالآية ٥٦: "هذا نذير من النذر الأولى".

وفيها الحديث عن:

١ـ نذير.

٢ـ النذر الأولى

ونفهم من (نذير)، أن ما قدمته السورة الكريمة من عرض هذا التنظيم الاجتماعي بمبادئه الأساسية، وقيام الحكم الإلهي على تلك المبادئ المذكورة فيها، والتي وردت في صحف النبيين. والتي قامت عليها سياسة الثواب والعقاب. وبعد الوصف الحقيقي لحالة الكون والوجود من أساس خلقه، الى السلطة القائمة فيه على تلك المبادئ الثابتة... كل ذلك بعتبر دعوة للبشرية جمعاء الى التصديق بهذا النظام الإلهي، في دعوة إلزامية غير اختيارية، مع حفظ حق الفرد في اتخاذ القرار المناسب على مسؤوليته.

وسبب هذه الدعوة بمثابة إنذار، ذلك أن وقت المحاسبة بات قريباً. ونفهم هذا من قوله تعالى: أزفت الآزفة. والآزفة القيامة، وللقيامة أحوالها. وقد كشفت كثير من آيات القرآن الكريم عن أحوال يوم القيامة. وإذا أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة. ومعنى ذلك أن أحوالها وويلاتها لا يمكن أن تؤجل ولا أن تنكشف إلا بالإرادة الإلهية متى حصل من الله تعالى رضاً عن أعمال العباد، عندما ينفذون أوامره ونواهيه، ويعملون بإرادته، ويقبلون بمشيئته في تنظيم الحياة، ويطيعونه في كل ما يريده.

ونفهم من قوله تعالى: "من النذر الأولى" أن الله تعالى سوف ينذر الناس إنذارات عديدة يتلو بعضها بعضاً، في سبيل تذكيرهم، وتنبيههم، وإيقاظهم من سباتهم، وتجنيبهم غضب الله تعالى وعقابه، حتى لايبقى في أيدي الناس حجة يحتجون بها لإيقاف العقاب والنجاة منه.

- وتصور الآيات الكريمة (٥٩ـ ٦٢) حالة القوم الذين سمعوا ويسمعون الإنذار، وما يكون موقفهم منه.

أما الموقف فهو التعجب منه.
وأما التصرّف فهو الضحك.
والتعجب ينطوي على الإنكار مرة، وعلى حمل الأمور على غير محمل الجد.
وأما التصرّف فهو الضحك، وينطوي على عدم التصديق والاستهزاء والسخرية.

ولا يتأخر الرد على هذا الموقف، إذ تقول الآية الكريمة ٦٠ "وتضحكون ولا تبكون". فكان أولى بهم البكاء بدل الضحك، لأن الضحك دليل عدم فهم لحقيقة الأمور، وعدم النظر إليها بجدية، وقد يكون علامة بلاهة وحمق... وأما البكاء، فدليل تصديق، وخوف، وندم، وتقدير للأمور على حقيقتها، وخشية من العقاب... وكل ذلك علامة الإيمان والتقوى.

- وتدلهم الآية الكريمة ٦٢ على طريق النجاة: على مرحلتين: المرحلة الأولى سريعة وفيها دعوة للسجود تمجيداً لله تعالى، وطاعة له، وإعلان للتوبة، وبداية الرجوع الى الله. والمرحلة الثانية: الانصراف الى عبادة الله، عبادة مستمرة غير منقطعة. وبالعبادة تذلك النفس، ويذهب كبرياؤها، وتتخلص من الموبقات، وتستقيم أمورها، وتنجو من غضب الله تعالى وعقابه.

- ٥ -

شرح سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

في أسباب نزول هذه السورة المباركة، يذكر الرواة عن أنس بن مالك، قال: سأل أهل مكة النبي (ص) آية، فانشق القمر بمكّة مرتين، فنزلت: اقتربت الساعة وانشق القمر...

وفي أسباب نزول الآية ٤٥ من هذه السورة المباركة أن المشركين قالوا يوم بدر: نحن جميع منتصر. فنزلت الآية الكريمة: سيهزم الجمع ويولون الدبر...

وفي ذكر ثواب سور القرآن، عن النبي (ص) أن من قرأها فإنها (تخفف) الحمى عن المريض، وتجلب الرزق، وتكون للمؤمن نوراً في قبره وسراجاً الى يوم القيامة، ويبعثه الله ووجهه كالقمر ليلة البدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا
سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ
(٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ
فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)

٢- آية: معجزة عظيمة.
- يعرضوا: ينصرفوا عنها.

٤- مزدجر: رادع.
٥- النذر: التحذيرات.

- في أسباب النزول أن المشركين قالوا لرسول الله (ص): إن كنت صادقاً، فشُقَّ لنا القمر فلقتين. فقال: إن فعلت تؤمنون؟ قالوا: نعم. حصل ذلك في ليلة كان القمر فيها بدراً. فسأل النبي (ص) ربّه أن يعطيه ما قالوا. فانشق القمر فلقتين، ورسول الله (ص) ينادي: يا فلان... اشهدوا. فقالوا: هذا سحر مستمر.

- وتبدأ السورة المباركة (القمر) بالحديث عن انشقاق القمر، وهي معجزة من معجزات النبي الأعظم، أرادها الله تعالى لتأكيد أن ما جاء به النبي (ص) أمر إلهي، وأن نبوته صحيحة، وأنه يقتضي التصديق بها استجابة لدعوة الله تعالى البشرية الى الإيمان، وسلوك الطريق الموصل الى الجنة، وتجنباً للعقاب المترتب على إنكار نبوّات الأنبياء، والتي تعتبر معاداة ليس للأنبياء فقط، بل لله تعالى.

وتبدأ الآية الأولى بالربط ما بين اقتراب يوم القيامة وانشقاق القمر. أما اقتراب الساعة (يوم القيامة) فقد ذكره الله تعالى في عدة أماكن من القرآن الكريم: في سورة النجم الآية ٥٧ "أزفت الآزفة". وفي سورة الحاقة وسورة التكوير، وفي سورة الإنفطار، وفي سورة الغاشية.

ويأتي ذلك على سبيل تحذير الناس من قرب حصول القيامة، ووجوب التوبة والرجوع الى الله تعالى، والنجاة على العقاب.

- والآية الثانية من السورة الكريمة تتحدث عن موقف الكفار من هذا الحدث العظيم الذي يعتبر من أهم آيات الله تعالى للبشر لتصديق النبوات. ولكن الكفّار من قريش والذين تعهّدوا بالإيمان بالنبي (ص) وبرسالته، إذا بهم ينقضون التعّهد، ويستمرون على الكفر. ويتحدث الله تعالى عن هؤلاء كاشفاً حالة نفسية عندهم، لا تشفيها آية، ولا آيات. "وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر."

وهم هنا يكذبون حدثاً جرى أمامهم، ورأته أعينهم، فكذبوا ما تشاهده أعينهم، كما كذّبوا ما وعدوا به من التصديق بالرسالة إذا حصل هذا الانشقاق.

وفي هذا إشارة الى تأصّل الكذب في نفوسهم، وذلك ناتج عن اتبّاع الهوى (واتبعوا أهواءهم)، ولو أنهم فكّروا بعقولهم لكان من الممكن أن تهديهم عقولهم الى غير هذا الموقف.

أما ما كان تأثير ذلك التكذيب على النبي، فإن الآية الكريمة تطمئنه الى أنه مهما استمر تكذيبهم وعدم تصديقهم فإن الأمور سوف تتكشف عن الحقيقة التي تثبت، وتظهر للعيان. وتنتصر في النهاية. وينتهي الكذب، ويزهق الباطل، وتظهر الحقيقة (وكل أمر مستقر).

ويستمر التطمين للنبي (ص) في الآية الرابعة من السورة الكريمة: "ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر" وتعني أن هؤلاء القوم قد استحوذ عليهم الشيطان، ومنهم من التصديق والسعي الى معرفة الحقيقة، ليس لعدم وضوح ما جاءهم من الأنباء: أنباء الأمم السالفة وما كان عقابها لعدم التصديق بالرسالات السماوية، وأنباء ما ينتظرهم من العقاب يوم القيامة. وكان يكفي لكل نبأ من هذه الأنباء أن يكون رادعاً لهم عن الكفر، وارتكاب الآثام، والغرق في الرذائل، والغوص في الضلالات.

- في الآية الخامسة: "حكمة بالغة فما تغني النذر". ونفهم منها أن الاعتبار والعودة الى الصواب قد يكون بإحدى طريقتين:

١- حكمة بالغة.

٢- النذر.

وقوام الحكمة البالغة تصديق بالعقل. والعقل السليم، والمنفتح، والذي يسعى في سبيل الحقيقة لمعرفتها واتباعها تكفيه القناعة بفكرة أو رأي من الآراء أو قول من الأقوال الصحيحة الذي يتحوّل الى حكمة ورويّة، وحالة من الدراية والتعقل، فتبلغ غايتها من الحكمة، وتجعل الإنسان حكيماً عاقلاً مدركاً...

أما النذر فهي أحداث تراها العين، ويدركها الناس بحواسهم، وتحصل في العالم الخارجي، أو في النفس، أو الجسد... ومن ذلك الآيات السماوية والأرضية.

وفي تقدير الآية الكريمة أن الحكمة البالغة هي أكثر تأثيراً وأقوى وأقدر على تصحيح الأوضاع الخاطئة. في حين أن النذر قد لا تفيد في شيء، كمثل ما حصل مع أولئك الكافرين من قريش الذين رأوا النذير، وهو آية انشقاق القمر، مما أفادهم ذلك في تعديل مواقفهم، وتبديل عقيدتهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ
يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى
الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)

٦- شيء نكر: منكر، لا يعرفون عن شيئاً

٧- الأجداث: القبور.

٨- مهطعين: مسرعين.

- عسير: صعب.

- وبعد توضيح ما جرى للنبي (ص) مع أولئك المشركين من قريش، وعدم تصديقهم لآية انشقاق القمر، وثباتهم على الكفر، ينتقل الحديث الى توجيه النبي (ص) الى الطريقة التي يمكن أن يتعامل بها مع هؤلاء الكافرين. فتقول الآية السادسة: "فتولّ عنهم يوم يدعو الداعي الى شيء نكر".

فهذه الآية الكريمة تضرب للنبي (ص) موعداً مع الكافرين يوم القيامة. "يوم يدعو الداعي الى شيء نكر". فالداعي هنا إسرافيل عليه السلام الذي ينفخ في الصور... وهذه النفخة هي الدعوة الى الخروج من القبور، والاستعداد للمحاسبة... وفي هذا اليوم تكون أحداث عظيمة، تملأ النفوس خوفاً ورهبة... وهذا هو الشيء المنكر الذي لا يعرفون عنه شيئاً.

والأمر للنبي من الله تعالى: "فتولّ عنهم". وفيها دعوة الى عدم الاهتمام بهم، ولا بما يحدث لهم، وأن لا تأخذه بهم شفقة ولا رحمة.

- أما كيف تكون حالة هؤلاء عندما يخرجون من القبور، فيقول فيها القرآن الكريم: كأنهم جراد منتشر، في كثرة أعدادهم، وتطاير من مكان الى مكان، وتصادمهم بعضهم ببعض في حالة من الارتباك والحيرة والرعب... ثم: خشّعاً أبصارهم... أي أنه يبدو عليهم الانكسار والذلّ، خوفاً مما هم فيه، وحزناً على ما فاتهم من الإيمان، وفرّطوا به وكذبوه من التصديق بما جاءهم به الرسول (ص).
- وتكمل الآية ٨ تصوير حالة هؤلاء فتقول عنهم: مهطعين الى الداعي. وهذا في تصوير حالهم. فهم يتسابقون الى اسرافيل (ع) وهو الداعي، في محاولة لمعرفة حقيقة الخبر. ولعل هذه السرعة تطمئنهم الى شيء، أو تخفف عنهم بعض ما يجدونه من العذاب والقلق. وهذا فعل من يجهل بما يدور من حوله.

أما الكافرون، وقد رأوا بأم العين ما أخبرهم عنه النبي، وأنذرهم به، وتأكدوا من صدق كل ما جاء به الأنبياء من النذر، وعرفوا أن لا مفرّ منه ولا محيص عنه... يقولون: هذا يوم عسر. وهم يتصورّون ما الذي سيحدث لهم، وقد بدأ عذابهم النفسي قبل أن يبدأ حسابهم...

بسم الله الرحمن الرحيم

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا
رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ
(١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)
وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ
كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)

٩ـ وازدُجر: منع من تأدية الرسالة.
١١ـ منهمر: ينهمر انهماراً، ينصبّ عليهم غزيراً، وبشدّة.
١٢ـ على أمر قد قُدر: تنفيذاً لتقدير الله تعالى.
١٣ـ ذات ألواح ودُسُر: السفينة ودُسُر: مسامير شدّت بها السفينة
١٤ـ تجري بأعيننا: تسير فوق الماء بحفظنا وحراستنا.
١٥ـ مُدَّكر: متذكر، معتبر.

- ثم تبدأ السورة الكريمة بتقديم النماذج والأدلة والبراهين على أحوال أقوام سابقين، كانت حالتهم كحالة هؤلاء الكافرين من قريش. وأول نموذج هو قوم نوح.

وهؤلاء ـ قوم نوح ـ أرسل الله إليهم نوحاً لهدايتهم وإرشادهم، وتخليصهم من الكفر، والعذاب... فما قبلوا منه ما دعاهم إليه، ولا ما نصحهم به، واتهموه بالجنون. ولم يكتفوا بذلك، بل إنهم قد أذاقوه من ألوان العذاب، والشتيمة، والسخرية، ومنعوه من تأدية رسالة ربّه... ولما بلغ به العذاب ما بلغ، وعجز عن متابعة المهمة التي أوكلت إله، لجأ الى ربه يدعوه: "أنّي مغلوب فانتصر" فهل يخذل الله تعالى دعاء رسوله أو يستجيب له؟ بلى؟ يستجيب، يستجيب، وهو القائل: "إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا" سورة غافر الآية ٥٤.

وكيف كانت الاستجابة: بالطوفان الذي أغرق الأرض والكافرين، ونحيّ نوحاً ومن معه في السفينة. وأتى الماء من مصدرين: من السماء: "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر". ومن الأرض: "وفجرنا الأرض عيوناً" والتقى ماء السماء وماء الأرض لتنفيذ أمر الله، فأُغرق الكافرون جميعاً. أما نوح، فقد حملته سفينة صنعها بيديه من الخشب الذي ضمّه الى بعضه، وقوّاه بمسامير قوية. وسارت السفينة تشق عباب الماء، وتحمل ما تحمل، تحرسها عين الله، وتحفظها من كل سوء.

ولماذا كان ذلك؟ ولماذا هذه الاستجابة المدويّة؟ ولماذا كل هذا الانتقام؟ وهل هو فعلاً انتقام؟ وممّن؟ وفي سبيل ماذا؟

كل هذه الأسئلة تجيب عنها الآية الكريمة: "جزاء لمن كان كُفِر". ومعناها أن كل ذلك كان جزاءً لنوح الذي كفر به قومه. وبرسالته. وانتقاماً من القوم المجرمين الذين طغوا وبغوا في البلاد. وأذاقوا الناس المؤمنين ونبيّهم أشد ألوان العذاب، واستهانوا بالله تعالى وبرسالته. وكانوا نموذجاً للفساد... فهم يستحقون مثل هذا العذاب لكفرهم، ثم لتطهير الأرض منهم ومن شرّهم، واستجابة الله تعالى لنداء النبي المعذّب نوح، الذي عانى منهم ما عانى، حتى عجز عن احتمال عذابهم له، وتنكيلهم به، فاستصرخ ربّه قائلاً: "ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا. ربّ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً" سورة نوح الآية ٢٦.

وهكذا كان، وطهّر الله تعالى الأرض من الكافرين... وقد كثر الحديث في القرآن الكريم عن نوح وما جرى له مع قومه...

- وفي الآية ١٥: "ولقد تركناها آية فهل من مدّكر".

وهذا الذي جرى بين نوح وقومه من الآيات الإلهية، والتي يمكن أن يكون فيها أعظم العبر لبني البشر. وهذه الآيات الربانية يمكن أن يسناها الناس مع مرور الأزمنة، ولكن بقاء بعض ما يدل عليها هو مما يذكر الناس بتلك الآيات، وسفينة نوح "استوت على الجودي". أي أنها توقفت بنوح ومن معه في السفينة على جبل الجودي... ونزل من كان فيها الى الأرض، التي عمرت بهم وبذرياتهم من جديد.

والله تعالى يسأل: "فهل من مدّكر". وفي هذا حضّ للناس على أن يتذكروا ما جرى لقوم نوح، وأن يأخذوا منها العبرة. والله تعالى يذكر هذه القضية في أمكنة كثيرة من القرآن الكريم، عندما يريد موعظة الناس، وتذكيرهم بعذابه ونقمته وعقابه... إذا هم خرجوا عن طاعته. وفيها أيضاً "هل من مدّكر" تصوير لشيء في طباع الناس، وهو النسيان، وعدم الاعتبار، حتى لو قرأوا أو تذكروا، أو شاهدوا... وذلك على نحو ما قال في سورة الأعراف الآية ١٤٦: "وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً".

- وهنا يأتي سؤال آخر: "فكيف كان عذابي ونذر". والخطاب هنا موجّه للناس جميعاً بأن كل من سلك مسلك قوم نوح، كان مصيره كمصيرهم.

وهنا يطرح السؤال: هل أن الله ينزل بالكافرين عذاباً على هذه الدرجة من القسوة؟ وكيف يتناسب هذا مع صفة الرحمة التي وصف الله تعالى نفسه بها؟ ومن هنا كان عدم تصديقهم لجميع صور تعذيب الكافرين في نار جهنم يوم القيامة. ومن هنا أيضاً اعتماد الفجّار والكافرين على (الرحمة)، ولذلك فإنهم ينطلقون في الحياة على مداهم، لاهين، لاعبين، فاسدين، مفسدين، مؤوّلين للآيات على ما يخدم هوى في نفوسهم.

وفي السؤال: "فكيف كان عذابي" إصرار على إنزال العقاب بالمجرمين الكافرين.

ثم إذا نظرنا الى ما يلحقونه من الأذية والفساد بهذه المجتمعات، ولما يكونون عليه من إنكار الرسالات السماوية، ورفض الانصياع للأوامر الإلهية، وعدم إطاعة الله في مأ أمرهم به... أفلا يستحق هؤلاء عذاباً شديداً على هذه الأعمال الفاسدة المفسدة؟

ثم إذا كانت الرحمة سوف تطال مثل هؤلاء، وينجون من العذاب، فهل تستقيم عدالة السماء بالمساواة بينهم وبين الأتقياء الذين استجابوا لله ولرسوله، والتزموا بتعاليم السماء، وجاهدوا في سبيل الدين والمجتمعن واجتهدوا في القيام بما فرض الله عليهم... أفلا يشعر هؤلاء بالغبن إذا ما كانوا مع المجرمين الذين تنالهم (الرحمة) على صعدي واحد؟ ثم إن الله تعالى ما كان إلا صادق الوعد، مجازياً للحسنات بالحسنات، وللسيئات بالسيئات...

وفي الآية: "فكيف كان عذابي ونذر، أي (ونذري). وفي هذا إنما يريد الله تعالى أن يسأل: هل وجدتم ما أنذرت به المشركين صدقاً، أم أنه كان تخويفاً لا ينفذ يوم القيامة وحاشى لله أن يعد ولا يفي بوعده. وحاشى له أن ينذر ثم يتراجع عما أنذر به. وحاشى له أن يترك الأرض للمفسدين العابثين الضالين المضلّين... وحاشى له أن يساوي بين المجرم والبريء، وبين المؤمن والكافر، وبين التقيّ والفاجر، وهو القائل: " أفنجعل المسلمين كالمجرمين" (القلم ٣٥). وهو القائل "ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين" الأنعام ١٤٧ ويوسف ١١٠ والفرقان ٢٢ والزخرف ٧٤ والمدثر ٤١...

- وتأتي الآية الكريمة: "ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر"؟

وتعالج هذه الآية الكريمة الموضوع "فهل من مدّكر" مرة ثانية. فبعد أن جاءت هذه العبارة (فهل من مدّكر) بعد الحديث عن نوح مع قومه، وحديث الطوفان، وحضّ الناس على الاذكرا (التذكر)، لتكون الأحداث الكونية الكبرى مصابيح تضيء طريق المهتدين، وعلامات إنذار للضالين الشاردين... إذا به يكرر هذه العبارة من جديد، في الآية ١٧، التي تتحدث عن القرآن الكريم. فتقول: "ولقد يسّرنا القرآن". وهذا التيسير بمعنى أنه جاء بلغة فصيحة،

وبكلام واضح، وبمنهجيّة معروفة في عرض المعلومات بطرق مختلفة، وبأسلوب مشوّق، وبتكرار متنوّع لا يملّ منه، وبأساليب فنية في منتهى الروعة والجمال، وتشابيه، ومقارنات، وتسلسل منطقي، وحوار عقلي... وتوجه الى العاطفة حيناً، والى العقل حيناً آخر، ودعوة الى التفكر، وترك الحرية للإنسان في اتخاذ القرار الذي يريده، والموقف الذي يناسبه، ويبني الحياة على أسس سليمة، ويضع الشريعة السمحة العادلة التي تنظم حياة الفرد والجماعة، ويبيّن الحقوق، والواجبات...

وبعد هذا: (فهل من مدّكر)؟

وفيها ـ كما أشرنا حضّ على الأذكار وأخذ العبرة، وسعي الى النجاة من العقاب، وأن يعيش الإنسان حياته في طمأنينة من العذاب، ويفوز بالجنة يوم الجمع الذي لا ريب فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢)

١٩ـ صرصراً: يسمع لها صوت من شدتها.
٢٠ـ تنزع الناس: تحملهم وترمي بهم
ـ أعجاز نخل: جذوع النخل.
ـ منقعر: مقتلع من قعر الأرض.

- أما النموذج الثاني من الأقوام الذين كذبوا رسلهم فهو نموذج عاد، قوم هود. والواقع أن هذه النماذج التي تذكرها هذه السورة المباركة هي نماذج معروفة، ومشهورة، وقصصهم معروفة أيضاً، وما حل بهم من العذاب والمصير الذي أصابهم لا يخفى على أحد. من هنا جاء الحديث عنهم على مرحلتين: حديثاً عاماً، مختصراً سريعاً (كذبت عاد)، ثم يأتي السؤال: فكيف كان عذابي ونذر؟ والسؤال: (فكيف كان عذابي) لا ينتظر جواباً، وإنما يريد أن يقول إن العذاب كان كبيراً ومؤلماً، وماحقاً، ويقدر الذنب الذي ارتكبوه، ولا تراخي فيه، ولا تهاون بالخطيئة التي ارتكبوها، ولا مداهنة، ولا قبول للأعذار، ولا مسامحة... وفي السؤال تأنيب وتوبيخ...

والسؤال الثاني: وكيف كانت النذر؟ هل كانت تخويفاً فقط، يقف عند حد التخويف، ولا يصل الى التنفيذ؟ وهل كانت لهواً ولعباً، وغير جادّة؟

ثم، ألم تكن نذراً كافية تروع المذنب عن ذنبه؟ وهل أبقت هذه النذر من حجّة يحتجّ بها الكافرون لتعطيل العقوبات المترتبة عليها؟

والواقع أن الحديث عن قوم عاد هنا، وقبله عن قوم نوح، كانت لغاية واضحة، وهي أن يُري الكافرين والمشركين بالله صورة عن العقاب الذي سوف يلحق بهم في حال استمرار مواقفهم على المعصية والتكذيب.

وبعد الحديث العام عمّا أصاب قوم عاد، يأتي تفصيل سريع ومختصر في جملتين، ولكنه يرسم صورة معبّرة ومرعبة عمّا أصابهم في آن معاً. وفي الجملة الأولى: "إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر." وتملأ كلمة (صرصراً) أذنيك، فكأنك الآن تسمع ذلك الصرير المرعب الذي تتوتر منه الأعصاب حتى يكاد السامع أن يفقد عقله مع هذه الصرصرة. وقد حصل ذلك في يوم نحس مستمر، بحيث ان كل لحظة من لحظات ذلك اليوم كانت عقاباً مستمراً، لا يكن، ولا يهدأ... مع ما يصيب الإنسان الذي ينزل به مثل هذا العقاب من انهيار عصبي وألم يفقده الوعي، لا ليموت، ولكن ليصحو بعد اللحظة الأولى من العذاب لتمزقه، وتطحنه، وتعجنه... اللحظة

الجديدة... وتستمر الأمور على تلك الحالة طيلة ذلك اليوم، الذي لا يقاس بالساعات والدقائق، وإنما يقاس بمقدار الذنب الذي استحق المذنب عليه هذا العقاب.

والجملة الثانية ترسم لنا مشهداً لما كانت تفعله تلك الريح بالناس. كانت (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر). فكان الناس يتشبثون بالأرض محاولين أن يخففوا من تأثير هذه الرياح عليهم. وكان الواحد منهم في تشبثه بالأرض يشبه نخلة عظيمة، انغرست في أعماق الأرض حتى وصلت فيها الى القعر (منقعر) العميق العميق، ولكن الريح كانت عظيمة جداً فكانت تنتزعه نزعاً، وتقتلعه اقتلاعاً، وتحطمه تحطيماً، وترمي به جثة هامدة بالية...

ويعود السؤال: فكيف كان عذابي ونذر؟ وعودة السؤال هنا تدل على أمرين:

١ـ على مدى ما وصل إليه غضب الله تعالى على هؤلاء القوم.

٢ـ ثم على مدى الراحة التي يتركها في النفوس عقاب مثل هؤلاء المجرمين، وما يعد به هذا العقاب المؤمنين من راحة البال نتيجة لنصر الله تعالى لهم على أعدائهم من المجرمين الكافرين.

كما تعود النصيحة للناس جميعاً: "ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهم من مدّكر".

فيقول الله تعالى للناس: هذا القرآن عندكم، وبين أيديكم، وفيه تفصيل كل شيء، كما فيه تذكير وعبرة، وموعظة وشريعة، وجواب عن كل سؤال، فلا يقولن أحد منكم: لا أفهمه، ولم أسمعه، ولم أدرسه، ولم يصلني خبره... ويكون السؤوال دائماً: فهم من مدّكر؟ والمراد بهذا السؤال: هل من إنسان ينتفع بالقرآن فينجو من العقاب؟ وهل من إنسان يدرس القرآن فيعرف الصواب؟ وهل من إنسان يطرق أبواب الجنان وفي قلبه القرآن فتفتح له الأبواب؟ وهل من مطيع لله على نحو ما علمّه القرآن فيكون له حسن الثواب؟

بسم الله الرحمن الرحيم

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا
لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ
كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا
مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ
قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى
فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢)

٢٤ـ سُعُر: نار مستعرة، ملتهبة.
٢٥ـ أشر: بطر ومتكبر.
٢٨ـ مُحْتَضَر: يأخذه صاحبه في وقته.
٢٩ـ فتعاطى: ضرب الناقة بسيفه.
ـ فعقر: فقتلها.
٣١ـ كهشيم: كقطع النبات والأشجار.
ـ المحتظر: المقطّع.

- ويأتي النموذج الثالث من نماذج الكفرة الفجرة، وهو نموذج ثمود، قوم النبي صالح عليه السلام.

وهؤلاء القوم أنكروا على صالح النبوة، ولهم في ذلك حجتان:

الحجة الأولى: أبشراً منا واحداً نتبعه؟

إذن فقد انطلقوا من فكرة أن العائلة أو القبيلة، أو المدينة، أو الأمة... على كثرة عددها، لا يمكن أن يكون شخص واحد قادراً على إدارة أمورها، وتدبير مصالحها، وهدايتها الى طريق الصواب. وهم في هذا يجهلون مقام النبي، والتأييد الإلهي الذي يأخذ بيده، ورجاحة العقل، والعلم والصدق، والأمانة، والقوة... التي يمنّ بها الله تعالى كل نبيّ.

ويأتي حكمهم: "إنا إذن لفي ضلال وسُعُر". فاتباع الأنبياء، على ضوء نظرتهم للنبي، وعلى ضوء عاداتهم وتقاليدهم، ومفاهيمهم الاجتماعية... ضلال، ومن يتبع النبي كأنما يرمي نفسه في نار ملتهبة تلتهمه وتقضي عليه، أو كمن يدفع بمجتمعه في نار مستعرة محرقة، يكتوي بها الناس، وتفسد عليهم حياتهم.

والحجة الثانية: أألقي الذكر عليه من بيننا.

وفي هذا تعبير عن مفهوم للنبوّة عند الناس. فكل واحد يرى في نفسه المؤهلات لأن يكون نبياً. وعدم اختياره للنبوّة يثير حفيظته... كما أنهم كانوا يرون أن النبوّة يجب أن تكون في الأغنياء، وذوي الجاه، والملوك،

ورؤساء العشائر... وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الأمر في سورة البقرة في الآية ٢٤٧ في حديثه عن بين إسرائيل: "وقال لهم نبيّهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال." وكذلك في الآية ٣١ من سورة الزخرف: "وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم." وعلى هذا فإن حجتهم الثانية جاءت على أساس أن النبي ليس صاحب مال ولا هو ـ في نظرهم ـ من عظماء قريش، والعظمة عندهم مركز دنيوي لذي مال أو ذي جاه، أو ظالم مستبد جبار، أو طاغية متسلط...

وكانت النتيجة أن اتهموا النبي صالحاً عليه السلام بالكذب.

وقبل أن تكتمل قصة صالح مع قومه جاء الجواب سريعاً في الدفاع عنه: "سيعلمون غداً من الكذاب الأشر". وفيها تبرئة لصالح، وتهديد ووعيد للقوم الذين كذبوه. وتتابع السورة الكريمة الحديث عن قصّة صالح مع قومه فتروي أن صالحاً لم يتراجع عن القيام بواجبه في تأدية الرسالة الإلهية، بل إنه استمر في ذلك، مؤيداً من اله تعالى بمعجزة الناقة.

وتتابع السورة: "إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر" ومعناها أن الاختبار الثاني (فتنة لهم) كان بأن أرسل الله تعالى الناقة. وهي ليست ككل ناقة:

ـ إذ بينت الآية الكريمة أن ماء المدينة قد قسم بين أهل المدينة كطرف أول، وبين الناقة كطرف ثان، فيأخذون ماءهم في يوم، وللناقة ماؤها في اليوم التالي (كل شرب محتضر)، فيحضر كل فريق في اليوم المخصص له، ولا يشاركه الفريق الثاني في حصته. في قصة طويلة...

وكان الناس يحلبون تلك الناقة، فلا يبقى شخص في المدينة لا يشرب من حليبها، ولا ينفد حليبها.

ولم تعجب هذه الحادثة الكافرين، وشعروا بالهزيمة أمام صالح، فأعدوا مؤامرة لقتل الناقة، والانتصار عليه بقتلها.

وتقول الآية: "فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر." ونفهم من هذه الآية أن الحادثة لم تحدث صدفة، وإنما كانوا قد أعدّوا لها بعناية، وعيّنوا واحداً منهم (صاحبهم) ليقوم بقتلها، فنادوه، فاستعدّ لذلك. ثم ضرب الناقة ضربة مؤذية، فانسحبت الناقة وولت تركض، ودخلت في الجبل القريب...

وهنا نحن جميعاً ننتظر أن نعرف ما حصل للقوم نتيجة لذلك. ويأتي السؤال: فكيف كان عذابي ونذر؟ وهذا السؤال يزيدنا شوقاً ورغبة في معرفة ذاك العذاب.

يقول الله تعالى رداً على السؤال: إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة. ونفهم من هذه الآية مقدار الغضب الإلهي على هؤلاء القوم، ومقدار العذاب الذي انصبّ عليهم: صيحة واحدة. وكم تكون الصيحة قوية لتقتل إنساناً، بل لتقتل جميع أهل المدينة؟!

وما كانت النتيجة؟

النتيجة: "فكانوا كهشيم المحتظر" إذن كانوا كالأشجار والأغصان التي يجمعها صاحب الحظيرة ليطعم مواشيه، فيقطع هذه الأغصان ويرميها أرضاً تدوسها الأرجل، ويقضمها كل حيوان من جهة، وتمتزج الأوراق والأغصان والثمار والأزهار بروث الماشية هنا، وبولها هناك، وقد ذهب جمالها، ومات رونقها، وأنتنت رائحتها، وراحت البوم والغربان تنعب في أرضها...

ويهدأ غضب الإله، فيدل الناس على طريق الخلاص: "ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهم مدّكر".

هذا القرآن أمامكم وبين أيديكم: مفهوم كلامه، واضحة معانيه، سهل الحصول عليه، وفيه حديث كل شيء... وهو الملاذ فعودوا إليه.

هذه تذكرة بسبيل النجاة، فهل بينكم أيها الناس من يتذكر (من مدّكر) فينجو من العذاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آَلَ
لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ
شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ
رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)
وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ
(٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠)

٣٤ـ حاصباً: ريحا محمّلة بالحجارة الصغيرة.

٣٦ـ فتماروا بالنذر: جادلوا بما أنذروا به.

٣٧ـ راودوه عن ضيفه: طلبوا منه أن يسلمهم ضيوفه...
فطمسنا أعينهم: أخذنا منها قدرة الإبصار.

٣٨ـ مستقر: ملازم لهم، لا ينكشف.

- أما النموذج الرابع للشعوب التي تجرأت على نبيّها، وكذبته، وآذته، وكادت له... فخلّصه الله من شرورها فهي قوم لوط.

"كذبت قوم لوط بالنذر". وهو هنا لا يفصّل في هذه النذر، إنما يذكر النقمة الإلهية التي انصبت عليهم فأهلكتهم.

وقد كان لوط عليه السلام قد أنذرهم وحذرهم من نقمة الله وعذابه، فدخلوا في جدال عقيم: هل أن هذه النذر جديّة أو هي من باب التخويف فقط.

وللدلالة على صدق النذر، قال الله تعالى: "ولقد أنذرهم بطشتنا" وليس (عذابنا) فقط، والله تعالى جل شأنه هو القائل: "إن بطش ربك لشديد" البروج ١٢. و: "يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون" الدخان الآية ١٦.

أما آخر ما كان من خطاياهم مع نبيّهم أنهم عندما علموا بوجود الملائكة عنده جاؤوه يطلبون منه تسليمهم هؤلاء الملائكة. وكانوا من قبل قد حذروه من التعاطي مع أحد من الناس "أولم ننهك عن العالمين" سورة الحجر ٧٠. ولكنهم ما وصلوا الى هؤلاء الملائكة إذ يقول لله تعالى: "فطمسنا أعينهم" أي جعلهم لا يرون شيئاً مما يدور حولهم. ثم نزل بهم العذاب.

فما كان ذلك العذاب؟ يقول تعالى: "إنا أرسلنا عليهم حاصباً" والحاصب: الريح التي تحمل الحجارة (الحصباء)، فقتلهم جميعاً، ثم دمّر الله تعالى عليهم ديارهم: "جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود" هود ٨٢، والحجر ٧٤.

أما ماذا جرى لآل لوط، فتقول الآية الكريمة: "إلا آل لوط نجيناهم بسحر".

إذن، نجاهم الله تعالى. والناجون هم آل لوط باستثناء زوجته التي كانت تتآمر على زوجها، وتتصل بالأعداء لتخبرهم بكل تحركاته وتصرفاته، وهي التي أخبرت الكفّار بوجود الملائكة عنده... وفي سورة النمل الآية ٥٧: "فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين". وفي تفسير ذلك تقول الآية ١٠ من سورة التحريم: "ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين".

وأما توقيت هلاك آل لوط فقد حددته الملائكة كما ورد في سورة هو الآية ٨١: "قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب". وهذا معنى قوله في الآية الكريمة: "ولقد صبّجهم بكرة عذاب مستقر". واستقرار هذا العذاب معناه أنه لا يتغيّر ولا يتبدل، ولا ينقص ويستمر الى ما شاء الله.

ومن جديد: تثبيت العقاب لمن يعاند، ويخالف، ولا يقبل النذر، ويستهتر بالعذاب ولا يصدّق أنه نازل به إذا هو استمر على مواقفه المخالفة للأنبياء والرسل والشريعة... وكذلك يستمر تحذير كل قوم، في كل زمان، وفي كل مكان من غضب الله، وعدم الالتزام بأوامره ونواهيه. وهذا نفهمه من الآية الكريمة: "فذوقوا عذابي ونذر".

ومن جديد أيضاً تذكر الآية ٤٠ بالقرآن الكريم: "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر".

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ
عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ
(٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ
(٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦)

٤٢ـ فأخذناهم: عاقبناهم.
ـ أخذ عزيز مقتدر: عقاباً شديداً
٤٣ـ الزّبر: في كتب النبيين.
٤٥ـ يولون الدّبر: يهربون متراجعين منهزمين.
٤٦ـ أدهى: أشد سوءاً أو أعظم مصاباً.
ـ وأمر: أشد مرارة.

- ويأتي النموذج الأخير والخامس عن الكفار الذين أرادهم الله عبرةً لم يعتبر عن آل فرعون.

وأكثر الحديث في القرآن الكريم عن الأمم السالفة هو عن فرعو وآل فرعون. ولهذا جاء الحديث عنهم هنا في آيتين اثنتين فقط: تحدد الأولى (الآية ٤١) النموذج الخامس من الكفار الذين صاروا عبرة لكل كافر جبار معتدٍ أثيم: "ولقد جاء آل فرعو النذر"، ولا داعي للإطالة في شرح أحوالهم وما حلّ بهم، فما من إنسان يجهل ما حلّ بهم من عقاب. ولكن هذه الآية تبيّن الأسباب التي استوجبت عقابهم وهي: "كذبوا بآياتنا كلها". وفي هذه الآية ـ وفي كلمة كلّها بالذات ـ أن الآيات التي جاءهم بها موسى كانت كلها عظيمة، وما من واحدة أثّرت فيهم وردعتهم عن غيّهم. أما العقاب فكان: "فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر" وتعني أن العقاب كان شديداً جداً، كما يحصل دوماً عندما يكون المنتقم قوياً وقادراً... يعد أن تمادى خصومه المعاندون في غيّهم وضلالهم، فعاقبهم، وأراد لهم أن يكونوا عبرة لم يعتبر... فإنه يقسو في العقوبة لتكون العبرة أشد تأثيراً في كل من يسلك مسلكهم.

وتأتي الآية الكريمة ٤٣: "أكفاركم خير أم لكم براءة في الزّبر". فيتجه الخطاب مباشرة الى كفّار قريش، ويسأل سؤال المؤنب، والموبخ والساخر منهم جميعاً، والذي يقرر مبدءاً عاماً وهو أن الكافر كافر مهما كان قومه، وموقعه من قومه، وأنه لا ينفعه ماله وغناه وزعامته لقومه، وتصدّره في جماعته...
وقوة هذه الجماعة وكثرة عددها، وأن العقاب سوف يحل به لا محالة كما حلّ بفرعون وجماعته، وبثمود، وعاد و... و... وهذا معنى قوله: أكفاركم خير. وهو سؤال استفهام تعجبي، يثبت أن لا أفضلية لهؤلاء الكفار، وأنه سيكون مصيرهم مشابهاً إن لم يكن أشد. فلا أبو لهب أفضل من فرعون، ولا يستحق أقل مما نال فرعون من العذاب...

والسؤال الثاني في هذه الآية الكريمة: "أم لكم براءة في الزبر". وتعني أن الله تعالى قد أنعم على بعض المؤمنين من الأنبياء والصالحين بالبراءة من النار، ووعدهم بالجنة. جاء ذلك في (الزُّبر) وهي كتب الأنبياء، كما جاء في القرآن الكريم حيث كتبت التبرئة لأتباع بعض الأنبياء من المؤمنين كما في القرآن الكريم حيث كتبت التبرئة لأتباع بعض الأنبياء من المؤمنين كما في سورة آل عمران الآيات ١١٣ ـ ١١٥ والآيات ١٤٦ ـ ١٤٨. والآية ١٩٩. وكذلك جاء في القرآن الكريم عندما يتحدث في سورة الواقعة عن المؤمنين من أصحاب الميمنة الآية ٨، والسابقين الآية ١٠، وأصحاب اليمين الآية ٢٧...

وما من كفّار قريش من كانت له مثل هذه البراءة... فما الذي يعتمدون عليه في إصرارهم على مواقفهم، والكفر بالله وبالرسول، وبالقرآن...؟

- وفي الآية ٤٤: "أم يقولون نحن جميع منتصر".

وهذه أيضاً من الاحتمالات التي قد تكون دخلت في حساب الكفّار. ومعناها أنهم يعوّلون على اجتماعهم في جبهة واحدة للوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، ويرون أنهم باجتماعهم سوف يشكلون قوة عظيمة في عددها، وبأسها، وقوتها، وممارستها للحروب، وما حققه بعضهم على بعض في الجاهلية من انتصارات. وكانت الأحلاف هي التي تساعد في هذه الانتصارات.

ولكن الإسلام لا يقيم وزناً للعدد، ولكنه يعتمد على النوعية، من الرجال الذين استوطن الإيمان قلوبهم، فكانت الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة، كما ورد في سورة البقرة الآية ٢٤٩، وسورة الأنفال الآية ١٦ و ١٩ وآل عمران ١٣ والنساء ٨٨.

وتقرّر الآية الكريمة ٤٥: "سيهزم الجمع ويولون الدبر". وهذا إنباء بالمستقبل، وإعلان لمستقبل الصراع بين المسلمين والمشركين، وتقرير بأن القلة من المؤمنين هي التي تنتصر على الكثرة من المشركين بإذن الله. الأنفال٦٦.

- أما الآية ٤٦ فتقول: "بل الساعة موعدهم والسعة أدهى وأمر."

ففي القسم الأول منها: "بل الساعة موعدهم" لا تعتبر هذه الآية انهزام المشركين ـ برغم تجمعاتهم ـ هو النتيجة النهائية للصراع بين المؤمنين والكافرين، بل إنه انتصار أول، وموعد مع انتصار جديد، وهو يوم القيامة. وهذا هو الانتصار الحقيقي، وكأن الانتصار الأول، على أهميته، وعظمته، ونتائجه الكبيرة لمصلحة المؤمنين، فإنه أقل من

انتصار يوم القيامة. وهو انتصار عظيم، تثبت نتائجه المؤمنين في مواقعهم في الجنة، وتثبت الكافرين في مواقعهم في النار. وفي ذلك اليوم: "وعنت الوجوه للحيّ القيوم وقد خاب من حمل ظلماً" طه ١١١.

وتؤكد هذه الآية الكريمة ٤٦ أن عذاب يوم القيامة دونه أيّ عذاب آخر "أدهى وأمر". كما يشير في القسم الثاني من الآية ٤٥ (ويولون الدبر) الى أن النتيجة لا تكمن فقط في الهزيمة، بل إن هناك أمراً أخر، وهذا الانهزام المدوّي، المتمثل في انكسار هؤلاء الكفار، وانكفائهم عائدين، متراجعين، مشققين في البلاد، يتأكلهم الخوف. ويسيطر عليهم الرعب، ويلزمهم عار العزيمة في الدنيا والآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)

٤٧ـ سُعُر: نار ملتهبة.
٤٨ـ مسَّ سَقَر: ما تكون حالة الإنسان الذي يرمى في سقر (جهنم).
٤٩ـ بقدر: كما هو مقدّر له.

- ويأتي بعد ذلك الحديث عن المجرمين وما يحل بهم يوم القيامة في الآية ٤٧. "إن المجرمين في ظلال وسُعُر".

والمجرمون هنا هم الكافرون والمكذبون للنبي بما جاء به من عند الله. إذن فإن عدم التصديق بما جاء به النبيّون والمرسلون جريمة، ولعلها أفظع الجرائم. وهذه الجريمة أول الكبائر، وعقابها هو الأشد، لأنها إنكار لوجود الله تعالى، وعدم تجاوب مع الإرادة الإلهية التي تبغي أن تقيم دولة الحق والخير والعدالة والسعادة على الأرض، وتهدي الناس الى الطريق المستقيم. وعدم التجاوب مع هذا الأمر ضلال. ومن هنا كانت وصف المجرمين بالضالين (في ضلال). أما ما هو مصير الضالين المكذبين؟ هو نار جهنم طبعاً. وهي أعلى درجات العقاب كما نجد في وصف جهنم في القرآن الكريم... "إن المجرمين في ضلال وسُعُر".

- ثم تصور الآية ٤٨ وجهاً من وجوه العذاب: "يوم يسحبون في النار على وجوههم". وهذه من أوضح الصور التي تصور المهانة التي يلقاها المجرمون في نار جهنم. فهم أولاً يُسحبون سحباً. وقد يكون ذلك بسبب القيود التي تكبل أيديهم وأرجلهم... وحالهم في جهنم مع الملائكة الذين يتولون تعذيبهم كحال الذي يشوي شيئاً في فرن تستعر فيه النار، فتزفر هنا، وتزمجر هناك، وتهدّد وتتوعد... وتشوي الوجوه. لأن المجرمين يسحبون فيها على وجوههم. والوجه يحمل أهم حواس الإنسان وأدقّها، وأكثرها تأثراً بالنار، كالعين والأذن واللسان... والدماغ... وكلها يغطيها ويحميها الجلد. والحالة مع الجلد في جهنم على نحو ما ورد في سورة النساء الآية ٥٦: "كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب".

كل هذه المشاهد تحت إشراف "ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون" سورة التحريم الآية ٦. ويقولون لهؤلاء الكافرين: "ذوقوا مسّ سقر" ومعناها: لتعرفوا باليقين، وبالتجربة العذاب الذي كنا نحدثكم عنه، وتنوعدكم به، وما كنتم تصدقون أنه واقع بكم. وفي هذا شماتة بالكافرين، وتأكيد للنذر الإلهية، وتوبيخ للمنكرين...

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)

٥٠- كلمح بالبصر: كأنها طرفة عين: سريعاً جداً.
٥١- أشياعكم: أتباعكم ومن على شاكلتكم.
٥٢- الزّبر: الكتب.
٥٣- مُسْتَطَر: مسطور، مكتوب.
٥٤- مقعد صدق: في مكان هادئ، مريح لا تشوبه شائبة...

- ثم تأتي الآية ٤٩ في توضيح عدة أمور:

<u>أولها</u>: إنا كل شيء خلقناه بقدر (الآية ٤٩).

ومعناها أن موضوع الخليقة لم يكن متروكاً للصدفة، وإنما جرى ويجري ضمن الإرادة الإلهية، وبمقتضى حسابات دقيقة، تحدد الضرورات والأشكال، والمقادير والأنواع والخصائص والطباع، بحيث لا يمكن أن يولد شيء من تلقاء ذاته، وإنما ضمن ما اقتضته الإرادة الإلهية...

والسؤال: ما علاقة هذه الحقيقة الكونية في الخليقة بموضوع النار، والعقاب والمجرمين؟

ونفهم من تتابع الكلام، وترابطه ضمن سياق واحد أن هذه النار على نحو ما ورد وصفها في القرآن الكريم، جاءت على مقدار ما تقتضي الجرائم المرتكبة من العقاب. وضمن المنهج التربوي والتأديبي والعقابي لمرتكبي الكبار. فهذه العقوبة تتناسب مع حجم الجريمة، ومقدار الأذية التي تلحق بالمجتمع والحياة. والنظام الكوني الإلهي الموضوع لإصلاح الحياة الدنيا، مقدمة لصلاح الآخرة.

<u>والثاني</u>: وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر.

فالمتأمل في هذا الكون والوجود، على عظمته، واتساعه، وتعقيداته وتداخل القضايا فيه، يجعل الإنسان يفكر في أمور كثيرة، ومنها مثلاً: كم يقتضي هذا الخلق من الزمن حتى يكتمل؟ وكم يقتضي حساب الناس يوم القيامة من الوقت؟ وكيف يتم الثواب والعقاب... يحيث يرى الإنسان على مقدرا كبير من الصعوبة" أن يتم ذلك، وكأنما جاءت الآية الكريمة لتبيّن أن هذه الأمور سهلة جداً على الله. إذ قال الله تعالى: "وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر". فما هي هذه الواحدة؟ ولعلّها (كلمة واحدة)، وتتمثل كلمة (كن) كما قال الله تعالى في سورة يس الآية

٨٢: "إنما أمرنا إذا أردنا شيئاً أن نقول له كن فيكون." وهذه الكلمة هي تعبير عن الإرادة الإلهية. وقد شغلت هذه القضية الفلاسفة وعلماء الكلام زمناً طويلاً، وتحدثوا في البحث عن الله تعالى في (الذات) و(الصفات)، وقالوا: إن الصفات عين الذات. وبهذا فالإرادة الإلهية لا تتطلب زمناً حتى تصير نافذة. وهذا معنى قوله تعالى: إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. وهذا لا يتقضي وقتاً، بل هو حاصل بمجرد حصول الإرادة كلمح البصر بل هو أقرب إذ أن لمح البصر يقتضي جزءاً قليلاً جداً من الوقت، في حين أن الإرادة الإلهية أسرع من لمح البصر. والتشبيه ليس لمطابقة بين الحالتين. وإنما لتقريب الفكرة فقط.

والثالث: ولقد أهلكنا أشياعكم فهم من مدّكر.

وهذه الآية تقرر حقيقة تفيد بأن الإنسان مهما كثر ماله وجاهه ومهما ارتفعت مكانته بين قومه. فهذا لا يعني شيئاً، ولا يفيد في شيء إن لم يكن الإنسان مؤمناً، وملتزماً بالشريعة الإلهية.

وقوله: ولقد أهلكنا أشياعكم. ومعناها أمثالكم. وتفيد في أنه كما لم تكن لأمثالكم مكانة خاصّة عندنا، فلاقوا العقاب الذي يستحقونه، فإنه يجب عليكم أن تتذكروا هذه الحقيقة، وأن تنتظروا العقاب الذي يمكن أن يطالكم في آية لحظة. فهم مدّكر: هل تفهمون؟ هل تتذكرون هذا الكلام؟ فلا تنسوه أبداً، ولا تغتّروا بما أنتم فيه.

والرابع: وكل شيء فعلوه في الزبر.

وهذا يعني أن الأمور مرتبة ترتيباً حسناً، ومنظمة تنظيماً دقيقاً، وموثقة توثيقاً كاملاً بحيث لاي بقى من مجال لأنكارها. وهذا يؤكده ما ورد في سورة يونس الآية ١٢١: "إن رسلنا يكتبون ما تمكرون". وفي سورة الزخرف الآية ١٩"ستكتب شهادتهم ويسألون".

والخامس: وكل صغير وكبير مستطر.

فرسل الله يكتبون كل ما يحدث مع الإنسان صغيراً كان أو كبيراً. وذلك على نحو ما ورد في سورة الكهف الآية ٤٩: "ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا."

والسادس: إن المتقين في جنات ونَهَر.

وقد أراد الله تعالى أن يبين المقام العظيم الذي يحتلّه المتقون في الجنة، في مقابل المقام المشؤوم الذي يتعذب فيه الكافرون. فالمتقون في جنات ونَهَر، في مقابل مقام الكافرين: في ضلال وسعر، يسحبون على وجوههم : "ذوقوا مسّ سقر."

والسابع: في مقعد صدق عن مليك مقتدر.

فالكافرون منبوذون، مغضوب عليهم ملعونون... في حين أن المتقين في مقعد صدق، لا تشوبه شائبة، ثابت لا يتزحزحون عنه، ولا يتغير ولا يتبدل وليس فيه باطل، ولا مذلة، بل عزة وسرور وسعادة...

وهكذا كل مكان يختاره الله لعباده المتقين. وهكذا يكون جزاء كل تقيّ ورع.

- ٦ -

شـرح سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ
(٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ
(٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ
(٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ
وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١)
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(١٣)

٤ـ البيان: النطق والكتابة والفهم.
٥ـ بحسبان: يجريان وفق قوانين ثابتة.
٦ـ النجم: هنا: النبات الذي ليس له ساق (وقيل: النجوم).
٧ـ وضع الميزان أمر الناس بالعدل.
١٠ـ الأنام: الناس.
١١ـ ذات الأكمام: الأوعية التي يتكون فيها التمر قبل خروجه منها.
١٢ـ ذو العصف: المخبأ في أوعية رقيقه، كالقمح والعدس وغيرها...
والريحان: النبات ذو الرائحة الطيبة.
١٣ـ آلاء: نِعَم.

- روي عن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق عن آبائه عليهم السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن.

وعن أُبَيْ بن كعب قال: قال رسول الله (ص): من قرأ سورة الرحمن رحم الله ضعفه، وأدى شكر ما أنعم الله عليه.

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله الصادق (ع) قال: لا تدعوا قراءة الرحمن... فإنها لا تقرّ في قلوب المنافقين، وتأتي ربها يوم القيامة في صورة آدمي في أحسن صورة وأطيب ريح، حتى تقف من الله موقفاً لا يكون أحد أقرب الى الله سبحانه منها؛ فيقول لها: من الذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا ويدمن قراءتك؟ فتقول: يارب، فلان وفلان، فتبيّض وجوههم، فيقول لهم: اشفعوا في من أحببتم، فيشفعون، حتى لا يبقى لهم غاية ولا أحد يشفعون له، فيقول لهم: ادخلوا الجنة واسكنوا فيها حيث شئتم.

وعن الصادق أيضاً (ع): يجب أن يقرأ الرجل سورة الرحمن يوم الجمعة. فكلما قرأ (فبأيّ آلاء ربكما تكذبان) قال: لا بشيء من آلائك ياربّ أُكذِّبُ. ومن قرأ هذه السورة أول الليل يقول كل مرة عند قراءته هذه الآية (فبأي آلاء ربكما تكذبان): لا بشيء من آلائك ياربّ أُكذِّبُ، وكل الله به ملكاً يحفظه حتى يصبح. وإن قرأها حين يصبح وكل الله به ملكاً يحفظه حتى يمسي. (عن مجمع البيان في تفسير القرآن).

- تبدأ هذه السورة المباركة بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم). وهذه البسملة في ذاتها آية تصدّرت جميع سور القرآن الكريم (ما عدا سورة براءة). وهي قسم أساسي من كل سورة. ومعناها: أفتتح الكلام أو الحديث باسم الله، وذلك لأسباب منها:

ـ إعلان الولاء لله تعالى، والإيمان به، والاعتقاد بأنّه بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء، وذكر اسم الجلالة هنا هو بمثابة إشهاد الإنسان المتكلم لله تعالى على صدق ما يقول، والالتزام بقول الحق، وطلب من الله تعالى للتسديد والبركة.

ـ وقد ورد في الأحاديث المرويّة عن النبي (ص) والأئمة عليهم السلام، أن في البسملة اسم الله الأعظم.

وفي دعاء السِّمات، يبدأ هذا الدعاء كما يأتي:

اللهم إني أسالك باسمك العظيم الأعظم

الذي إذا دُعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمة انفتحت،

وإذا دعيت به على مغالق أبواب الأرض للفرج انفرجت،

وإذا دعيت به على العسر لليسر تيسّرت،

وإذا دعيت به على الأموات للنشور انتشرت،

وإذا دعيت به على كشف البأساء والضراء انكشفت...

وفي هذا ما يفسّر التزام المؤمن بالبسملة في كل عمل يقدم عليه، وذلك طلباً للتيسير، والعصمة من الشرور، والتبريك، وإعلان الولاء لله تعالى، وتفويضه ليكون ولياً للمؤمن، ومدافعاً عنه، وحامياً، ومسدّداً للصواب في افعاله.

- وفي هذه البسملة دعاء بالرحمة. وقد جاء هذا الوصف بلفظين مختلفين، مشتقين من الرحمة، وهما: الرحمن، والرحيم. والرحمن من أسماء الله الحسنى. وقد ورد في القرآن الكريم (في سورة الإسراء الآية ١١٠) "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى فادعوه بها..."

وقد جاء في كتب التفسير أن هاتين اللفظتين: (الرحمن والرحيم) من صيغ المبالغة. ومنهم من يرى أن الرحمن تعني شمول الرحمة للناس جميعاً من المؤمنين وغير المؤمنين. وأن الرحيم تختصّ بالمؤمنين منهم...

ومما قيل في أهمية البسملة وفوائدها ما قاله الشاعر:

ولو تليت سراً على أكمه غدا ... بصيراً، ومن راووقها يَسْمَعُ الصمُّ

ولو أن ركباً يمموا ترب أرضها ... وفي الركب ملسوع لما ضرّه السمُّ

ولو رسم الراقي حروف اسمها على ... جبين مُصابٍ جُنَّ أبرأه الرسم

وفوق لواء الجيش لو رُقِمَ اسمُها ... لأسكر من تحت اللوا ذلك الرقم.

(والأكمه: الذي ولد أعمى. والراووق: الكأس).

- وبعد البسملة تأتي الآية الثانية من السورة، وهي عبارة عن كلمة واحدة : الرحمن. وقلنا إن (الرحمن) من أسماء الله الحسنى، وهي من صيغ المبالغة، وتعني كثير الرحمة. وفي التفاسير أنها تعني شمول الرحمة للناس جميعاً من المؤمنين وغير المؤمنين

وهنا نرى أن الغاية من هذه السورة الكريمة هي أن الله تعالى أراد أن يذكر خلقه ـ والخطاب هنا موجّه للجن والإنس، وقد سمّاهما الثقلين ـ أن يذكرهما بموقفه منهم جميعاً، هذا الموقف القائم على أساس الرحمة. وهي الرأفة بعباده، والإشفاق عليهم، بتيسير أمورهم، وتأمين حاجياتهم، وكل ما من شأنه أن يحقق لهم السعادة والرفاهية. أما بماذا تتمثل هذه الرحمة من الله لعباده، فإن هذه السورة الكريمة تبين ذلك على نحو سنذكره.

ولا بد لنا من أن نتوقف هنا أيضاً عند قضية أساسية من قضايا الإيمان، وهي القضية المتعلقة بالرغبة الإلهية في أن يتحول الناس جميعاً الى الإيمان بالله تعالى وعبادته، وهي القضية التي من أجلها خلقهم، على نحو ما ورد في سورة الذاريات، الآية ٥٦: " وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون". ولكن موقف المخلوقات من الجن والإنس هو على سبيل الإجمال النكران للنعمة وجحودها، وعدم التصديق بما جاء به الرسل، والميل الى تكذيبهم، وقتلهم، وعبادة الأصنام، كما في قضية لوط مع قومه (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وقضية ابراهيم مع قومه، وكذلك قضية عاد مع هود، وقضية ثمود مع صالح... وما يفسّر العقوبات التي أنزلها الله على هذه الأقوام نتيجة كفرهم بالله، وعدم الإيمان بالأنبياء وما حملوه من وحي السماء لهداية بني البشر. والواقع أن مثل هذه المواقف التي اتخذتها هذه الأقوام هي نكران لنعم الله عليهم، ولدعوته لهم الى الإيمان، وميلهم الى الكفر الذي جعل الله تعالى يغضب عليهم كل ذلك الغضب.

وتستمر الرغبة الإلهية في إنقاذ البشرية، ويستمر بالإنعام عليهم، ويستمرّون بالجحود حتى مع نبينا عليه وعلى آله السلام، في أول العهد بالإسلام. ولا تزال نعم الله تنزل على الإنسان: فخلقه نعمة من الله، تتبعها النعم متوالية دون انقطاع، ويستمر الإنسان في غيّه بالكفر... ومرّة أخرى يريد الله تعالى استنقاذ البشرية من العقاب... وما كانت سورة الرحمن إلا إحدى وسائل الإرشاد والتذكير بالنعم لعل الإنسان ـ والجان أيضاً ـ يثوب الى رشده، فيؤمن بما أنزل الله.

وقبل ذكر أبواب الرحمة الإلهية للإنسان ـ بصورة خاصة ـ فإنه يجب أن نقف عند الآية الأولى ـ بعد البسملة ـ من هذه السورة: الرحمن. فلماذا جاءت وحدها في آية؟ ونحن عندما نقرأها لا بُدَّ لنا من أن نتوقف بعدها قليلاً، وقفة تمنحنا فرصة للتأمل في الآية، وترتسم في أذهاننا صورة للذات الإلهية، فيها من التعظيم، والخشوع، والإجلال، والمهابة... ما يملأ النفس رهبة واستعداداً لمتابعة قراءة السورة في شوق ولهفة، لنتبيّن وجوه هذه

الرحمة، ونقدّر مداها وأهميتها في تحقيق أفضل الأجواء والظروف للإنسان الذي لم يخلقه الله عبثاً "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون" (المؤمنون الآية ١١٥). وإنما خلقه لغاية أرادها الله تعالى، ولذلك فقد كرّمه، وأنعم عليه بتلك النعم، ليكون هذا الإنسان قادراً على القيام بالدور الموكول إليه بين الخليقة. وهذا كله من تكريم الله تعالى للإنسان، كما ورد في قوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" (سورة الإسراء الآية ٧٠). هذا مع الإشارة الى أن الإنسان مسؤول عن هذا التكريم، وتكمن مسؤوليته في تقدير قيمة هذه النعم، والاستفادة منها لخيره وخير الآخرين. وهذه المسؤولية تكمن أيضاً في حتمية الرجوع الى الله تعالى في الآخرة: (وأنكم إلينا لا ترجعون).

- ثم يأتي بعد ذلك تعداد أبواب هذه الرحمة. وأول هذه الأبواب تعليم القرآن. وقد تحدثت السورة عن تعليم القرآن قبل الحديث عن خلق الإنسان. والسؤال هنا: من هو المتعلّم؟ ولماذا هذا التقديم؟

أما المتعلم هنا فقيل إنه رسول الله (ص)، وقيل: إنه جبرائيل، وقيل إن الإنسان هو آدم (ع).

ويمكن أن يكون معنى هذه الآية أن الله تعالى علّم القرآن بما أنه جعل هذا القرآن شريعة الخليقة، ودستور الحياة بالمطلق، فحكى فيها عن عملية الخلق بكل مراحلها، وبكل فصولها. ثم نظم علاقة المخلوقين بعضهم ببعض، وأبان الطرائق والسبل التي تؤدي الى الحياة المثلى للمخلوقين في المرحلة الأولى من مراحل الحياة، وهي مرحلة الحياة الدنيا، والتي تمهّد للفوز بالسعادة في الآخرة، وبيّن للمخلوقين طريق الخير وأمر باتباعه، وطريق الشر، وأمر باجتنابه... وسنّ قوانين الحياة، ووضع الشريعة الإلهية بأدق تفاصيلها، وأعطى تفصيل كل شيء من أمر الحياة والوجود، ومن الأمور الموصلة الى النعيم. وقد ورد في سورة الأنعام قوله تعالى: "ما فرطنا في الكتاب من شيء" (الآية ٣٨)، وبذلك جاءت عملية الخلق متكاملة غير منقوصة. ويتمثل تكاملها في تنظيمها على نحو ما أراد الله تعالى من عملية الخلق من أولها الى آخرها.

أما أن يسبق الحديث عن القرآن الحديث عن خلق الإنسان فأمر طبيعي نظرياً، لأن التنظيم يسبق التنفيذ، هذا مع الإشارة الى أن الإرادة والتنفيذ عند الله تعالى متلازمان، باعتبار ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى في سورة يس: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون" (الآية ٨٢). وكما عند الفلاسفة بقولهم أن (الصفات عين الذات). وهذا من الأبحاث التي شغلت الفلاسفة وعلماء الكلام.

- ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن الخلق، وفي أولها خلق الإنسان. هذا الإنسان الذي خصّه الله تعالى بأمور ما أعطاها لغيره، ويأتي في أوّلها تمييزه عن سائر المخلوقات. ويتمثل هذا في قوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" (سورة الإسراء الآية ٧٠). هذا

التفضيل الذي أشكل على بعض المخلوقات الأخرى من مثل إبليس، فلم يعجبه ذلك. ورفض أن يسجد لآدم عندما أمر الله الملائكة بالسجود له: " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قلا أأسجد لمن خلقت طينا" (الإسراء ٦١). وفي سورة الكهف: "... إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر به" (الآية ٥٠). وفي سورة الحجر: "قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حماٍ مسنون" (الآية ٣٣). مما يجعل مكانه الإنسان في الخليقة مكانة مميّزة.

- ومن جملة أسباب تمييز الإنسان على كثير من بقية المخلوقات هو ما منّ الله تعالى به على الإنسان، عندما [علّمه البيان]. والبيان هنا بمعنى اللغة التي يعبّر بها الإنسان عن مكنونات نفسه، بل إنه التعبير عن مكنونات النفس، هذه المكنونات الناتجة عن التفكير. وهذا التفكير الذي هو التأمل في واقع الإنسان، والبحث عن أفضل السبل لتطوير هذا الواقع وتحسينه. كما أنه الوسيلة للفهم والتفاهم، في عملية خاصة وعامة، فردية وجماعية للوصول بالإنسان الى درجة الكمال، ولو نظرياً، وبما يحقق غاية الإرادة الإلهية من الخلق التي تجعل السعادة في الدار الآخرة والخلود لأصحاب العقول النيّرة، والأفهام البصيرة... وبعد فهم الإرادة الإلهية في الخليقة والأصول التي فرضها الله تعالى لتحقيق هذه الغاية، وبعد فهم قوانين الكون والوجود، والشريعة الإلهية... وهذا مبحث واسع جداً اختصره ـ جلّ شأنه ـ في قوله تعالى: علمه البيان. ونشير هنا الى أن هذا البيان هو منطلق الحضارة الإنسانية كلها...

ثم ينتقل الحديث لتفصيل درجات الخليقة ومراتبها. فبعد الحديث عن خلق الإنسان الذي اختار الله تعالى له الأرض مكاناً لعيشه، وذكر ذلك في القرآن الكريم: "والأرض وضعها للأنام" (الرحمن ١٠). وفي سورة الأعراف: "فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون" الآية ٢٥. كما جعلها مكاناً للحشر، كما في سورة الزمر: "وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين". (الآية ٧٤).

أما الدرجة الثانية من درجات الخلق فهي خلق السموات وما فيها من النجوم والكواكب والأفلاك... فقال: (الشمس والقمر بحسبان). فاختار الشمس والقمر مثالاً على عالم السماء، وهو مليء بالكواكب والنجوم... والمجرّات، وهذه جميعاً يجري عليها ما يجري على الشمس والقمر من النظام الكوني. وسبب اختيار الشمس والقمر أنهما الكوكبان الأقربان، والأشهران، والأظهران للإنسان الذي يفهم عنهما ما لا يفهمه عن سواهما، ولانشغال بني البشر بهما منذ الأزل، ولأنهما يؤثران في حياة الإنسان، فمنهما النور، وبهما يتحدد الليل والنهار، والشهور والسنوات، والفصول... كل ذلك وفق حسابات دقيقة ومحدّدة، ثابتة مع تنوّعها بحسب الأيام والفصول... والغاية

من ذكر الشمس والقمر هنا تذكير الإنسان بأمور منها: عظمة الخلق، وهي تدل على عظمة الخالق، ودقة هذا الخلق، وما فيه من فائدة للإنسان، وهذه الفائدة، وهذا الخلق في حد ذاته من باب الرحمة الإلهية التي أسبغها الله تعالى على الإنسان.

- ومن المخلوقات التي تدل على عظمة الخالق من جهة، وفيها خير للإنسان (النجم والشجر)، والنجم هنا كل نبات ليس له ساق، ويبقى ملتصقاً بالأرض. والنجم والشجر قد جعلهما الله في خدمة الإنسان عن طريق ما تقدمان له من الثمار المتنوعة والمفيدة، والمغذية... وهذه النباتات بنوعيها تسجد لله تعالى خضوعاً للإرادة الإلهية، ولا تمنعهما الفائدة الناتجة عنهما من شكر الخالق والاعتراف له بالربوبية، على نحو ما ورد في سورة الحج من قوله تعالى: "الم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس..." (الآية ١٨). ومثلها في سورة الرعد الآية ١٥، وفي سورة النحل الآية ٤٩.

- ثم يتحوّل الحديث الى مرحلة من مراحل الخليقة، وهي مرحلة خلق السماء (والسماء رفعها)، إذ ورد في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الأنبياء : "ألم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" (الآية ٣٠). وفي سورة النازعات: "أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها..." (الآية ٢٧ و ٢٨). وكذلك في سورة الغاشية، الآية ١٨.

وهذا الرفع للسماء، وفصلها عن الأرض، وتدبير شؤون كل منهما تدبيراً يدل على عظمة الخالق وقدرته... وكل ذلك من باب الرحمة الإلهية للإنسان.

ويرافق رفع السماء وفصلها عن الأرض أمر آخر، وهو (وضع الميزان). فأول خطوة بعد رفع السماء كانت لوضع الميزان. والميزان، بمعناها المطلق آلة (أو آلات) الغاية منها تحقيق العدالة عن طريق تحديد الحقوق والواجبات، وإيجاد توازن وتعادل ما بين هذه الحقوق والواجبات، بحيث لا يطغى طرف على طرف، ويصل كل مخلوق الى حقه، وتبيان قيمة الأشياء بصورة دقيقة، بحيث يصل الأطراف المشتركون في القضية الواحدة الى حقوقهم غير منقوصة. وهذه هي العدالة بعينها. والمقصود هنا تبيان حق الخالق على المخلوقين، وتقدير مدى التزام كل مخلوق بالواجبات الملقاة على عاتقه.

- ثم تنتقل الآية الكريمة (٨) من السورة الى التوصية بأن العدالة تقضي بألا يطغى أحد الطرفين في التعامل على الطرف الآخر، فيبخسه حقه عن طريق الطغيان باستعمال هذا الميزان، بأن يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويعطي الطرف الآخر أقل مما يستحق. وتأتي هذه التوصية حازمة وجازمة، وتحمل في طياتها نوعاً من التحذير القوي الذي يبلغ درجة التهديد والوعيد.

ولأهمية هذا الأمر، فقد جاءت الآية التاسعة من السورة الكريمة لتؤكد أهمية موضوع العدالة في التعاطي بين الأطراف، وفيها: "وأقيموا الوزن بالقسط" في مرحلة أولى، ثم تأتي المرحلة الثانية لتؤكد هذا الأمر من جديد (مرة ثالثة) بقوله تعالى: "ولا تخسروا الميزان". ويأتي هذا كله في سياق العدالة في الخليقة، وهو من باب رحمة الله تعالى للمخلوقين. وقد ورد مثل هذا في سورة المطففين، حيث ورد فيها: "ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون...

- ثم يأتي بعد ذلك موضوع الحديث عن الإنسان بصورة خاصّة، إذ حدّد الله تعالى للإنسان مجال عمله، ونطاق تواجده. فمجاله هو الأرض "والأرض وضعها للأنام"، وكأنما هذه الآية تحدد الغاية من خلق الأرض. وتأتي اللام فيها (للأنام) حاملة معنى التخصيص، أو التمليك، وفيها معنى إباحة استخدام كل ما على الأرض من قبل الإنسان. كما فيها أيضاً معنى تدبير أمور الإنسان في ممارسة حياته، والحصول على حاجاته، وما يعينه على استمرار الحياة. وتأتي هذه الآية بعد آية وضع الميزان لتقول للإنسان أن كل ما يحتاج إليه يجده على هذه الأرض، وعليه أن يسعى في سبيل تأمين تلك الحاجات بنفسه، هو قادر على تأمينها؛ ومن غير المسموح به للحصول عليها أن يتعدى حدوده، ويعتدي على غيره، لا بطريقة مباشرة (بالسرقة والسلب...)، ولا بطريقة غير مباشرة عن طريق عدم إحقاق الحق بالميزان (أن تخسروا الميزان). وفي بعض الروايات أن المراد بالميزان هو القرآن. ويصير المعنى أن الله تعالى قد أنزل القرآن، وفيه الشريعة كلها، فيجب أن نأخذ بما جاء فيه...

- ثم يأتي تفصيل ذلك بعض التفصيل. فهذه الأرض فيها طعام الإنسان من الفاكهة على اختلاف أنواعها، وبصورة خاصة من النخل. وقد ذكر النخل بصورة خاصة لما في ثمارها من فائدة غذائية كبيرة. والإنسان بحاجة الى الحَبِّ الذي يعتبر مادة أساسية في طعام الإنسان. ويأتي هذا الحب عادة في غلافات تحفظه وتحافظ عليه، كما في القمح والشعير والحمص، والعدس، واللوبياء... كما أن في هذه الحبوب، وفي قشورها (العصف) طعام وغذاء للحيوانات التي يستخدمها الإنسان في حياته، استخدامات مختلفة.

وفي الأرض أيضاً الريحان. وهو كل نبات تنبعث منه (من أوراقه أو أزهاره، أو ثماره، أو قشوره...) رائحة ذكية... في ما يجمّل حياة الإنسان، وتؤمن له ما يحتاج إليه في زينته وليس فقط في طعامه وشرابه، فالاستمتاع برياحين الأرض من جملة ما يحقق للإنسان البهجة والسعادة، ويورثه في النفس الانتعاش والطمأنينة، ويحيي قلبه، وينبّه منه الجوارح، فتكتمل السعادة الإنسانية من جميع جوانبها.

وفي هاتين الآيتين من السورة ١١ و١٢، دعوة الى التنبّه الى عظمة الخلق التي تدل على عظمة الخالق، في تكوينها أولاً، وفي ما خصّ الله تعالى به كل واحدة منها بخصائص قد ينفرد بها، أو يشترك بها مع سواه من المخلوقات.

- ثم تأتي بعد ذلك الآية الكريمة التي تتكرّر مراراً في هذه السورة المباركة (٣١ مرة). وهذه الآية: "فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان؟".

ومما يلفت النظر عند هذه الآية أن الخطاب قد تحوّل من صيغة الجمع: ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان... تحول الخطاب الى صيغة المثنى: فبأيّ آلاء ربكما تكذبان؟

أما تفصيل ذلك فهو أن الحديث في الأصل موجه الى فريقين من الخلق هما الإنس والجنّ. وقد أشرنا الى ذلك سابقاً، وتحدّث في البداية عن النوع الأول. الإنسان. وهذا اسم بصيغة المفرد، لأن هذه الكلمة المفردة ينتسب إليها خلق كثير، مثل كلمة الرجل، والفتى، والشاب... وفي قوله تعالى خلق الإنسان، استعمل هذه الكلمة التي تعني النوع كله، ومن هنا أكمل الخطاب للنوع، للإنسانية كل إنسان بقوله تعالى: "ألا تطغوا في الميزان...". وعندما انتهى من تفصيل الحديث عن خلق الإنسان، وانتهى الى الغاية الأساسية من الحديث وهي: فبأيّ آلاء ربكما تكذبان، فقد جمع بين نوعي الخليقة المقصودين بالخطاب. وسيأتي في مرحلة ثانية الحديث عن خلق الجان.

أما المراد بهذا الكلام فهو أن الله تعالى بعدما بيّن خلق الإنسان، وما أنعم به عليه من النعم التي تعتبر من ضرورات المخلوق ليستمر في حياة كريمة، هانئة سعيدة، محترماً وموفور الكرامة، سأل الله تعالى خلقه من الإنس والجن: "فبأيّ آلاء ربكما تكذبان". ومعناها أن الله تعالى قد أنعم على الخلق من الجن والإنس، (وسيأتي الحديث عمّا خصّ الله تعالى به الجن من الطاقات والقوى...) وهذه النعم ـ وقد ذكر بعضها بالإجمال ـ عطاءات من الله عظيمة، وكبيرة، ولها قيمة عظيمة أيضاً لا يخفى على المتأمل فهمها، وإدراك أهميتها.

ومن هنا جاء الخطاب بصيغة الاستفهام. وهو ليس استفهام المخاطب عن شيء يجهله، وإنما هو خطاب فيه ملامة، وتعجب، وإنكار، وعتب، وتوبيخ... أن يكون المخلوقون إما غير مقدّرين لهذه النعم، أو هم جاهلون لقيمتها التي لا تخفى على أحد.

بسم الله الرحمن الرحيم

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦)

١٤ـ صلصال: طين يابس.
١٥ـ مارج: لهب النار الذي لا يخالطه دخان

- في هاتين الآيتين، يجمع الله تعالى بين العنصرين الأساسيين في الخليقة التي جعل الأرض لها قراراً. وهما الإنس والجن. وهذا الجمع ورد في أمكنة مختلفة من القرآن الكريم: في سورة الأنعام الآية ١١٢ و ١٢٨ و ١٣٠. وفي سورة الأعراف الآية ٣٨ و ١٧٩. والإسراء ٨٨، والنمل ١٧، وفصلت ٢٥ والأحقاف ١٨. والذاريات ٥٦، وسورة الجن ٥. كما وردت في القرآن الكريم قصة خصومة إبليس (وكان من الجن سورة الكهف الآية ٥٠) لآدم أبي البشر. كما تحدّث القرآن الكريم عن إغواء إبليس لآدم وحواء حتى أخرجهما من الجنة، وأخرجه الله تعالى هو الآخر من الجنة، وجعل الأرض مستقراً للإنس والجن معاً (سورة الأعراف الآية ١٣، وسورة طه الآية ١٢٣، وسورة البقرة ٣٦ و ٣٨) ومن هنا كانت نبوّة النبي محمد (ص) للإنس والجن، كما ورد في سورة الجن.

ولا نجد هنا بداً من التذكير بأن هذه السورة (الرحمن)، تتوجه الى الجن والإنس لتذكيرهما بالنعم التي أنعم الله بها عليهما، وفيها حضّ على الدخول في الإيمان حتى لا يستحقا العقاب الذي توعّد الله تعالى به المعاندين والجاحدين من الجن والإنس.

وتتحدث الآية ١٤ عن خلق الإنسان. أما المادة التي خلق منها الإنسان فهي (صلصال كالفخار). والصلصال هي الطين الجاف (كالفخار).

ومثل هذا الحديث عن خلق الإنسان ورد في سورة الحجر: "ولقد خلقنا الإنسان من حمإٍ مسنون" الآيات ٢٦ و ٢٨ و٣٣. والحمأ: الطين، ومسنون تعني: المُصَوّر. ونفهم من هذا أن خلق الإنسان مرّ بمرحلتين. المرحلة الأولى جرى فيها تصوير الإنسان، بمعنى أنه أعطي في هذه المرحلة الشكل الذي أراد الله أن يخلقه عليه. فجاءت هذه الصورة في أجمل شكل، كما ورد في الآية الكريمة من سورة التين: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم". ويعني: في أحسن صورة. ثم جاءت المرحلة الثانية من مراحل الخلق، وهي عندما نفخ الله تعالى في تلك الصورة من روحه. وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه المرحلة في سورة السجدة، وفيها: "ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه" الآية

٩. وفي سورة الحجر، في الآية ٢٩: "فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين". وكذلك في سورة ص، الآية ٧٢.

ولا نجد بُداً هنا من الحديث عن أن خلق الإنسان قد جاء على النحو الذي أراده الله تعالى عندما قال: "ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم." وخلق الإنسان على هذه لاصورة هو من باب تكريم الإنسان التي وردت في آية ٧٠ من سورة الإسراء: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً". وهذا التكريم هو تفضيل للإنسان على كثير من غيره من مخلوقات الله. ولعلّ من بين المفضولين كان إبليس، الذي اعترض على هذا التكريم، وتمثّل اعتراضه بعدم السجود لآدم، ومخالفة الإرادة الإلهية في ذلك، على نحو ما ورد في الآيات ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و٣١ من سورة الحجر: "وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون. فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين". وهذا التفضيل لآدم على الملائكة أدى الى اعتراض الملائكة عليه (التفضيل). فقد ورد في سورة البقرة الآيات ٣٠ ـ ٣٤: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون..." ومن أسباب هذا التفضيل لآدم هو أن الله تعالى جعل آدم "خليفة في الأرض". ولسبب آخر، وهو أن الله تعالى قد خصّ آدم بعلوم لم يعطها لغيره، كما يتمثل ذلك في الآيتين ٣١ و ٣٢ من سورة البقرة: "وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون".

ويبقى أن نشير الى أن الله خلق إبليس قبل أن يخلق آدم. وهذا ظاهر من الآية الكريمة: "والجانّ خلقنان من قبل من نار السموم" (الحجر ٢٧).

كما نشير أيضاً الى أن هذا التفضيل لآدم أدى، ليس فقط الى اعتراض إبليس على الإرادة الإلهية، وإعلان الحرب على آدم وذريته... كما سنرى. بل كان اعتراضه لسبب آخر يتعلق بالمادة التي خلق منها إبليس وهي النار.

- أما الآية ١٥ فتتحدث عن خلق الجان: "وخلق الجان من مارج من نار". والمارج لهب النار الذي لا يخالطه دخان.

وهنا نجد أنفسنا مضطرين للحديث عن عناصر الوجود. وهي أربعة: الماء والهواء والتراب والنار. ويطرح إبليس هذا الأمر، كما ورد في سورة الأعراف الآية ١٢، عندما سأل الله تعالى إبليس عن سبب عدم سجوده لآدم كما أمره: قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين." ومثلها في سورة ص الآية ٧٦. وفي سورة الحجر: "قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون".

ويفترض إبليس أن المادة التي خلق منها، وهي النار (من مارج من نار) هي أفضل من عنصر التراب الذي خلق الله تعالى منه آدم.

أما الماء فقد جعله الله تعالى أساس الخلق، كما ورد في سورة الأنبياء في الآية ٣٠: "وجعلنا من الماء كل شيء حي." وفي سورة النور، الآية ٤٥: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير."

وهذه الآية تقتضي أن نبدي ملاحظتين: الأولى أنها تشير الى خلق الحيوانات على اختلاف أنواعها من الزواحف والطيور والماشية...

والثانية: عدم تقييد الخلق بأيّ قيد. ويخضع هذا الخلق للمشيئة الإلهية التي تحدد مادة الخلق، وشكل المخلوق... وكذلك في سورة القصص الآية ٦٨.

ويبقى أن نشير الى قوله تعالى في سورة المرسلات، الآية ٢٠: "ألم نخلقكم من ماء مهين". وفي سورة غافر ورد قوله تعالى: "هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة..." الآية ٦٧.

وفي هذا ما يدل على أن بعض الآيات تدل على الخلق الأول في مادته وشكله... وهناك آيات أخرى تصوّر عملية الخلق المتجدّد المتتابع عبر الزمن، كخلق الإنسان (من ماء مهين ـ أي من النطفة...) وكذلك الحيوان، وخلق النابات من البذور، وغير ذلك.

كما نشير الى أن موقف إبليس من آدم، وغوايته له هو الذي أدى الى خصومة ما بين الإنسان والجن. هذه الخصومة القائمة دوماً، ولا تنتهي إلا بانتهاء هذه الحياة الدنيا.

- وبعد أن بيّن الله تعالى كيف خلق الإنسانه والجانّ، وتحدّث عن ذلك بالإجمال، إلا أن هذا الإجمال هو في حدّ ذاته دعوة الى التفكر في خلق الإنسان والجان، لاكتشاف النعم التي أنعم الله بها عليهما، سواء في الشكل أو في الأعضاء، وتركيب كل واحد من هذه الأعضاء، ودوره في حياة الإنسان، والتصوّر لما تكون عليه حالة المخلوق لو حرمه الله تعالى من العقل، أو البصر، أو السمع... هذا بالإضافة الى ميزات خاصّة اختصّ الله تعالى بها كل مخلوق، وميّزه بها عن سواه. والقرآن الكريم يكشف لنا هذه الأمور في كل مكان من سوره وآياته، ويدعو الإنسان للتأمل في هذه النعم التي أنعم الله بها على خلقه. ومن هنا: "فبأي آلاء ربكما تكذبان"؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)

١٧ـ المشرقين والمغربين: أمكنة شروق الشمس وغروبها. أو أمكنة شروق وغروب كل من الشمس والقمر.

- ويستمر الحديث الإلهي الى الإنس والجن بتبيان عظمة الله تعالى جلّ شأنه، وقدراته، وكل ذلك من باب الحديث عن النعم التي أنعم الله تعالى بها على خلقه.

في هذا المقطع يشير الحديث الإلهي الى ظاهرة من الظواهر الطبيعية المتأتية عن دورة الفلك الناتجة عن حركة الشمس والقمر، فيتحدث عن مشرقين ومغربين، ويعني بالآية الكريمة " رب المشرقين ورب المغربين" أنهما (المشرقين والمغربين) قد خلقهما الله تعالى، ودبّر أمور خلق الشمس والقمر والأرض بطريقة خاصة نتج عنها هذان المشرقان وهذان المغربان. وإذا نحن نظرنا الى دورة الأرض حول الشمس، والى دورة الأرض حول محورها في آن معاً، نجد أنه من دورة الأرض حول الشمس تتولد الفصول. وتبدّل هذه الفصول يؤدي إلى تبدّل المشرق والمغرب حتى أن المراقب لهذه العملية يجد أن الشمس في الصيف تشرق من أفق معيّن هو غير الأفق الذي تشرق منه في الشتاء. وهنا يأتي الكلام على اعتبار أن السنة تقسم الى فصلين: الصيف والشتاء، وإن كان هذان المشرقان وهذان المغربان لا يتحولان فجأة وبسرعة، وإنما يحدثان بمرور الأيام، فيتحقق في كل يوم جزء من هذا التحوّل.

هذا، ونجد أن القرآن الكريم يتحدث عن (المشارق والمغارب) في سورة الأعراف الآية ١٣٧: "وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها". وفي سورة الصافات: "ربّ السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق". وفي سورة المعارج: "فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون" الآية٤٠"

ونخلص من هذا كله الى أن الله يشير هنا الى حركة الأرض حول الشمس، وحول محورها، وما يتبع ذلك من اختلاف وتعدّد المشرق والمغرب، وأحياناً المشارق والمغارب، وكل ذلك بحسب تدبير إلهي عظيم، متقن تمام الإتقان، وفيه فائدة للإنسان. إذ أنه لو افترضنا أن فصلاً واحداً سيطر على الأرض لما كان هناك أثر للحياة عليها. وكذلك لو سيطر عليها ليل دائم أو نهار دائم لكان في ذلك عذاب للإنسان، وانعدام لوجود الخليقة على الأرض. قال تعالى في سورة القصص: "قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل

تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" الآيات ٧١، ٧٢، ٧٣.

وبعد التذكير بموضوع المشرقين والمغربين الذي يرمز الى خلق عالم السماء بما فيها من كواكب ونجوم رتبت في هذه الفضاءات الرحبة الواسعة ترتيباً عظيماً، في غاية الدقة والإتقان، بعد هذا التذكير تأتي الآية الكريمة: "فبأي آلاء ربكما تكذبان". وكما قلنا سابقاً فإن في هذه الآية دعوة الى التأمل في خلق الله، والتدبّر، والتفكير، وتقدير آلاء الله التي أنعم بها على خلقه. كما أن فيها حثاً على التفكير في أمر الخليقة، وتحذيراً من الجحود وإنكار فضل الله على المخلوقين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ
آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)

١٩- مرج: أرسل أو خلط. والبحران هما المياه العذبة والمياه المالحة.
٢٠- برزخ: هنا حاجز.
لا يبغيان: لا يطغى أحدهما على الآخر، يبقى كل منهما على حاله.
٢١- الجواري: السفن التي تجري

- ويستمر في هذا المقطع الجديد تذكير الله تعالى لخلقه بمخلوقاته، وبعض ما تحمله هذه المخلوقات من العِبَر، ويطلب من خلقه (الإنس والجن) التأمل والتفكر بما أنعم الله تعالى به من النعم عليهما.

وتتحدث الآيتان الكريمتان عن ظاهرة من الظواهر الكونية، والتي تقوم على قوانين إلهية بها تستقيم الحياة على الوجه الذي أراده الله تعالى. والظاهرة هي في قوله: "مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان". وفي التفاسير أن البحرين هما: المياه العذبة (البحر الأول) والمياه المالحة (البحر الثاني). وهذان البحران (لايبغيان) اي لا يطغى أحدهما على الآخر، أي لا يمتزجان. وفي الطبيعة نستطيع أن نجد تطبيقاً لهذه القاعدة في أماكن كثيرة من الأرض، وعند التقاء المياه العذبة (مياه الأنهار)، بالمياه المالحة (مياه البحر)، فإن نهر المياه العذبة الذي يصب في البحر يندفع مسافة كبيرة في البحر، وتحافظ المياه الحلوة على طعمها دون أن تؤثر فيها ملوحة مياه البحر. ومثل ذلك وجود ينابيع مياه حلوة في وسط البحر أحياناً، تحافظ على حلاوتها، ويعرفها الملاحون وصيادو الأسماك، ويحددون مواقعها، ويقصدون إليها ليأخذوا منها ماءً حلوة يشربونها. ثم إن بعض القنوات الفضائية قد عرضت صوراً لمياه في مجرى واحد، من مصدرين مختلفين، أحدهما حلو، والآخر مالح، ولون الواحد منهما يختلف عن الآخر، ولا حاجز بينهما، ويحافظ كل منهما على وضعه فلا يبغي أحدهما على الآخر. وقد شاهدنا هذه الحالة بأم العين. وكانت الغاية من عرض هذه المشاهد التعريف بظاهرة من ظواهر الكون العجيبة.

- ثم تأتي بعد عرض هذه الظاهرة الكونية التي هي أثر من آثار قدرة الله تعالى وعظمته وإرادته، تأتي الآية: "فبأيّ آلاء ربكما تكذبان"؟!

أما التفسير العلمي لهذه الظاهرة فيكون بالعودة الى ما يسمى بالكثافة Densité أو الثقل النوعي للأشياء Poids spécifique. فلكل جسم كثافة، وإذا كان هناك جسمان بكثافتين في وعاء واحد فإنهما لا يختلطان، كما في حالة الزيت والماء مثلاُ...

وأما المفارقة التي تنتج عن ذلك أن كلاً من البحر ذي المياه والحلوة، والبحر ذي المياه المالحة يخرج منه لؤلؤ ومرجان. والمعروف عند الناس أن المخلوقات التي تعيش وتنمو في المياه الحلوة لا تعيش ولا تنمو في المياه المالحة. والعكس أيضاً. إلا أن اللؤلؤ والمرجان يعيشان وينموان في المكانين. وهذا أيضاً من نعم الله تعالى على الإنسان، هذه النعم التي لا يمكن إنكارها وتكذيبها، وهي تدل على تدبير إلهي فيه فائدة للخلق.

ومتابعة للحديث عن المياه والبحار تتحدث الآية الكريمة ٢٤ من سورة الرحمن عن ظاهرة أخرى من ظواهر الخليقة العظيمة والتي يستفيد منها الخلق فائدة عظيمة جداً، وهي البواخر التي تسير على وجه الماء. وهذه البواخر الكبيرة التي تبدو كل واحدة منها بناء عظيماً (المنشآت) وهي تطفو على وجه الماء، ولا تغرق في تلك البحار، حتى تبدو كأنها الجبال التي تطفو على وجه الماء (كالأعلام). وهي تستقر على هذا المبدأ بإرادة الله تعالى، وهو خالق الريح التي تسيّر هذه البواخر. وقد أشار القرآن الكريم في سورة الشورى (الآيتان ٣٢ و ٣٣) الى ذلك، فقال: "ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام. إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور.".

أما فائدة السفن في النقل فهي كبيرة جداً، بحيث لا تستطيع أية وسيلة من وسائل النقل الأخرى أن تقوم مقامها. من هنا أهميتها للإنسان.

وأما المبدأ الذي تقوم عليه هذه الظاهرة الكونية كما أرادها الله تعالى فهي ـ كما يقول علماء الفيزياء ـ أن الجسم الذي يلقى في الماء، يتلقى دفعاً من أسفل الى أعلى يعادل وزن الماء الذي حلّ الجسم محلّه. وهذا من المبادئ الكونية التي تستحق التفكير والتأمل. وهنا تتكرر الآية الكريمة: "فبأيّ آلاء ربكما تكذبان"؟!

ونشير هنا أخيراً الى ما يأتي: وهو أن بعض الآيات القرآنية تحمل معاني ظاهرة، ومعاني باطنة تعرف بالتأويل كما أشار القرآن الكريم: "قل لا يعلم تأويله وتفسيره إلا الله" سورة آل عمران، الآية ٧. ونحن نتعرض في دراستنا هذه الى المعاني الظاهرة دون الباطنة، ليس عن عدم تصديق بالتأويل، وإنما لما يمكن أن يكون الموقف من هذا التأويل الذي لا يأخذ به الكثيرون.

بسم الله الرحمن الرحيم

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ
(٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ
فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)

١٩ـ مرج: أرسل أو خلط. والبحران هما المياه العذبة والمياه المالحة.

٢٠ـ برزخ: هنا حاجز.

لا يبغيان: لا يطغى أحدهما على الآخر، يبقى كل منهما على حاله.

٢١ـ الجواري: السفن التي تجري على الماء. والمنشآت: القائمة كالبناء. كالأعلام: كأنها الجبال.

- ويستمر في هذا المقطع الجديد تذكير الله تعالى لخلقه بمخلوقاته، وبعض ما تحمله هذه المخلوقات من العِبَر، ويطلب من خلقه (الإنس والجن) التأمل والتفكر بما أنعم الله تعالى به من النعم عليهما.

وتتحدث الآيتان الكريمتان عن ظاهرة من الظواهر الكونية، والتي تقوم على قوانين إلهية بها تستقيم الحياة على الوجه الذي أراده الله تعالى. والظاهرة هي في قوله: "مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان". وفي التفاسير أن البحرين هما: المياه العذبة (البحر الأول) والمياه المالحة (البحر الثاني). وهذان البحران (لايبغيان) اي لا يطغى أحدهما على الآخر، أي لا يمتزجان. وفي الطبيعة نستطيع أن نجد تطبيقاً لهذه القاعدة في أماكن كثيرة من الأرض، وعند التقاء المياه العذبة (مياه الأنهار)، بالمياه المالحة (مياه البحر).

فإن نهر المياه العذبة الذي يصب في البحر يندفع مسافة كبيرة في البحر، وتحافظ المياه الحلوة على طعمها دون أن تؤثر فيها ملوحة مياه البحر. ومثل ذلك وجود ينابيع مياه حلوة في وسط البحر أحياناً، تحافظ على حلاوتها، ويعرفها الملاحون وصيادو الأسماك، ويحددون مواقعها، ويقصدون إليها ليأخذوا منها ماءً حلوة يشربونها. ثم إن بعض القنوات الفضائية قد عرضت صوراً لمياه في مجرى واحد، من مصدرين مختلفين، أحدهما حلو، والآخر مالح، ولون الواحد منهما يختلف عن الآخر، ولا حاجز بينهما، ويحافظ كل منهما على وضعه فلا يبغي أحدهما على الآخر. وقد شاهدنا هذه الحالة بأم العين. وكانت الغاية من عرض هذه المشاهد التعريف بظاهرة من ظواهر الكون العجيبة.

ثم تأتي بعد عرض هذه الظاهرة الكونية التي هي أثر من آثار قدرة الله تعالى وعظمته وإرادته، تأتي الآية: "فبأيّ آلاء ربكما تكذبان"؟!

أما التفسير العلمي لهذه الظاهرة فيكون بالعودة الى ما يسمى بالكثافة Densité أو الثقل النوعي للأشياء Poids spécifique. فلكل جسم كثافة، وإذا كان هناك جسمان بكثافتين في وعاء واحد فإنهما لا يختلطان، كما في حالة الزيت والماء مثلاُ...

وأما المفارقة التي تنتج عن ذلك أن كلاً من البحر ذي المياه والحلوة، والبحر ذي المياه المالحة يخرج منه لؤلؤ ومرجان. والمعروف عند الناس أن المخلوقات التي تعيش وتنمو في المياه الحلوة لا تعيش ولا تنمو في المياه المالحة. والعكس أيضاً. إلا أن اللؤلؤ والمرجان يعيشان وينموان في المكانين. وهذا أيضاً من نعم الله تعالى على الإنسان، هذه النعم التي لا يمكن إنكارها وتكذيبها، وهي تدل على تدبير إلهي فيه فائدة للخلق.

ومتابعة للحديث عن المياه والبحار تتحدث الآية الكريمة ٢٤ من سورة الرحمن عن ظاهرة أخرى من ظواهر الخليقة العظيمة والتي يستفيد منها الخلق فائدة عظيمة جداً، وهي البواخر التي تسير على وجه الماء. وهذه البواخر الكبيرة التي تبدو كل واحدة منها بناء عظيماً (المنشآت) وهي تطفو على وجه الماء، ولا تغرق في تلك البحار، حتى تبدو كأنها الجبال التي تطفو على وجه الماء (كالأعلام). وهي تستقر على هذا المبدأ بإرادة الله تعالى، وهو خالق الريح التي تسيّر هذه البواخر. وقد أشار القرآن الكريم في سورة الشورى (الآيتان ٣٢ و ٣٣) الى ذلك، فقال: "ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام. إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور.".

أما فائدة السفن في النقل فهي كبيرة جداً، بحيث لا تستطيع أية وسيلة من وسائل النقل الأخرى أن تقوم مقامها. من هنا أهميتها للإنسان.

وأما المبدأ الذي تقوم عليه هذه الظاهرة الكونية كما أرادها الله تعالى فهي ـ كما يقول علماء الفيزياء ـ أن الجسم الذي يلقى في الماء، يتلقى دفعاً من أسفل الى أعلى يعادل وزن الماء الذي حلّ الجسم محلّه. وهذا من المبادئ الكونية التي تستحق التفكير والتأمل. وهنا تتكرر الآية الكريمة: "فبأيّ آلاء ربكما تكذبان"؟!

ونشير هنا أخيراً الى ما يأتي: وهو أن بعض الآيات القرآنية تحمل معاني ظاهرة، ومعاني باطنة تعرف بالتأويل كما أشار القرآن الكريم: "قل لا يعلم تأويله وتفسيره إلا الله" سورة آل عمران، الآية ٧. ونحن نتعرض في دراستنا هذه الى المعاني الظاهرة دون الباطنة، ليس عن عدم تصديق بالتأويل، وإنما لما يمكن أن يكون الموقف من هذا التأويل الذي لا يأخذ به الكثيرون..

بسم الله الرحمن الرحيم

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)

- وهنا نرى أن أسلوب الحديث يتغيّر بشكل ملفت للنظر، ولا شك أن ذلك كان لغاية مقصودة. فبعد أن كان الحديث يدور حول دعوة الإنسان الى التأمل في خلق الله، وأخذ العبرة منها، والانصراف الى العبادة، وتأدية الله حقه في مقابل النعم التي أنعم بها على الإنسان، كل ذلك في شيء من الحض على التأمل في هذه النعم، وبالتالي القيام بالواجب المترتب على الإنسان تجاه ربه، والذي كان الإنسان يستبدله بالجحود، ومن هنا كانت اللهجة العاتبة لله تعالى على الإنسان.

ثم يتطور أسلوب الحديث الإلهي ليواجه الإنسان بحقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها، وهي التذكير بالمصير المحتوم المعروف وهو أن كل ما على الأرض يفنى، والله وحده هو الباقي جل شأنه.

و (كل من عليها فان) فيها خطاب للإنسان (من تستعمل للعاقل). والخطاب موجه الى كل إنسان، فصار معنى الخطاب: مصيرك أنت أيها الإنسان الى فناء. والمراد بذلك: أنك سوف تترك هذه الدنيا والأهل، والمال، والولد، والثروة، والجاه...ولا ينفعك شيء من هذا كله. ومعناها أيضاً أنك ستقف بين يدي الله تعالى للحساب، وسوف يكون هذا الحساب شديداً، وعسيراً، ودقيقاً... بحيث أنك لا يمكن أن تتهرب من أعمالك، وسوف تجازى على كل عمل قمت به... والكفر، وجحود نعمة الله عليك هو من الكبائر التي تورد صاحبها الى النار، وسيحقّ عليك العقاب. هذا العقاب الذي فصّل القرآن الكريم بعض صوره... فإذا مرّت مثل هذه الأفكار في عقل الإنسان فقد يكون فيها فائدة بردّه الى الصواب عن طريق التأمل والتفكير في ما أعطاه الله من الخيرات، وسخّر له من الخليقة، وأنعم عليه من النعم...

وينتقل الكلام مباشرة وسريعاً الى الحديث عن الله تعالى. فالله وحده هو الباقي، وهو المنتصر دائماً، وهو المحاسب والمعاقب والمنتقم والجبار، والقادر، والقاهر... كما وصف نفسه تعالى، ومن كان هذا شأنه فإنه قادر على أن ينزل من ألوان العقاب على خصمه، وما لا يستطيع الخصم دفعه عنه، أو اتقاء أذاه.

وصيغة هذا الخطاب: (ويبقى وجه ربك). وهذه من أساليب البلاغة العربية، ومن باب تسمية الكل باسم الجزء. والمقصود بها: يبقى ربك. وليس المراد بهذا الكلام التشخيص أو التجسيد، فالله تعالى (ليس كمثله شيء) ولا يحدّه مكان ولا زمان...

ويصف الله تعالى نفسه فهو " ذو الجلال والإكرام". أما جلاله فهو رفعته، وقدرته، وعظمة شأنه، وتعاليه، وعزّته، ومنعته... فلا يؤثر فيه ما يصيب الناس، وما من أحد فوقه، فهو غير مسؤول عن أفعاله "لا يسأل عما يعمل وهم يسألون" سورة الأنبياء ٢٣، وسبأ ٢٥.

إما إكرامه فهو إكرامه لمخلوقاته ممن يستحق هذا الإكرام من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. أو لعله أشار الى معنى ما ورد في الآية الكريمة: "ولقد كرمنا بني آدم..." الإسراء ٧٠. فيصير التكريم هنا تذكيراً للإنسان بفضل الله تعالى عليه، إذ خلقه في أحسن صورة، وأعطاه من العقل والإدراك والطاقات... وغرس فيه من السجايا والصفات ما يمتاز به على سائر المخلوقين. ومثل هذا الإكرام يستوجب على الإنسان شكر نعمة الله تعالى عليه.

"فبأيّ آلاء ربكما تكذبان" أي أنْ لا مجال بعد لإنكار النعم وجحودها...

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ٢٩ـ شان: حال

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)

• وبعد الحديث عن ذات الله تعالى ووصفه بـ "ذو الجلال والإكرام"، ينتقل الحديث الى علاقة المخلوقات بالله تعالى خالقهم، فهم جميعاً يسألونه. والسؤال هنا بمعناه المطلق، وتعني أن هذه المخلوقات جميعها تطلب حاجاتها من الله، وتدعوه أن يستجيب دعاءها، ويحقق مطالبها. أما هذا التعميم "من في السموات والأرض" فيقتضي توضيحه. وهي هنا مثل قوله تعالى: "ولله يسجد من في السموات والأرض..." الآية ١٨ من سورة الحج. ويسأل القارئ: كيف يكون هذا السجود؟ ولعل في الآية الكريمة: "تسبح له السموات والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً" (الإسراء ٤٤)، ما يفيدنا في فهم هذه الآيات الكريمة. ومنها نستنتج أن هناك علاقة قائمة بين الله والمخلوقات ـ جميع المخلوقات ـ وعدم فهم الإنسان لهذه العلاقة، وعدم فهمه لتسبيح الأشياء لله، وعدم فهم الإنسان للطريقة التي تسأل بها بعض المخلوقات ربّها فإنه لا ينفي أن يكون هناك سؤال، وأن تكون هناك استجابة.

أما ذكر هذا الموضوع هنا فغايته الإشارة الى أن الخليقة كلها لا تستغني عن الله، وهو مرجعية هذه الخليقة. وإليه السؤال، ومنه الطلب. في حين أنه غني عنهم جميعاً. كما في سورة الأنعام: "وربك الغني ذو الرحمة" الآية ١٣٣، وسورة البقرة الآية ٢٦٣، وسورة آل عمران الآية ٩٧ وسورة يونس الآية ٦٨... والدليل العملي على سؤال الإنسان لربّه، أن هذا الإنسان، حتى لو كان ملحداً، فإنه في ساعة العسرة يتوجّه الى المنقذ الذي هو الله تعالى يطلب منه ويسأله الفرج، حتى لو لم يذكر الله تعالى بلفظه... وهذا تلبية للفطرة التي فطر الله الناس عليها. كما في سورة الأنعام الآية ٦٣ وسورة النمل الآية ٦٣ وسورة لقمان الآية ٣٢.

أما "كل يوم هو في شان"، فمعناها أن إدارة شؤون الخليقة عملية مستمرة دائمة بحيث أن الكون لا يستقر على حالة واحدة، وإنما هناك متغيّرات دائمة من الأمر والنهي والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع... وهذه الأمور كلها منوطة بالله تعالى، وفي كل يوم يحصل في الكون ـ بإرادة الله ـ تغييرات كثيرة. فلا يبقى الكون كله على حالة واحدة، أو صورة واحدة دائمة ثابتة، وإن كانت القواعد الأساسية في الخليقة ثابتة لا تتغير إلا بمشيئة الله.

"فبأيّ آلاء ربكما تكذبان"، ويستفاد منها هنا أن هذه الصفة من صفات الله هي لمصلحة الإنسان، ومن باب رحمته له. فعندما يقترف الإنسان ذنباً يغضب الله عليه. فإذا تاب فإنه يعفو عنه. ومن مثل هذا ما جاء في سورة الرعد الآية ٣٩ من قوله تعالى: "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب." أفلا تستحق هذا المعاملة من الله للإنسان حمداً وشكراً للخالق على نعمته هذه ؟!.

بسم الله الرحمن الرحيم

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠)

٣١- الثقلان: الجن والإنس.
٣٣- أن تنفذوا: أن تهربوا وتخرجوا.
بسلطان: بقوة من الله، وبقدرته.
٣٥- شواظ: لهب خالص لا دخان فيه.

- وينتقل الحديث في هذا المقطع الى اتخاذ موقف من المكذبين، وغير المقدّرين للنعم الإلهية والمكذبين لها. ويتدرج هذا الموقف من التهديد والوعيد الى تحدي الثقلين (الإنس والجن) بأنه ما من أحد يستطيع أن يخرج عن مشيئة الله ويهرب من عقابه، ثم الى العقاب الذي ينال هؤلاء الكافرين، ثم يتحدث عن يوم القيامة وحالة كلٍ من الثقلين في ذلك اليوم...

١- أما الموقف من الثقلين فهو في الآية الكريمة: "سنفرغ لكم أيها الثقلان"، ومعناها أنه نتيجة لكفر الإنسان والجان (الثقلين) بالأنبياء وما جاؤوا به من الرسالات السماوية في ما يشبه التمرّد على الإرادة الإلهية، وعدم التأمل في الخليقة ليأخذوا منها العِبَر على تلك النعم الإلهية... والتي كان الله تعالى يقابلها بالحلم منه، وبالاستمرار في نشر الرسالة السماوية عن طريق الأنبياء، فهو هنا يتوعد الثقلين بأنه سيفرغ لهما. والمعنى المراد هنا أنه سيلجأ الى معاقبة الكافرين والمكذّبين، وسيثبت لهما (للثقلين) قدرته على العقاب، وعجزهما عن الهرب منه (من العقاب). (الآيتان ٣١ و ٣٢).

٢- وينتقل الله تعالى مخاطباً الثقلين: "يا معشر الجن والإنس". أما سبب تسمية الإنس والجن بالثقلين فقد وردت في كتب المفسّرين أقوال كثيرة، ومنها أن الإنس والجن هما المخلوقان الأساسيّان بين سائر الخلائق. وأن الله تعالى قد ميزهما بالعقل والتفكير، وبهذا كانت لهما تلك المكانة بين المخلوقات. ولعلّ هذه الميزة هي التي جعلت كلاً من هذين المخلوقين يتيه بنفسه، ويطغى ويتجبّر، ويستخدم عقله في الجدل والنقاش الذي لا فائدة فيه، والذي أطمعه في

أن يشكك في رسالات الأنبياء، وما جاء به المرسلون، ثم أن يتطاول على ما ليس له شأن فيه كاستراق السمع، والظن بأنه يعلم أخبار السماء والأرض... وأن ينجو من العقاب.

٣ـ أما التحدي فيتمثل في قوله تعالى: "يا معشر الجن والإنس إن استطعتم..." (الآية ٣٣). والمراد بهذه الآية هو إطلاع الثقلين على حقيقة ثابتة، وهي أن الكون كله بما فيه من صنع الله تعالى، وفي قبضته، ويعمل بإرادته، ولا يخرج أي شيء في هذا الكون عن إرادته، ولا يستطيع أن يهرب من عقابه. ويتمثل هذا الكون بالأرض والسماء، (أو السموات...) ولا إمكانية لأحد من المخلوقات أن يخرج عن سلطته وإرادته. والتحدي: "إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا..." والجملة هنا: إن استطعتم، تحمل معنى التعجيز، والقول بأن هذا الهروب مستحيل. وتترك الآية الكريمة هذا الأمر (أن تنفذوا) الخروج عن نطاق السلطة الإلهية، تتركه مفتوحاً أمام التجربة. إن استطعتم أن تنفذوا فانفذوا، يعني أن هذا الاختراق والتمرد إذا كان ممكناً فاستفيدوا منه بالهروب الى مكان لا يقع تحت سلطة الله تعالى، وينجيكم من عقابه. ولكن الله تعالى يعود الى تأكيد استحالة حصول هذا الخرق. لأنه ما من أمر يتم في ملكوت الله تعالى (الأرض والسماء) إلا هو منوط بإرادته وتدبيره "لا تنفذون إلا بسلطان". وبهذا تكون هذه الآية الكريمة قد سدّت كل باب من أبواب التفكير بالإفلات من العقاب الإلهي.

وهنا تأتي الآية الكريمة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وتعتبر هذه الآية هنا أن إحكام القبضة على الخليقة بهذا الأسلوب الإلهي وما فيه من النعم هو الأسلوب الأفضل، ذلك أن نعم الله تعالى على الإنسان لا تُعدّ ولا تُحصى... ثم إن فيه من الفائدة الكبيرة للثقلين أن تقطع أي تسلط يأتي من خارج فيفسد عليهما حياتهما، وتجعل الكون كله خاضعاً لسلطة واحدة، وشريعة واحدة لا تعديل فيها ولا تبديل...

٤ـ أما العقاب الذي يلقاه الهاربون والمحاولون للخروج عن الإرادة الإلهية فهو: "يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران" (الآية ٣٥). وهنا يذهب بنا الفكر الى سورة المرسلات، وفيها: "ويل يومئذٍ للمكذبين. انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشررٍ كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين". (الآيات ٢٨ ـ ٣٤).

والحديث هنا عن نار جهنم وما يلقاه فيها المكذبون. والمشترك بين السورتين هو ذلك الشرر العظيم (كأنه جمالت صفر)، والذي هو في سورة الرحمن: (شواظ من نار ونحاس).

والمكان الثاني الذي يذهب إليه الفكر هنا أيضاً فهو في سورة الحجر: "إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب ثاقب" الآية ١٨. وفي سورة الصافات: "إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب" (الآية ١٠). وفي سورة الجن: "فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً" الآية ٩. "و "وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً" سورة الجن (الآية ٨).

ومن النظر في مجموع هذه الآيات نجد أن من أنواع العقاب الإلهي للمخالفين والمعاندين من الإنس والجن، وللجن الذين كانوا يسّمعون الى الملإ الأعلى ـ أن يقذفوا (بشواظ من نار ونحاس). وأمام هذا العقاب الكبير لا يمكن لكل من الثقلين، أولهما معاً أن يتجاوزا حدود ما رسمه الله لهما، أو بالأحرى ما تمت عليه السيطرة الإلهية سيطرة تامة في أساس خلقه.

ولمّا كانت النتيجة معروفة وثابتة، فلا يستطيع أي مخلوق أن ينفذ من أقطار السموات والأرض، فهنا تأتي الآية الكريمة: "فبأي آلاء ربكما تكذبان".

٥ـ ثم يأتي بعد ذلك التحذير للثقلين معاً. وفي هذا التحذير نوع من الطلب الضمني، وهو أن يسارع كل منهما الى الإيمان، والاعتقاد بالشريعة الإلهية، وبما أنزل الله، وهذا وحده يحقق النجاة من العقاب. ويجب أن يكون هذا الإيمان في الحياة الدنيا، لأن المخلوق الذي يتوب الى الله خوفاً من العقاب، عندما يرى هذا العقاب ماثلاً أمامه يوم القيامة، فإنه لا يقبل منه إيمان ولا توبة.

ويعبّر عن يوم القيامة بتقديم مشهد من مشاهد ذلك اليوم، وهو: "فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان"، ويعني أن السماء انشقت، فبدت على صورة غير ما كان يراه الإنسان في الحياة الدنيا، هي صورة الوردة الحمراء المرسومة رسماً، بذلك اللون الأحمر الشديد الحمرة الذي يبعث في نفس الإنسان شعوراً بالرهبة والخوف لا يوصف، حتى كان الإنسان يحسب نفسه في نار تحيط به من أعلى ومن أسفل ومن كل جانب.

وأمام هذا المشهد لا يعود هناك مجال لاستجواب المكذّبين والمعاندين، ولا مجال للنظر في أقوالهم. فقد ثبت لهم العقاب الذي لا بدّ منه.

وفي سورة الأنعام: "ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون" الآيتان ٢٧ و٢٨. وفي سورة الأنعام أيضاً (الآية ٣١): " قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون". وعلى هذا لا يعود مجال للسؤال عن أسباب ارتكاب الذنوب والآثام.

ويعود السؤال المتكرر: "فبأي آلاء ربكما تكذبان".

بسم الله الرحمن الرحيم

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ
(٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٤٥)

٤١- بسيماهم: بعلامات ظاهرة على وجوههم.
يؤخذ بالنواصي والأقدام: يمسك بها، ويجرّون الى النار. والنواصي: مقدمة شعر الرأس.
٤٤- حميم: ماء حار. آنٍ: شديد الحرارة.

- بعد وصف مشهد السماء يوم القيامة التي انشقت فكانت وردة كالدهان، ومشهد المجرمين الذين أصابهم الهلع من أهوال يوم القيامة، وانقطع أي أمل عندهم في مراجعة الحساب، وثبتت عليهم الإدانة... فإذا هم في حالة من الجزع والخوف الذي لا يخفى على من يشاهدهم، وهو ظاهر على وجوههم "يعرف المجرمون بسيماهم". وهذه العلامات من الخوف والهلع هي التي تسهّل على الملائكة المكلفين بهم أن يميّزوا هؤلاء المجرمين بتلك السِّمات التي تظهر على وجوههم، فيقبضون عليهم. ولكن كيف يجري ذلك؟ "فيؤخذ بالنواصي والأقدام" أي أن الملائكة تجرّ هؤلاء الى مصيرهم، فتأخذ بعضهم بالنواصي، أي تمسك الواحد منهم بشعر رأسه وتسحبه الى النار. وتأخذ القسم الثاني فتجرّه من قدميه... وترمي الجميع في النار. "فبأي آلاء ربكما تكذبان"؟ ومثل ذلك مذكور في سورة محمد (ص) الآية ٢٧.

وتحمل هذه الآية هنا معنى أن ذكر ما يحدث للمجرمين يوم القيامة هو من باب التحذير حتى يسارع كل واحد منهم الى التوبة، وتعويض ما وقع فيه من الأخطاء حتى لا يلقى مثل هذا المصير. وهذا من باب الرأفة بالعباد والرحمة لهم.

- ثم يسترسل النص في وصف جهنم (التي يكذب بها المجرمون) فيذكر صورة ثانية من صور العذاب الذي ينتظرهم فيقول: (يطوفون بينها وبين حميم آن). فيذكر مرحلتين من مراحل العقاب: الأولى: أن يرمى بتلك النار الملتهبة فيلقى من العذاب ما يلقى؛ ويسعى عندها للتخفيف مما أصابه من حر تلك النار، فيفتش عن شربة ماء تخفف عنه ذاك الاضطرام في جوفه، فيركض الى الماء، فيجده في أعلى درجات الحرارة، فينتقل من عذاب إلى عذاب أشد. "فبأي آلاء ركما تكذبان؟" أفلا ترون أن التنبيه من مثل هذا العقاب والتحذير منه هو من النعم الإلهية التي قد لا يعرف الناس أهميتها؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧)
ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ
تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ
زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ
بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا
جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ
الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١)

٤٨- أفنان: جمع فَنَن. وهو غصن الشجر.

٥٤- استبرق: نوع من الثياب المصنوعة من الحرير (الديباج).
جنى: ثمار. دان: متدلية وقريبة من أهل الجنة.

٥٦- قاصرات الطرف: الحور العين اللواتي لا ينظرن إلا الى أزواجهن.
لم يطمثهن... لم يتزوجهن (لا من الجن ولا من الإنس) غير أزواجهن.

- من المعروف أن الأسلوب المعتمد في القرآن الكريم في الدعوة الى الإيمان يقوم على أسلوب الترهيب والترغيب. فالترهيب هو تصوير ما يلقاه الإنسان من العقاب إذا هو لم يستجب الى دعوة الإيمان والالتزام بالشريعة، بكل ما جاء فيها، وما يكون مصيره يوم القيامة، ثم تصوير ما يواجهه من الأهوال يوم القيامة. والترغيب هو في المقابل تصوير النعيم الذي يصير إليه المؤمن، وخيرات الجنة التي تحيط به في كل مكان، والمكافآت العظيمة التي يحصل عليها المصدّقون بالوحي، والمؤمنون بالدين، والمجاهدون في سبيله، والمطيعون لله، والعابدون والمخلصون في أعمالهم وفي تعاملهم مع الله والخليقة على نحو ما جاء به الأنبياء والمرسلون...

وقد يستعمل كلاً من هذين الأسلوبين وحده، أو قد يجمع بين الأسلوبين، فتقدّم صورة لأهل النار، ومقابلها صورة لأهل الجنة، بحيث يستطيع الإنسان أن يقارن بين مصير المؤمن ومصير الكافر بناء على صورتين متقابلتين واضحتين تمام الوضوح، فيسهل عليه الاختيار...

وفي سورة الرحمن المباركة اعتمد هذا الاسلوب: أسلوب الترغيب والترهيب. فبعد أن قدمت هذه السورة مشهداً من مشاهد عقاب المجرمين يوم القيامة، ينتقل النص الى تقديم صورة لما يلقاه المؤمنون من الاحترام والتقدير، والمكافآت التي يحصلون عليها من كل نوع.

- ويصور النص الجنة التي خصصت للمؤمنين، ويقدم مشاهد منها: ويكنّي عن المؤمن بـ (من خاف مقام ربّه). والمشهد الأول هو أن هذه الجنة تأتي على درجتين (جنتان). ومجرّد دخول الجنة والخلاص من النار نعمة من أعظم النعم. فهل بَعْدُ من نعمة أكبر من هذه النعمة؟ (فبأيّ آلاء ربكما تكذبان؟).

ثم يأتي وصف هاتين الجنتين:

ـ ذواتا أفنان (فيهما أشجار عالية، أغصانها دانية (متدلية) وهي محملة بالثمار الطيبة التي تتدلى على المؤمن بحسب إرادته، فيقطف من ثمارها ما شاء. (وهذه نعمة عظيمة لا يمكن تكذيبها).

ـ فيهما عينان تجريان بالماء الزلال أو العسل، أو اللبن... وهاتان العينان تجريان بمعنى أنّ ما فيها لا يأسن (لا يفسد) ولا يتغيّر طعمه، ولا ينضب... (وهذه أيضاً نعمة عظيمة لا يمكن تكذيبها).

ـ فيهما من كل فاكهة زوجان. فأصناف الفاكهة متنوعة. ومع هذا التنوّع، هناك مجال للاختيار بين صنفين من النوع الواحد. (وهذه أيضاً نعمة عظيمة...). (ومن كل شيء خلقنا زوجين. الذاريات ٤٩).

ـ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق. وهنا يصور النعيم الذي فيه أهل الجنة: فهم متكئون على فرش... فهم في راحة تامة، لا يتعبون فيها (متكئون). وجلوسهم على فرش وثيرة، ومصنوعة أجود صناعة، وبأفضل المواد التي يحلم بها الإنسان (إستبرق). في حدائق عجيبة، حيث تدنو الأشجار بثمارها من المؤمن، فلا يتكلف عناء قطف تلك الثمار وغسلها... وليس إلا أن يأخذها فيأكلها. (وهذه أيضاً نعمة من أجمل وأكبر النعم).

ـ وفي كل من هاتين الجنتين ما لا تتم السعادة بدونه وهو الجنس الآخر. وفي القرآن الكريم في سورة البقرة الآية ٢٥: "لهم فيها أزواج مطهرة..." وكذلك في سورة آل عمران الآية ١٥. وفي سورة النبأ الآية ٨. ويتحدث النص عن مواصفات هذا الجنس الآخر (النساء) لأن النص في مجمله يتوجه الى الرجل (المذكر). وفي مواصفات هؤلاء النساء:

أ ـ قاصرات الطرف: وهو هنا يريد أن يصف المرأة بالإخلاص التام لزوجها، فهي له، ولا تفكر في سواه، ولا تنظر الى غيره. وهذا من أهم ما يطلبه الرجل في المرأة.

ب ـ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان: ويعني بذلك أنهنّ أبكار لم يزوجن من قبل لا من الجن ولا من الإنس. وفي سورة الواقعة الآية ٣٦: "فجعلناهن أبكاراً. عُرُباً أتراباً. لأصحاب اليمين.".

ج - ولتبيان جمالهن قال: كأنهن الياقوت والمرجان. فصوّرهن بأحسن صورة، وأعزها على قلب الرجل الذي يعتبر الياقوت والمرجان من الكنوز التي تسعده وتفرحه، فلا يفرّط فيها، ولا يستغني عنها.

وهذه أيضاً نعمة...

- ثم ينتقل بعد ذلك الى تبيان السبب الذي جعل الله تعالى يغدق هذه النعم على الناس، ويكرّمهم كل هذا التكريم، ويقدم لهم كل هذه المكافآت. ويأتي الجواب: "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟". والاستفهام هنا (السؤال) تقريري، بمعنى أنه ليس سؤالاً ينتظر الجواب عنه، وإنما هو تقرير لمبدأ أن الخير بالخير، والإحسان بالإحسان. وهذه هي أصول التعامل بقدسية، وشهامة، وإخلاص. فالمؤمن قد أحسن لربّه، فبادله الله الإحسان بإحسان أعظم، وهكذا يكون إحسان الكريم والقويّ والغني والقادر والعطوف والرؤوف والرحيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣)
مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ
وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ
حِسَانٌ (٧٠ (فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي
الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ
قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ
عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٧٧)

٦٢ـ من دونهما: يأتي بعدهما جنتان...
٦٤ـ مدهامتان: شديدتا الخضرة.
٦٦ـ نضاختان: يتفور ماؤهما دون انقطاع.
٧٠ـ خيرات حسان: نساء ذوات وجوه حسنة، وأخلاق خيّرة.
٧٢ـ مقصورات في الخيام: مخدّرات في بيوتهن المصنوعة من اللؤلؤ.
٧٦ـ رفرف خضر: فرش مرتفعة لونها أخضر.
عبقري: بُسُط، سجّاد. حسان: مزركشة.

- وبعد أن يبيّن الله تعالى عن المكافآت التي ينالها المؤمن الذي يؤمن بالله ورسالاته وأنبيائه ورسله، بقوله تعالى: ولمن خاف مقام ربّه جنتان، وتحدّث عن هاتين الجنتين وما فيهما من نعم يستمتع بها المؤمن... أكمل في هذا المقطع من السورة الحديث عن جنتين أُخريين تليان هاتين الجنتين، ويبدو أن هاتين الجنتين تمتازان على الجنتين السابقتين بما فيهما من الأشجار والنباتات الخضراء (مدهامتان). وهذا تعبير عن كثرة أشجار هاتين الجنتين الثانيتين، وعن أنهما أكثر نموّاً، وأشدّ اخضراراً، وهما بالتالي ألطف منظراً، وأجمل أزهاراً، وألذ فاكهة... وهما من النعم التي تستحق الشكر والثناء على المنعم الكريم، ومن كانت عطاياه على هذا المقدار من الجلال والعظمة، والإكرام للوافدين عليه، كانت أقواله جديرة بالتصديق، ودعواته صحيحة، ومواعيده صادقة، وهو إله يستحق العبادة، ولا يملك الإنسان المؤمن الذي يناله كل هذا التكريم إلا أن يشكر نعمة الله عليه، هذه النعمة العظيمة الواسعة، وردّ هذه النعم وعدم الإقبال عليها، والسعي للاستمتاع بها يكون من الغباء، وعمى البصيرة، وعدم جدارة بكل هذا التكريم.

أما صفات هاتين الجنتين فهما:

١ـ <u>مدهامتان</u>: وتعني أنها أكثر خيراتٍ وأكثر ثماراً وبركات... ولا يملك المؤمن إلا أن يشكر الخالق عليها.

٢ـ فيهما عينان نضاختان: ومعنى ذلك أن في كل عين من هاتين العينين نبع ينبع منها، وينطلق بخيراتها ليصل الى الجنتين السابقتين، ويمكن الى غيرهما أيضاً... ووجود هاتين العينين من النعم التي تستحق الثناء والشكر.

٣ـ فيهما فاكهة ونخل ورمان: وهنا تحدّث عما في هاتين الجنتين فقال: فيهما فاكهة. ونفهم بذلك أن فيهما من الفاكهة أنواع كثيرة. ولكنها ـ على ما يبدو ـ هذه الفاكهة هنا أكثر تنوّعاً، وأحسن منظراً، وأزكى طعاماً... وأتى ذلك كله على سبيل الإجمال. ثم أتبع هذا الإجمال ففصّل شيئاً عن أنواع هذه الفاكهة. وهذا التفصيل يأتي على سبيل التخصيص. وهذا التخصيص معناه: فيهما فاكهة أطيب وأشهى، وأزكى... وبخاصّة أن فيهما نخلاً ورماناً، على اعتبار أن فاكهة النخل والرمان من أطيب الفواكه وأكثرها نفعاً للإنسان.

ونحن نلاحظ هنا أننا كلما تقدمنا في قراءة الآيات الكريمة التي تتحدث عن نعم الله تعالى على الإنسان، وجدنا أن النعمة تتعاظم نوعاً، وشكلاً، وثماراً، وفائدة، بحيث أن بذل هذه النعم لا ينتهي، وعددها يزداد، وبازديادها وتنوعها وتطوّرها دليل على ازدياد تكريم المؤمن. فهل يمكن للمستفيد من هذه النعم ألا يشكر المنعم عليها؟

٤ـ فيهن خيرات حسان: فبعد أن تحدث بالتفصيل عن خيرات تلك الجنان وما فيها من النعم ـ وكل ذلك كان من باب تشويق المؤمن الى الجنة، والإيمان والإخلاص لله، إذا بهذه الآية الكريمة تفيد أن هذه النعم لا تنتهي، وأنّ هناك نعماً وخيرات أخرى. ولم يسمّ هذه الخيرات، وإنما وصفها هنا وصفاً عاماً مشوّقاً، فقال عنها إنها خيرات حسان. أما ما هو الحسن فيها فلم يذكره، وترك للقاريء أو السامع أن يفكر بكل شيء حسن وجميل، يفوق في حسنه وجماله ما سبق أن رآه، وشاهده، وسمع عنه، وهو يعرف أن المحسن الذي أحسن إليه بكل تلك النعم المتقدمة، لا بد أن يكون ما ستره من النعم أجمل، وأحسن، وأسنى، وأعظم.

وكلها نعم تستحق شكر المنعم عليها، وتحث الذي استفاد منها على أن يتمسك بها بانتظار مكافآت أكبر. ونِعَم أجلّ.

٥ـ حور مقصورات في الخيام: وعاد هنا يذكر شيئاً من النعم التي سبق ذكرها، وهي من النعم التي يستمتع بها المؤمن في الجنتين السابقتين. وهي الحور العين ويمكن أن نحسب هذه الحور المقصورات في الخيام من الخيرات الحسان، وهي تفصيل من تفاصيل الخيرات الحسان، ولكنها ـ على ما يبدو ـ هنا تفوق ما تقدم من (قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) بدليل ذكر شيء من جمالهن المتمثل بالحَوَر. والحَوَرُ لغة معناه بياض شديد في بياض العين، أو سواد في سوادها. وهي عيون واسعة في منتهى الجمال حتى أنها تصرع العاشقين على قول الشاعر:

إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ … قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به … وهن أضعف خلق الله إنسانا

فكيف بحوريات الجنة اللواتي اجتمعت فيهن صفات خيّرة من جمال الشكل، وحسن الأخلاق والصفات الحميدة وتخلقت بأخلاق الإسلام؛ وهن مقصورات في الخيام: أيّ أن الواحدة منهن متفرغة لزوجها، مخلصة في حبه، ولا يميل قلبها الى سواه. وهي هنا تقرّ في بيتها ولا تخرج منه، فلا تلفحها الشمس، ولا يسودّ وجهها، ولا يتجعّد، بل تراها بيضاء على حمرة كاللؤلؤ المكنون. فهل من تكريم ومكافأة للمؤمن بأفضل من هذا التكريم؟

ثم يتابع النص الحديث عن هؤلاء الحوريات فهنّ أبكار حسان لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان، وهذه منية الرجال قبل كل شيء.

هذه الحوريات مرفهّات في الجنة، وهن على أحسن حال، وأجمل شكل، وألطف مقام، (متكئين على رفرف خضر) أي فرش وثيرة، مرتفعة، ناعمة... وكل ذلك من دلالات الرفاهية. وهذه الفرش هي أيضاً خضراء اللون، فكل ما حولهن متأثر بألوان تلك الجنان الخضراء شديدة الخضرة (مدهامتان). وتحت هذه الفرش (بُسُطٌ) قطع من السجاد المزركش الجميل المنظر، الناعم الملمس... وتشعر وأنت تتابع أوصاف تلك (الخيام) بأنك منغمس في جو السعادة، وفي جمالات الجنة، وألوانها التي تسحر الألباب، فما فيها شيء غير جميل: فإنسانها جميل رائع، ونباتها كذلك، وأثاثها، وأجواؤها كلها نعيم في نعيم: وأنتم يا معشر الجن والإنس أفلا تعدّان ذلك كله من النعم الإلهية، وتنكرونها؟ فكيف يحصل ذلك، إلا أن يكون من اختص بهذه الجمالات جاحداً؟ ثم أفلا تكفيكم كل هذه الوعود حتى تقبلوا على الأعمال التي تجعلكم من أهلها؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)

٧٨ـ تبارك: عَظَم، وجلّ شأنه.
ذي الجلال والإكرام: ذي العظمة والكبرياء.

- وتنتهي السورة الكريمة بالآية الكريمة: تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام.

وكأن هذه الآية تأتي على لسان المؤمن، كل مؤمن صدق إيمانه ورأى ما وعده الله تعالى، أو تمثّله في خياله، فكان إعجابه بما يرى (حقيقة أو صورة) كان إعجابه عظيماً جداً، فعجز لسانه عن وصف ما يرى، وعجز عن إيجاد اللفظ المناسب للتعبير عن الشكر أمام هذا الإكرام العظيم، فلجأ الى الثناء على المنعم ـ الله تعالى ـ الذي اجتمعت فيه البركة كل البركة، والخير كل الخير، وكل صفة جميلة تمثلت في أسمائه الحسنى...

وهذه البركات جميعها لا يمكن أن يكون عطاؤها وفيضها إلا خيراً، وبركة وجمالاً... لا كالخير، ولا كالجمال، ولا كالبركة التي يعرفها الناس، فهي أعظم، أعظم، وأعظم... ولا يوفيها حقها إلا تمجيد الإله العظيم الكريم الرحيم...

ويركز الحديث هنا على صفتين من الصفات الإلهية:

أولاهما: ذي الجلال: فهو ـ جلّ جلاله ـ فلا يشبهه أيّ جلال، والجلال تعني الهيبة والوقار والعظمة والرفعة، والتفرّد بالمجد والعظمة...

والثانية: الإكرام، وهو الكريم، المعطي، المتفضّل، المضاعف للحسنات، وهو أصل الكرم، ومبدل السيئات بالحسنات... فإذا أعطى فليس من عطاء يشبه عطاءه. وإذا أكرم فليس من مكرمٍ مثله، وإذا أنعم فليس لنعمه إحصاء ولا عدّ...

وكل هذا الذي ذكر من نِعَمِهِ تعالى ما هو إلا رمز ضئيل للنعمة العظيمة التي ينعم بها على المؤمنين.

فالنعمة لا تنكر، وهي مضيئة تتلألأ أمام أعين الناظرين، وتستضيء بها الأرض، وتشعّ في جنبات السماء، وتأنس بها النفوس، وتطمئن القلوب، إلا من أرتج عليه ففقد السمع والبصر، ومات قلبه، وضاع عقله، وما انكسر القفل الذي أقفل به ذلك القلب: فهنيئاً للمصدقين، وتعساً للمكذبين الضالين والحمدلله رب العالمين.

- ٧ -

شرح سورة الواقعة

تتحدث هذه السورة عن أمور:

١ـ عن أحداث يوم القيامة.

٢ـ وعن تقسيم الناس الى ثلاثة أزواج: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون.

٣ـ وتفصيل حال كل زوج من هذه الأزواج.

يتحدث أولاً عن "السابقون".

ثم عن أصحاب الميمنة (اليمين).

وعن أصحاب الشمال.

٤ـ كما يتحدث عن الضالين المكذبين.

٥ـ ويأتي الحديث بعد ذلك عن النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان.

٦ـ وبعد ذلك حديث عن القرآن الكريم.

٧ـ ثم عن الكافرين.

٨ـ وبعدها عن حالة النزاع عند الموت. ومصير الناس.

وعن النبي (ص) أن من قرأها لم يكتب من الغافلين. ومن قرأها كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً.

وعن الصادق (ع): من قرأها قبل أن ينام لقي الله تعالى ووجهه كالقمر ليلة البدر. ومن قرأها في كل ليلة جمعة أحبّه الله وحببه الى الناس، ولم ير في الدنيا بؤساً أبداً، ولا فقراً، ولا آفة من آفات الدنيا؛ وكان رفيق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقراءتها تسهّل الولادة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ
رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا
(٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧)
فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ
الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ
(١٠)

١ـ إذا وقعت الواقعة: إذا جاء يوم القيامة.
٣ـ ليس لوقعتها كاذبة: لايمكن لأحد أن يكذب وقوعها (حصولها).
٣ـ خافضة: تخفض أقواماً الى النار.
ـ رافعة: وترفع أقواماً الى الجنة.
٥ـ بُسّت الجبال: بُسطت.
٦ـ هباءً منبثاً: غباراً منتشراً في كل مكان.
٨ـ أصحاب الميمنة: من أعطوا كتبهم باليمين.
٩ـ أصحاب المشأمة: الذين أعطوا كتبهم بالشمال.

- كثر الحديث في القرآن الكريم عن يوم القيامة. وهذه السورة المباركة تركز على هذا الموضوع، فتتحدث عن يوم القيامة وما يحدث فيه، ثم ما يكون مصير الناس في هذا اليوم. ثم تنتقل السورة بعد ذلك الى تبيان أمور كثيرة من واقع الخليقة، وواقع الناس... كل ذلك على سبيل الوعظ والنصيحة، والدعوة الى التأمل والتفكير، للنجاة من العقاب، والفوز بالجنة.

- والحديث عن الواقعة (القيامة) هو حديث عن أمر سيأتي حتماً، وقوله تعالى: "إذا وقعت الواقعة" أنه عندما يأتي الوقت (إذا شرطية زمنية)، فإن هذه الحادثة أمر غير عاديّ، وفيه من الأحداث والظواهر الكونية مالا يخفى على أحد، بحيث أنهم يرونه بأعينهم، ويعيشونه، فلا يستطيع أحد بعد ذلك أن ينكر وقوعها (ليس لوقعتها كاذبة.)

- ويكون من نتاج الواقعة إذا وقعت أنها تخفض أقواماً وترفع آخرين. وهذا الخفض أو الرفع يكون نتيجة لمحاسبة الناس على أعمالهم. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يرتفعون بأمر الله، فتكون لهم المرتبة الرفيعة، والمقام العالي في الجنة... وأما الذين كفروا وعملوا السيئات، فسوف تخفضهم بحيث تجعلهم في المكان الذي يستحقونه على أعمالهم، وهو مكان منخفض لا خير فيه، بل مسألة، وعقاب، ونار حامية "وتصلية جحيم"، وتغيير، وتبديل، وتعديل... في كل شيء.

أما ما يحدث في هذا اليوم:

الآية ٤: "إذا رجّت الأرض رجّاً"، أي تحركت واهتزت اهتزازاً عظيماً... ويكون من نتيجة هذا الارتجاج: "وبُسّت الجبال بسّا". أي أن الجبال تتحطم حتى تتحول قطعاً صغيرة، وتراباً... تتطاير في الفضاء كأنها غبار ينتشر في كل مكان، وتتلاعب به الريح... لا يربط بين أجزائها شيء، وقد فقدت شكلها وقوتها... "فكانت هباءً منبثاً".

- أما ما يحدث للناس فهو أنهم يُصنّفون في ثلاثة أصناف: "أزواجاً ثلاثة".

أما الصنف الأول فهو: أصحاب الميمنة. وهم قسم من الناس حلت عليه بركة الله تعالى الذي نجاهم من أهوال يوم القيامة. وهم أيضاً أصحاب اليمين، وعن هؤلاء تحدث الله تعالى في سورة الانشقاق في الآيتين ٧ و ٨: "فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً. وينقلب الى أهله مسروراً." وفي سورة الحاقة الآية ١٩ ـ ٢٤ " فهو في عيشة راضية. في جنة عالية..."

وفي سبيل التدليل على أهمية هذا الصنف من الناس (أصحاب الميمنة) تتابع الآية الكريمة: "ما أصحاب الميمنة". وهذا السؤال هنا يراد به تعظيم شأنهم، والإشارة الى رفعة مكانتهم عند الله، وعظمة أجرهم وثوابهم.

وأما الصنف الثاني فهو: أصحاب المشأمة. وهم الذين حلّ بهم الشؤم والشقاء نتيجة لأعمالهم السيئة المشؤومة...

وهنا أيضاً تطرح الآية التاسعة السؤال: ما أصحاب المشأمة: والمقصود من السؤال تعظيم العقاب الذي أصابهم، وبالتهويل بما ينتظرهم من الخزي في نار جهنم.

وأما الصنف الثالث: فهو: السابقون السابقون. ونفهم من "السابقون" الأولى الذين أكثروا من فعل الخير، فسبقوا الناس جميعاً، والسابقون الثانية تعين أن هؤلاء قد سبقوا غيرهم في فئتهم من السابقين، فكانوا أول الأوائل في طاعة الله تعالى، وفي أعمال الخير، وفي ما نالهم من رحمة الله ومغفرته وثوابه وخيره.

وقد وردت في كتب التفسير تفسيرات كثيرة للمراد بـ "السابقون السابقون.".

بسم الله الرحمن الرحيم

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ
(١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥)
مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ
(١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ
عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩)وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ
مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ
(٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)

١٣ـ ثله من الاولين: جماعه من الامم السالفة.

١٥ـ موضونة: منسوجة بقضبان من ذهب، ومزينة بالدر والياقوت.

١٧ـ مخلّدون: لا تتغير أحوالهم

١٨ـ معين: تراه العيون يتدفق من منابعه...
١٩ـ لا يُصَدّعون عنها: لا يصيبهم منها صداع.
ـ ولا ينزفون: لا تذهب بعقولهم.
٢٣ـ المكنون: المصان الذي لم تمسّه يد.
٢٥ـ لغواً: كلاماً لا خير فيه.
ـ ولا تأثيماً: كلاماً يحمّل صاحبه إثماً.
٢٦ـ قيلاً: قولاً.

- الملاحظ هنا أن السابقين الذين تتحدث عنهم السورة المباركة هم الأعظم شأناً، والأعلى مكانة، والأوفر حظاً عند الله. ولكن، لماذا تأجل الحديث عنهم ولم يأت ذكرهم في البداية؟ هنا نقول إن المقصود هنا هو تعظيم شأنهم، وشد الانتباه الى الحديث حتى يزيد اهتمام القارئ أو المستمع بهؤلاء الذين فضلهم الله تعالى على من عداهم من البشر.

ويطول الشرح عن هؤلاء السابقين: فهم:

١ـ المقرّبون أولئك المقربون (من الله)، أي أصحاب المكانة الرفيعة عنده، في جنات النعيم، وهم الذين تطالهم رحمة الله، عندما يكونون من أكثر الناس عبادة لله، وعملاً للخير، وإصلاحاً للمجتمع، وتطبيقاً للشريعة، ورحمة للعباد...

وزيادة في التعريف بهؤلاء المقرّبين، وبمن يكونون، تكمل الآيتان ١٣ و١٤ في وصفهم "ثلّة من الأولين. وقليل من الآخرين". والثلّة معناها في اللغة هي الجماعة من الناس. والمقصود بالأولين هم الأمم السابقة من أتباع الأنبياء السابقين. أما الآخرون فهم من أهل الإسلام من أتباع نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم. وما ندري مبرّر هذا الكلام إلا أن يكون إنباءً بالغيب، لما سيكون عليه المسلمون في مستقبل الزمان، وهو في الوقت نفسه تحذير للمسلمين من الوقوع في الخطأ، وعدم العمل بما أمر الله تعالى، وتعطيل للشريعة، والوقوع في المحرّمات... إلا

القلّة منهم. كما أنه في الوقت نفسه حثّ على الالتزام بالشريعة، وفهم المبادىء الإسلامية على حقيقتها، وصون للنفس والمجتمع عن الوقوع في الأخطاء التي تجعل الناس حطباً لجهنم، ويخلدون في النار.

أما ما يكون جزاء هؤلاء المقربين على التزامهم بالشريعة الإلهية، وإطاعة الله، والعمل على ما فيه رضاه... فهو أن يدخلوا الجنة.

وفي الجنة: يتكئون على سرر... في جلسة هادئة ناعمة في أحسن حال، وأهدإ بال. وأما السُّرر فهي كأجمل ما يكون من الصنعة والمتانة، والزخرفة، منسوجة بقضبان من ذهب، ومزينة بالدر والياقوت. ويكفي بذلك وصفاً ليدل على جمالها، ورفاهية من يتكئون عليها، وهذا ما توحي به كلمة (متكئين).

وأنس هؤلاء المقربين بالجنة لا يتأتى فقط عن الأثاث الذي جعل في خدمتهم بل عن أمور أخرى أيضاً:

١ـ أن نظام أهل الجنة يجعلهم في جماعات، يجلس كل منهم على سرير خاص به. ويقابله آخرون، في مثل حاله، وفي مثل صفاته، وفي منزلته أيضاً عند الله... وتتحول جلساتهم الى أنس برحمة الله، وحديث عن نِعَمِهِ التي أنعم بها عليهم، واستمتاع بتلك النعم التي تقوم على أساس استئناس المؤمنين بعضهم ببعض، بعيدين عن كل شعور بالأنانية أو الغيرة، أو الحسد، أو التميّز...

٢ـ والخدمة لهؤلاء السابقين يقوم بها (ولدان مخلّدون) يطوفون على هؤلاء (السابقين) من أهل الجنة. وهم ولدان مخلّدون أي أنهم باقون دوماً على ما خلقهم عليه الله تعالى، من جمال الصورة، وأدب المعشر، والقوة في الخدمة، والنشاط، وحسن التدبير... وهم لا يهدأون، وفي حالة طواف دائم على أهل الجنة لتلبية طلباتهم، وتأدية ما يطلبونه منهم... دون كلل، ولا ملل. يحملون أصنافاً من الأواني، ومن الكؤوس والأباريق... وغيرها من الآنية، من الذهب والفضة. وفيها من الماء المعين، وخمر لذة للشاربين. لايصدّعون عنها ولا ينزفون أي لا يصيبهم بسببها صداع، ولا تذهب بعقولهم. فهي إذن شراب طهور (سورة الإنسان الآية ٢١)، فيه لذة للشاربين (الصافات الآية ٤٦). يشربون هنيئاً (الحاقة ٢٤)... مما رزقهم الله... وعلى أجمل صورة، وأحسن حال...

٣ـ أما الفاكهة فهي (ممّا يتخيرون). فالمجال مفتوح أمامهم ليختار كل واحد منهم ما يلذ له ويطيب من تلك الفاكهة. وهنا يجري الاختيار منهم بأنفسهم وبدون واسطة، وفي ذلك الاختيار وطريقته ما يحصل من تمام اللذة بما يختاره كل واحد منهم على مزاجه وعلى هواه.

والجدير ذكره بأن الحصول على هذه الفاكهة لا يكلف أهل الجنة أيّ جهد، إذ أن الأشجار قد "ذللت قطوفها تذليلاً" سورة الإنسان الآية ١٤، وسورة الملك الآية ١٥، وسورة الأنعام الآية ٩٩، وسورة الحاقة الآية ٢٣.

٤ـ وأما اللحوم فهي من لحوم الطير، مما يشتهون. وفي الروايات أن الواحد منهم يشتهي لحم طائر ما، فلا يلبث أن يراه قد وقع بين يديه مشوياً أو مقلياً، فيأكل منه ما أراد... ثم تعود الحياة الى هذا الطائر فيطير من جديد.

٥ـ ويبقى الحديث عن المرأة، فنساء الجنة من الحور العين. وهن من مخلوقات الجنة، في أجمل منظر، وأحسن حال، وأسمى أنواع الأخلاق، والآنس لرجالهن، والأكثر التزاماً بالقيام بالدور الذي يفترض أن تؤديه المرأة المؤمنة تجاه زوجها المؤمن، حتى أنها في أكمل حالات الكمال، وأجمل هيئات الجمال...

هذا بالإضافة الى أن نساء الجنة أيضاً هن من النساء المؤمنات في الحياة الدنيا، ممن استحقت دخول الجنة بإيمانها، وأعمالها الصالحة، وعبادتها لله، والقيام بواجباتها كاملة في دنياها... وذلك على نحو ما ورد في الآية ٧٠ من سورة الزخرف: "ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون". وكذلك في الآية الثامنة من سورة غافر "ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم."

وهؤلاء النساء ـ الحور العين ـ كأمثال اللؤلؤ المكنون. في الستر، والجمال، والطهارة، والنقاء، وصفاء البشرة، ووضاءة الوجوه، والعيون الحوراء الجميلة... بما يجعل هؤلاء النساء في طهارتهن وصفائهن... يناسبن أهل الجنة من الرجال الذين تتحدث عنهم السورة الكريمة "السابقون السابقون".

- ويتبادر الى الذهن السؤال: ولماذا كل هذه الحفاوة وهذا التكريم ولا يتأخر الجواب: "جزاءً بما كانوا يعملون". ولو لم تكن أعمالهم على مقدار كبير من الإخلاص، والصدق، والانضباط، والتجاوب مع الإرادة الإلهية، لما كان كل هذا التكريم الذي يأتي عظيماً على مقدار عظمة وسموّ أفعالهم.

هذا بالنسبة للأعمال، والمجازاة عليها. أما ماذا عن الجوّ العام لأهل الجنة؟

وهنا أيضاً يأتي الجواب سريعاً: فالنفوس مؤمنة ومطمئنة، وفرحة بما أثابها الله تعالى به على إيمانها، وأعمالها التي تميّزت كلها بروح الإيمان... وقد نسي هؤلاء جميع هموم الدنيا ومتاعبها، وما كان فيها، ونسوا كل

عمل سيء أصابهم، كما نسوا الناس جميعاً، وصفت نفوسهم، فلا حقد، ولا ضغينة، ولا حسد، ولا تنافس، ولا همّ يؤرقهم، ولا غداً يخشونه، ولا عقاباً يجزعون منه... وهم كما قالت عنهم الآيات ٥٥ ـ ٥٨ من سورة يس المباركة: "إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. في ظلال على الأرائك متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون. سلام قولاً من رب رحيم." فما من أحد غيرهم يقول كلاماً في غير محلّه "لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً". فلا فحش في الكلام، ولا جدل ولا نقاش فارغاً وبدون جدوى. وكل شيء بيّن واضح...

وإذا كان الأمر كذلك، فعلامَ يدور حديثهم؟

حديثهم: "إلا قيلا سلاماً سلاماً". فالسلام يغمرهم جميعاً، في مكان يسيطر فيه السلام، فلا يتحدث المتحدثون إلا بالسلام، وهو كل قول جميل، فيه خير للقائل والسامع، وفيه صدق، وحق، وثناء على الله تعالى، وشكر لنعمته عليهم... ولا يجيب المجيبون إلا بمثل ما سمعوا...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ
(٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ
(٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ
مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا
(٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ
(٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)

٢٨ـ سدر: نوع من الشجر (السدر)
ـ مخضود: لا شوك له.
٢٩ـ طلح: شجر الموز.
ـ منضود: كثر حمله من أسفله الى أعلاه.
٣٠ـ ظل ممدود: ظل لا ينحسر أبداً.
٣١ـ ماء مسكوب: غير منقطع.
٣٧ـ عُرُباً: متحببات الى أزواجهن.
ـ أتراباً: في أعمار متقاربة.

- وتتحدث الآية ٢٧ وما بعدها عن الفئة الثانية من الأزواج الثلاثة الذين تحدثت عنهم الآية السابعة من هذه السورة الكريمة (الواقعة)، وهم أصحاب اليمين.

وقبل الحديث عن هذه الفئة الثانية من الناس على نحو ما يصير إليه ترتيبهم يوم القيامة يجب أن نشير الى أن الترتيب في الآية السابعة هو:

الفئة الأولى: أصحاب الميمنة.

الفئة الثانية: أصحاب المشأمة.

الفئة الثالثة: السابقون السابقون.

وهذا الترتيب في تفصيل الحديث عن كل فئة هو كما يأتي:

الفئة الأولى: السابقون السابقون. الآية ١٠

الفئة الثانية: أصحاب الميمنة أو أصحاب اليمين: الآية ٢٧.

الفئة الثالثة: أصحاب المشأمة أو أصحاب الشمال: الآية ٤١.

أما بالنسبة للتسمية، فاليمين هو الجهة المباركة عند الله، وهذا المفهوم عند العرب، وهي من اليُمْن. واليُمْن من اليَمَن. واليمن قديماً هي اليمن السعيدة. والمشأمة من التشاؤم. والتشاؤم من الشآم، والمشأمة من الشآم... وهذا له ارتباط ببعض عادات العرب القديمة المتمثلة بزجر الطير... وغيرها من الأمور التي ليس محل التوسع بها هنا في هذا المقام.

وأما بالنسبة لأسلوب الكتابة في اللغة العربية، فقد جرت هنا مراعاة أساليب الكتابة العربية، من مثل السجع، والمقابلة... مما لا نجد مجالاً أيضاً للتفصيل فيها في هذا المقام.

أما بالنسبة لأفضلية المراتب وأصحابها، فهو على النحو الذي جاء تفصيله في السورة المباركة، إذ تحدثت أولاً عن السابقين، ثم عن أصحاب الميمنة، وبقي أصحاب المشأمة في آخر السُلَّم.

الصنف الثاني (في المرتبة عند الله) هم أصحاب الميمنة. وحتى لا يعتبر الحديث عنهم في هذا الموقع من باب التقليل من أهميتهم كانت الصيغة التالية:

وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين!

وهذه الجملة الثانية: (ما أصحاب اليمين!) هي صيغة من صيغ الإجلال والتعظيم، لأن الاستفهام هنا استفهام يؤدي الى الإبهام. والإبهام هنا مفيد، بحيث أنه يجعل فكر الإنسان يذهب كل مذهب في تعظيم هؤلاء القوم، أو هذه الفئة من الناس، ويجعلنا نفكر في كل خير، وننسبه إليهم.

والحديث عنهم يتناول عدة أمور:

١ـ في المكان: والمكان يعرف بما فيه من أشجار، وثمار، وفاكهة، وماء..

- أما شجره فهو:

سدر مخضود (شجر السدر) على ما فيه من الفوائد، وهو هنا أفضل من سدر الحياة الدنيا، إذ أنه مخضود لا شوك له، فيسهل التعامل معه.

وطلح منضود: واختلف في طبيعة شجر الطلح هذه، فقيل إنها شجرة الموز، وهي غير شجرة الموز في الحياة الدنيا، فحملها منتضد، متناسق، كثير... أو هي شجرة تنبعث منها الأنوار التي تبث الرائحة الزكية في كل مكان، وظلالها وارفة، تغطي الأرض بحيث لا تمسّها حرارة الشمس.

- وأما ماء هذا المكان فهو ماء مسكوب: وهو الذي لا ينقطع ولا يغور... فيدوم معه الريّ الذي به يحيا الإنسان والطير والنبات...

- وأما فاكهته فكثيرة، ليس بالكمية وحدها، وإنما هي متنوعة أيضاً. وهذه الفاكهة لا مقطوعة بحيث يجدها من يشتهيها في كل زمان وفي كل مكان، ولا تتأثر بالفصول. وهي أيضاً غير ممنوعة، وبمعنى أنه لا يحظر منها شيء على الإنسان. ولا يمنعه شيء من الحصول عليها...

- وأما مكان أصحاب اليمين من الجنة فهو من الأمكنة التي أتقن إعدادها وتدبيرها، وتأثيثها بحيث تؤمن الراحة التامة للمؤمنين. ومن جملة ذلك تزويدها بفرش وثيرة (مرفوعة) بحيث لا يشكو من ينام أو يتكئ عليها من أيّ إنزعاج أبداً. (وفي بعض التفاسير أن في هذا التعبير كناية عن أن هذه الأمكنة تعمرها نساء فاضلات ذوات عقل وحكمة وفهم وعلم وقدر كبير... وذوات مكانة رفيعة عند الله تعالى.)

- وفي وصف هذه الفرش وردت الآية الكريمة: "إنا أنشأناهنّ إنشاء" وتعني أن خلقهن كان ـ كما ورد في قوله تعالى: "إنا كل شيء خلقناه بقدر" في سورة القمر الآية ٤٩. ويعني ذلك أن خلقهن، والإنعام عليهن بالصفات الفاضلة، والأخلاق الكريمة،والعلم والفهم، وأنزالهنّ في هذا المكان من الجنة، وعند هذه الفئة المفضلّة عند الله من الرجال... كل ذلك ما يجعل المفسرين يستنتجون بأن (الفرش المرفوعة) كناية عن النساء في الجنة. ومن صفة هؤلاء النساء:

ـ فجعلناهنّ أبكارا ـ لم يسبق لهن أن تزوجن من قبل.

ـ عُرُباً أتراباً ـ وهن نساء تحب أزواجهنّ وتتودد إليهن. وهنّ جميعاً في أعمار متقاربة (أترابا).

ـ لأصحاب اليمين: وقد خلقهن الله تعالى خصيصاً لأصحاب اليمين، في نوع من المكافأة لهم... ولعل في هذا ما يمكن فهمه من قوله تعالى في سورة البقرة(الآية ٢٠١) وفهم من يقول: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار". وفي تفسير هذه الآية ورد عن الإمام علي عليه السلام تفسير (حسنة) بالمرأة الصالحة.

- وهنا يأتي السؤال الذي يعبّر عن شوق ولهفة لمعرفة من هم أصحاب اليمين.

وتجيب الآيتان ٣٩ و ٤٠ عن ذلك:

ثُلّة من الأولين. وثُلّة من الآخرين،

والثلة الجماعة الكثيرة. ومن الأولين تعني من الأمم السابقة، ومن الآخرين تعني من المسلمين...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ
(٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا
قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦)
وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)
أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨)

٤٢- سموم: ريح حارة جداً.
- حميم: ماء شديدة الحرارة.
٤٣- يحموم: دخان أسود كثيف.
٤٤- كريم: ألطف أقل حرارة.
٤٥- مترفين: مُنَعَّمين.
٤٦- يصرّون: لا يتراجعون.
- الحنث العظيم: الذنب الكبير. الشرك بالله.

- ثم يأتي الحديث عن الصنف الثالث من الناس في تصنيف يوم القيامة، وهو عن أصحاب المشأمة، أو أصحاب الشمال.

والآية ٤١ تقول فيهم: "وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال" فيأتي السؤال هنا (ما أصحاب الشمال) ليس ليعظم من شأنهم كما في "وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين"، بل ليثير الشكوك حولهم، ويخلق جواً من الريبة والرعب، ويترك مجالاً واسعاً للتكهنات حول وضعهم السيء، وما آلت إليه حالهم من السوء، وما ينتظرهم من العقاب...

وأول الحديث يأتي عن وضعهم، وعن الجو العام الذي صاروا إليه: فهم: في سموم وحميم. فالريح حارة شديدة الحرارة، والجو نار ملتهبة. وناس ذلك المكان في ضيق نَفَس، وفي غليان داخلي، وريح تسفعهم سفعاً فتؤلمهم، فلا يستقرون على حال... ودخان كثيف أسود تعمى معه العيون وتضيق الأنفاس. وإذا هم أرادوا التخفيف عن أنفسهم فيلجأون الى شربة ماء لعلها تطفئ حرارة الجوف، فإذا بهم لا يجدون إلا ماء حارة شديدة الحرارة، يشربونها فإذا بنار الخارج ونار الداخل تضاعفان العذاب، وتشدّدان العقاب...

وإذا هم فتشوا عن ظل يتقون به لفح نار جهنم وسمومها، فقد يجدون ظلاً، ولكنه لا يكون كما يؤمّلون فيه: فلا هو بارد فيأنسون به، ولا هو كريم (أقل شدّة) من الأمكنة الأخرى. فما عاد الظل ظلاً، وقد خاب عندهم الأمل والرجاء.

- وتأتي الآية ٤٥ لتجري نوعاً من المقارنة بين ما هم عليه الآن (يوم القيامة)، وبين ما كانوا عليه قبل ذلك. تقول الآية الكريمة: "إنهم كانوا قبل ذلك مترفين". ترفاً لا حدود له في المكان والظل والنعيم والمياه والطعام والشراب... فأين هم الآن من كل ذلك؟!

وبدلاً من أن يفكروا بما هم فيه من النعيم، ويقدّروا لله تعالى هذه النعم التي أنعم بها عليهم، ويشكروه عليها، ويوحدّوه، ويقدّسوه، ويسبّحوا بحمده... إذا بهم "يصرّون على الحنث العظيم" أي الشرك بالله. وكانوا ينكرون البعث والقيامة: "وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعثون". ليس هذا فقط، بل كانوا ينكرون القول بأن آباءهم وأجدادهم سوف يبعثون هم أيضاً. ويتصوّرون أن تلك العظام النخرة البالية لن تعود إليها الحياة، فيزداد إنكارهم لعدم قناعتهم بإمكان حصول ذلك.

وهذا الوصف لحالة هؤلاء القوم من إنكار البعث والحياة الثانية بعد الموت، والحساب يأتي على سبيل:

١ـ التذكير بعقيدة الكفر التي يصرّون عليها.

٢ـ وبالتأنيب على هذه العقيدة.

٣ـ ثم لتبرير العقاب الذي نزل بهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ
مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ
مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)
فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥)
هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)

٥٢- شجر من زقوم: شجر في جهنم له ثمار مرّة.

٥٤- الحميم: الماء الحارة.

٥٥- شُرْب الهيم: كما تشرب الجمال العطشى: تشرب ولا تشبع.

- ويترك الردّ على هذه المعتقدات التي كانوا يعتقدونها، وعلى إنكارهم لما بشرّهم به النبي (ص) من القيامة والبعث والحياة والموت... يترك الرد عليها للنبي: وهو على النحو الآتي: قل:

١- إن الأولين والآخرين لمجموعون (الأولون: الآباء والأجداد. والآخرون: الأولاد).

٢- الى ميقات يوم معلوم. وهنا تأتي فكرة تأكيد البعث والقيامة.

٣- ثم إنكم أيها الضالون المكذبون: وهنا وصف لهؤلاء القوم (أصحاب الشمال) من الأولين والآخرين، فهم ضالون (لا يعرفون الحقيقة). ثم إنهم (مكذبون) أي أنه عندما كشفت لهم هذه الحقيقة قد كذبوا بها ولم يصدقوا أنبياءهم.

(لآكلون من شجر من زقوم.) وشجرة الزقوم كما ورد الحديث عنها في سورة الدخان الآيات ٤٣- ٤٦: "إن شجرة الزقوم طعام الأثيم. كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم". وفي سورة الصافات الآيات ٦٢- ٦٦ "أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم. إنا جعلناها فتنة للظالمين. إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنها رؤوس الشياطين. فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون".

٤- وبعد الأكل يحتاج الآكل الى الماء ليطفئ عطشاً يستبدّ به بعد الطعام، وبخاصّة إذا كان الطعام حاراً. وهؤلاء إذا أرادوا ماءً وجدوه ماء يغلي فيقطع أمعاءهم. ورغبتهم في الماء ليطفئوا غلتهم تدفعهم الى شربه، فإذا بهم يشربون ويشربون كما تشرب الجمال العطاش التي مضت عليها أيام طويلة لم تشرب فيها الماء، فتشرب، وتشرب، ولا تملك القدرة ولا الإرادة على ترك الماء ولو كان من الحميم. وبرغم ما قد ينتج عن ذلك من الضرر. ثم يأتي في النهاية قول الله تعالى: "هذا نزلهم يوم الدين". أي هذا هو المكان الذي أعدّ لهم سلفاً لمعاقبتهم يوم القيامة. وهو عقاب يستحقونه. ثم إن في هذا الكلام تأنيباً، وتوبيخاً، وتذكيراً، وشماتة.

بسم الله الرحمن الرحيم

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨)
أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي
مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ
(٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ
(٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا
لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي
تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩)
لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي
تُورُونَ (٧١)أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ
جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣)

٥٦ـ نزلهم: مأكلهم ومشربهم.
ـ يوم الدين: يوم القيامة.
٦٠ـ قدّرنا: حدّدنا مواقيته وجعلناه قدراً محتوماً.
٦٥ـ حطاماً: زرعاً يابساً محطماً، لا خير فيه.
ـ فظلتم: استمريتم.
ـ تفكّهون: تتعجبون من حصوله.
٦٦ـ إنا لمغرمون: لمخطئون.
٦٩ـ المُزن: الغمام.
٧٠ـ أجاجاً: شديد المرورة.
٧١ـ تورون: تشعلونها.
٧٢ـ متاعاً للمقوين: جعلنا فيها منفعة للناس.

- وبعد أن جاء الرد في المقطع السابق من السورة الكريمة: (الآيات ٤٩ـ ٥٦) حازماً وحاسماً، وجازماً، وفيه من التحذير الشديد، والإنذارات القوية، وتصوير الحالة السيئة التي سوف يكون عليها هؤلاء الكافرون المنكرون بصورة تثير الرعب من المصير المشؤوم الذي ينتظرهم، يستمر الردّ بالانتقال من أسلوب الإنذار والتخويف والتحذير... الى أسلوب مخاطبة العقل، وتقديم الأدلة والبراهين على حقائق الخلق، وارتباط حركة الكون والوجود بالإرادة الإلهية. وتتحول الدعوة الى الإيمان الى نوع من التمني على الكافرين والمكذبين وبدعوتهم الى التصديق (فلولا تصدقون)، والى تذكر نعمة الله تعالى على البشرية جمعاء (فلولا تذكّرون)، والى شكر هذه النعمة (فلولا تشكرون)...

ـ ويبدأ الأمر الأول بموضوع الخلق: "نحن خلقناكم فلولا تصدّقون". ثم يدخل في تفصيل هذا الأمر، ويذكر الناس بالمراحل الأولى لعملية الخلق في كون الإنسان أولاً نطفة من منيّ يمنى. بما في ذلك من تذكير بدقّة هذه

المرحلة، ثم بالإشارة الى أنه حتى هذه المرحلة الدقيقة ما كانت لتتمّ لولا وجود إرادة إلهية في ذلك. فالله هو ـ وحده ـ الخالق، ولايتمّ شيء إلا بإرادته.

- ثم ينتقل بعد موضوع الخلق الى موضوع الموت الذي جعله الله تعالى قدراً محتوماً على كل إنسان، بحيث أن جميع الناس يموتون، ولا يستثنى من ذلك أحد. وكذلك فإن الموت هو إرادة إلهية في الخليقة، بحيث لا يحصل إلا بمقتضى ما قدّر الله تعالى، وليس هناك من أي ظرف آخر، أو إرادة أخرى يمكن أن تتدخل في ذلك. "نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون." وهنا تطرح قضية على مقدار كبير من الأهمية، وتتمثل في أن الخلق يكون بإرادة الله تعالى لتحقيق غاية معينة. وتستمر الخليقة، وتتعاقب الأجيال، فإذا وقعت الأمة في العقم فلم تعد قادرة على تحقيق الإرادة الإلهية في الحياة الجادّة، السليمة من كل شائبة، وفسد الناس، وفسد المجتمع... فإن الله تعالى قادر على أن يجدّد الخليقة، فيبدل قوماً بقوم، وجيلاً بجيل، وأمّة بأمة.... ويكون الجديد أقدر من القديم على تنفيذ الإرادة الإلهية... وما يقدر أحد أن يفعل مثل هذا الفعل إلا من كانت بيده القدرة على الخلق، وعلى الإحياء والإماتة، وعلى مراقبة مسيرة الكون والوجود الى الغاية المرجوة. وهذا الفعل ليس لغير الله، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: "وما نحن بمسبوقين".

وبعد أن ينتهي من موضوع خلق الإنسان، وكيف بدأ الخلق، ثم كيف تكوّن المجتمع الإنساني، والمبادئ التي قررها الله تعالى لتسير بمقتضاها الحياة... وكل ذلك بيد الله تعالى، تأتي الجملة التالية: "فلولا تذكرون". وفي هذا تحديد للسبب الذي يجعل الناس يخرجون عن خط الإيمان، ويقعون في الخطأ، وهو النسيان. والنسيان ضياع، والتذكر عودة الى الصواب، ومعرفة للحقيقة، وبعد عن الخطأ.

- وبعد موضوع الموت يأتي الحديث عن أمور لها علاقة بحياة الإنسان، وتشكل العناصر الأساسية التي بها تستمر الحياة.

ومن أول هذه العناصر موضوع استمرار حياة الإنسان. وهذا الاستمرار متوقف على تأمين الطعام له. وأهم مقومات طعام الإنسان هو ما يتأتى عن طريق الزراعة. وتقول الآيات الكريمة ٦٢ـ٦٧: "أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون." فالأرض التي يزرعها الناس، من الذي يزرعها؟ فالإنسان يقوم بالحراثة. وينسب الزراعة لنفسه. أما المفهوم الكامل للزراعة فهي عملية كبيرة، تبدأ بالبذار والحراثة، والريّ، ثم تبدأ عملية الإنبات، وتأتي بعدها عملية النمو التي تتطوّر حالاً بعد حال، ويوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة... ثم تأتي مرحلة الحمل والثمر، والتي تتطور هي الأخرى حالاً بعد حال. وتكون بعدها حالة النضج، ثم الحصاد أو جني الثمار... وهذه كلها مرهونة بالإرادة الإلهية التي تريد أو لا تريد، والتي تسمح بإتمام تلك المراحل أو لا تسمح، والتي تسقي الزرع أم أنها تمنع عنه السقيا... وهذه العملية

في الزرع شبيهة بعملية حمل الإنسان وتطوّره مرحلة بعد مرحلة حتى يولد. وهو بعد ذلك إما أن تكتب له الحياة أو أنه لا يكون من أهلها بحسب الإرادة الإلهية. وحتى الأمور التي يقوم بها الإنسان من حصاد وخدمة للزراعة لا تكون إلا بمشيئة الإله.

ويأتي تفسير ذلك: "لو نشاء لجعلناه حطاماً". وإذا حصل ذلك وتحطم الزرع، فما يكون موقف الناس؟

إذا حصل ذلك، فإن الناس يعتبرون أنفسهم خاسرين، فهم قد خسروا مالهم في ما كلفهم ذلك العمل، وجهدهم، وضاع وقتهم دون الاستفادة منه... وشعروا بالخسارة التي تؤلمهم وتقهرهم... ويروحون يبحثون عن سبب ذلك، وتفسيرات لما حدث. ويعيشون الكارثة أو المصيبة التي حلت بهم، ولكنهم لا يتّعظون، ولا يفكرون في أسبابها، ومن الذي حكم عليهم بمثل هذا الحكم، ولماذا حكم عليهم بذلك.

- ثم ينتقل بعد ذلك الى موضوع آخر، وهو موضوع الماء الذي به يحيا كل حي، ولا حياة بدونه، وهو المادة التي يشربونها، وبها خصوصاً وبغيرها تنتظم حياتهم. ويأتي السؤال: "أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون". أفرأيتم هذه الحالة: أخبروني ما عندكم عنها؟

وفي الآية الكريمة إشارة الى الدورة التي يمرّ بها الماء حتى يصل الى الناس وكأنما هي دعوة للتأمل في ذلك، كما أشار في مكان آخر من سورة النور الآية ٤٣: "ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار." وفي هذه أيضاً إشارة الى جزء من الدورة التي يمرّ بها الماء حتى يصل الى الإنسان فيشرب منه، وينتفع به... حتى البرق وهو من تفاعلات ذلك المشهد العظيم، والدورة الكبيرة التي لا تحرّكها ولا تنظمها إلا الإرادة الإلهية.

ثم يأتي السؤال: "أأنتم أنزلتموه من المزن...". وهو سؤال استفهام إنكاري فيه تعجيز للإنسان، ويحصر هذه العملية بالله وحده. ولولاه لما كان من ماء، وبالتالي ما كانت الحياة.

ثم يأتي تبيان آخر لهذه الحالة: هذا الماء الذي تشربونه عذب زلال، وجميع الناس يعرفون ذلك ـ فلو أراد الله تعالى (لو نشاء) أن يجعله مالحاً، فهل يمكن شربه والاستفادة منه؟

وفي هذا تنبيه الى قضية هامة يعيشونها ولا يقدرون قيمتها، ولا يعرفون أهميتها، وأنها من النعم الإلهية التي أسبغها عليهم.

وهنا يأتي الحضّ على التفكر في هذا الواقع، والتأمل في ما أنعم الله تعالى به عليهم من النعم.

كما يأتي الطلب "فلولا تشكرون" لأن دوام النعمة يكون بالشكر، ولا يُطلب عليه أجر. وفي سورة الفرقان الآية ٥٧: "قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً". وفي سورة آل عمران الآية ١٧٩: "وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم."

وفي التعبير اللغوي: لو نشاء جعلناه أجاجاً. لو: حرف امتناع لامتناع، وتفيد هنا بأن الله تعالى قادر على أن يجعل ذلك الماء مالحاً (أجاجاً)، ولكنه لم يفعل، لماذا؟

ما زالت الدعوة قائمة للناس الى الإيمان. وبالإيمان تكفير عن السيئات، ولا تزال المهلة المعطاة للناس للدخول في الإيمان مفتوحة... و(سبحانك من ذي أناة لا يعجل).

- وبعد الماء يأتي الحديث عن النار. ففي الآية ٧١ دعوة للعالمين للتفكر في هذا العنصر من عناصر الوجود. في طبيعتها، وفي حاجة الحياة إليها، وفي مفاعيلها، وفي مصدرها... ثم يأتي السؤال: "أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون." وفي هذا تركيز على مصدر النار الظاهر في ما يعرفه الناس، وفي مادتها، وهو الشجر، ولا يتعرض الى المصادر الأخرى لأمرين: لجهل الناس بتلك المصادر، ثم لعدم الاستعداد الثقافي والفكري للبحث في ذلك. وفي الحديث الشريف: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم..."

ويربط الحديث عن أصل النار بما سبق من الحديث عن الزراعة، فيسأل: أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. فيعود بنا الى موضوع أنه هو وحده ـ الله تعالى ـ هو الذي يرعى عملية الزرع، وإنبات المزروعات كبيرها وصغيرها، وجميع أصنافها. وهو الذي يرعاها، ويحفظ عليها حياتها، ويحمّلها ما فيه منفعة للإنسان والحيوان، والطير...

ولا يستفيض في الحديث عن هذا الموضوع لكونه معلوماً من الجميع الذين يعيشون ويرون كل فصول هذه الحياة النباتية، ويختبرونها في كل يوم وفي كل ساعة، ولكنه يقول: "نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين".

أما التذكرة فهي نتيجة ما سبق من الدعوة الى التأمل، وبالتأمل يعرف الناس خفايا الأمور، ويعرفون الحقيقة، وفي معرفة الحقيقة منطلق في درب الهداية، والسير في هذا الدرب معرفة للخالق، وهذه المعرفة هي التي ترسم طريق الخلاص للإنسان، فيتقي شر النار، وينجو من العقاب.

وأما (متاع المقوين) فمعناها أن خلق هذه الأشجار لا يتوقف عند ضرب المثل ليفكر الناس، ويهتدوا الى الله فقط، وإنما هو أيضاً سبيل من سبل إقامة الحياة، ومصلحة العباد، وتأمين حاجاتهم، ومنها الطعام والشراب. وكم كانت الشجرة ملاذ الإنسان، وهو كما يلجأ إليها لتكون له ظلاً يحميه، وبيتاً يسكن إليه، ومصدراً للطاقة، وفيها منافع كثيرة في الحياة، فإنها مصدر رزق الكثيرين من الناس، وبخاصّة ممن لا يجدون مصدراً للرزق والحياة غيرها.

ومن هنا استعمال كلمة "متاعاً"، والمتاع هو الشيء الجيّد، الذي فيه فائدة للإنسان، وبه يستغني عمّا سواه، وتدوم الفائدة منه فلا ينقضي سريعاً...

وبهذا يكون في هذا النص من الآية ٥٧ الى الآية ٧٣ نوع من استعراض فصول الحياة بكل مظاهرها، وبكل عناصرها، وبكل طاقاتها، وعلاقة هذه العناصر بعضها ببعض، وفي منفعتها للحياة عامة، وللإنسان خاصّة... وفي الحديث عن نشوئها، وتدبيرها على النحو الذي نعرفه نحن البشر، وفي كيفية تواجدها. والتطورات التي مرّ بها هذا الوجود، والحالة التي وصل إليها... وأن كل هذه الحياة مصدرها الله، فهو خالقها ومنشئها، ومدبّر أمورها، وجاعلها في خدمة الإنسان: أفلا يعقلون؟! أفلا يتفكرون؟! أفلا يشكرون؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ
(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ
(٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)
تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ
(٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)

٧٨ـ مكنون: مصون في اللوح المحفوظ.

٨١ـ مدهنون: مكذّبون.

- ثم تتكرر الدعوة ـ بعد ذاك المقطع ـ الى الإيمان، على نحو ما تقدم في كل موقع من مواقع القرآن الكريم، وذلك عن طريق تقديم المثل، ثم إتباعه بالدعوة الى التفكّر في الإيمان وهو القائل ـ جل شأنه ـ في سورة العنكبوت الآية ٤٣: "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون". ومثلها في سورة ابراهيم الآية ٢٥، والنور ٣٥... وتطال هذه الأمثال جميع المخلوقات: صغيرها وكبيرها... وفي سورة البقرة الآية ٢٦: "إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها...".

أما الدعوة الى الإيمان هنا فتتخذ شكلاً آخر عمليا، وهو الدعوة الى التسبيح. والتسبيح هو ذكر الله مطلقاً، وبالخصوص هو القول سبحان الله: أي أسبحه، وأعبده، وأقدّسه، وأخشاه، وأرجوه... ثم هي بالإضافة الى (سبحان الله) زيادة: (والحمدلله ـ الحمدلة) و(لا إله إلا الله: التهليل) (والله أكبر: التكبير) و(الحوقلة: لا حول ولا قوة الا بالله).

فيصير التسبيح هو ذكر الله تعالى بالمطلق، وذكره بعد كل ما أوردناه، ويزيد على ذلك.

وبالتسبيح يشترك الفكر، واللسان، ومنها يخترق القلب، ويخلق جواً من الإيمان تطمئن له النفس، ويسري في العروق، ويمهّد للبحث عن المزيد الذي يتحول الى قراءة القرآن، والبحث عن كل معنى فيه، والتأمل في الخليقة، والاطلاع على عجيب الصنعة، والقدرة الإلهية... وينتهي بالسجود إيماناً، وخضوعاً، واستكانة لله.

وهنا نبدأ باكتشاف عظمة الله (العظيم)، وتكبر هذه العظمة، ويزيد التصديق، ويتنامى الخشوع... حتى يذوب الفرد في الله، ويشتاق إليه. والشوق والمحبة لله باب الإيمان الصحيح، وطريق النجاة.

وجميع عناصر الإيمان ووجوهه ومعانيه نجدها متمثلة في القرآن الكريم. وهو الذي يحمل إلينا الإرادة الإلهية كاملة، ويطلعنا على شيء من الغيب، ويرسم لنا طريق الحقيقة، والمعرفة، وطريق النجاة. وهو الذي جاء به الرسول الأعظم (ص)، وحمله للناس، وهو البشير والنذير.

وهذا القرآن هو الذي لم يصدّق به القرشيون خاصّة، كما لم يصدّقوا بالنبي.

وفي سبيل هداية هؤلاء الكافرين المكذبين، وبروح الرحمة والشفقة، والرغبة في هداية الناس... يأتي الحديث عن القرآن، ويأتي القَسَمُ ليؤكد لهم صدق النبي، وصدق القرآن، وليفهمهم الغاية منه، ويعلّمه بعض صفاته...

أما القَسَم: فهو هنا قَسَمٌ غير مباشر. إذ تقول الآية ٧٤ من السورة المباركة: "فلا أقسم بمواقع النجوم". أما عدم القسم بمواقع النجوم فهو كما ذكرت التوبة ٧٥ "وإنه لقسم ـ لو تعلمون ـ عظيم".

ومن أين تأتي هذه العظمة؟ لا شك ـ والله أعلم بما خلق، وكيف دبّر هذه الخليقة. ولعل النجوم في مواقعها وعلاقاتها بعضها ببعض، وما فيها من الأسرار، وفي أهميتها للكون والوجود... فقد أودعها الله تعالى أسراراً كثيرة، لا يعرفها الإنسان. وإذا هو عرفها لا يحتملها عقله المحدود، وقد يُجَنُّ لذلك ويذهب عقله، وقد ينكر ما يسمع... فيكون الاطلاع على هذه الأسرار في غير صالح الإنسان. وقد يكفر بكل شيء. ومن هنا تصير هذه الأسرار من العلم المضنون به على غير أهله. وفي ذلك مصداق الحديث الشريف: خاطبوا الناس على قدر عقولهم. أتريدون أن يُكذّب الله ورسوله؟.

فهو قَسَمٌ عظيم إذن، وجاء هذا القسم مستبعداً بـ (لا)، وهذا الاستبعاد هو بسبب عظمته.

وعلام هذا القسم؟

القسم: "إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسّه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين."

فهذا القرآن كريم بأن فيه كرامة للإنسان، إذ بقراءة القرآن، وحفظه، والتفكر بآياته، والعمل بشريعته، والأخذ بأوامره ونواهيه... ما يجعل الإنسان كريماً في أخلاقه، وفي صفاته، وفي تصرفاته، وأعماله....

وهو كريم: لما له من شأن عند الله، إذ أنه كتاب سماويّ يحمل رسالة السماء الى أهل الأرض. وهو "الكتاب" الذي أنزله على رسوله كاملاً، مكملاً لا نقص فيه "ما فرطنا في الكتاب من شيء"، وجعله مصدقاً للكتب السماوية جميعاً ومهيمناً عليها: "وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه.". المائدة الآية ٤٨. وهو كتاب "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد." فصلت الآية ٤٢. وقد حفظه الله تعالى وضمن له الخلود، ومنع عنه اعتداء المعتدين وعبث العابثين: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" سورة الحجر الآية ٩. ثم إن فيه شريعة الله تعالى، و"نزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء" النحل ٨٩. وفيه إصلاح الفاسد، وتبيان المعتل، وتقويم المعوّج، وتحديد الصراط المستقيم... وهذا القرآن الكريم محفوظ عند الله في السماء "في كتاب مكنون" محفوظ عند الله تعالى في (اللوح المحفوظ) سورة البروج الآية ٢٢. وهذا القرآن الكريم "لا يمسّه إلا المطهرون".

فهذه الكرامة عند الله، وهذه المكانة العظيمة للقرآن الكريم، ونظراً لمصدره من عند الله، ولمحتواه العظيم، ولمكانته الرفيعة، والشريعة المقدسة التي حواها، وذكر الله فيه، والتعبير عن الإرادة الإلهية المقدسة... كل ذلك جعل القدسية للقرآن الكريم تتجاوز اللفظ الذي قد لا يدخل في الآذان، ويتجاوز الأفهام التي لا تنفذ الى القلوب، كما تتجاوز الشعارات التي يرددها أصحابها ولا يفقهون منها شيئاً... ليصير التعاطي مع القرآن الكريم تعاطياً خاصاً. وهو في طهارته وقدسيّته يفرض أن يكون من يحمله، أو يقرأه، أو يلمسه... طاهراً، مطهّراً "لا يمسّه إلا المطهّرون". والمطهّرون تقتضي أن يكون من يتعاطى مع القرآن وبه قد حصل على مرتبة التطهير من عند الله، والذي استطاع أن يطهّر نفسه من الشوائب صغيرها وكبيرها، فطهّره الله بعد أن استعدت نفسه لأن تنزل عليها نعمة الطهارة. وهو لم يقل المتطهّرون، بل قال: المُطهَّرون.

وفي الحديث عن هذه الآية أقوال كثيرة لا نرى أن نخوض فيها.

ولا يطول الوقت حتى يأتينا في القرآن الكريم سبب فرض هذه الطريقة في التعامل مع القرآن الكريم، وهو "تنزيل من ربّ العالمين". وفي هذه الجملة أيضاً تبيان موضوع القسم وهو التأكيد على أن القرآن الكريم من عند الله.

ثم يأتي بعد ذلك موقف ملفت للنظر، وهو موقف المشركين من القرآن الكريم. فتسأل الآية الكريمة ٨١: "أفبهذا الحديث أنتم مدهنون"؟ والمُدهن في اللغة من يظهر خلاف ما يضمر، ومن يخادع ويغش... والسؤال: هل

يمكن لكم بعد كل ما عرفتم من الحديث عن القرآن الكريم ألا تقتنعوا بما تسمعون، وما يقدّم إليكم من التفسير والتوضيح بشأنه.

ثم: ألم يكن ما علمتم من شأن القرآن الكريم كافياً لكم ليهديكم طريق الحق والصواب، فتقلعوا عن المداهنة والكذب والنفاق؟

ثم: أليس الذي رأيتموه وشاهدتموه وسمعتموه كافياً لأن يكشف حجب الظلام عن عقولكم وأفئدتكم، وقلوبكم؟

ثم: إذا كنتم تكذبون فتظهرون أمام الناس على موقفين مختلفين، بحسب الجماعة التي تكونون فيهم، ألم يئن الوقت لتتخذوا موقفاً واحداً ثابتاً مبنياً على قناعاتكم وما عرفتم من الحق؟

وهنا تأتي الآية الكريمة ٨٢: "وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون". وهذا يدل على موقف سابق للكافرين، وهو أنهم يعتبرون أنفسهم تجّاراً يسعون وراء الرزق. وفي مفهومهم أن الرزق القائم على الصدق دونه عقبات، وأن الرزق الأوفر يقتضي الكذب، والكذب عندهم وسيلة لقرع أبواب الناس جميعاً، وبهذا تزيد الأرباح...

وفي هذه الآية ملامة للكافرين، وتأنيب لهم. ودعوة الى التصديق بالرسالة، والإقلاع عن الكذب بالمطلق، والسعي في طلب الرزق الحلال، واعتماد الصدق أسلوباً في الحياة، وعقيدة يحافظ عليها الإنسان. وفي الآية ٥٧ من هذه السورة الكريمة (الواقعة): "نحن خلقناكم فلولا تصدّقون." والتصديق في حدّ ذاته إيمان، ومثوبة الإيمان الجنة...

بسم الله الرحمن الرحيم

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ
وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠)فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ
أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ
مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ
بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)

٨٣- بلغت الحلقوم: كادت الروح تخرج من الجسد.

٨٦- غير مدينين: غير مبعوثين يوم القيامة.
٨٩- رَوْح: راحة وطمأنينة.
- ريحان: رزق كريم.
٩٢- فنزل من حميم: فضيافته فيها ماء ساخن...
٩٤- تصلية جحيم: أن يكوى بنار جهنم.

- وتتصاعد الدعوة الى الكفار والمعاندين الى الإيمان بالقرآن الكريم، بعد تبيان قيمته، وصفاته، وقدسيته، وهيبته، وأصول التعامل معه والحفاظ عليه، تتصاعد تلك الدعوة لتبلغ القمة، وترسم مشهداً من مشاهد الحياة، وهو مشهد حاسم، حين تقترب ساعة الموت وما يحدث للإنسان، ثم تتابع وصف حالة هذا الإنسان بعد الموت، وما يكون مصيره الذي يلقاه، وذلك بحسب ما كانت عليه حاله في الحياة الدنيا.

والآية ٨٣ ترسم صورة للإنسان الذي يعاني من سكرات الموت، وعبّر عن هذه الحالة بقوله تعالى: "فلولا إذا بلغت الحلقوم" أي كادت الروح تخرج من الجسد. ولولا هنا بمعنى: لو كنتم قادرين، أو لو أتيح لكم ذلك. ومعناها أن هذه اللحظات تشكل الحدّ الفاصل للإنسان ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. أما الحياة الدنيا فإنهم يعرفونها، ويرونها. وأما الحياة الثانية (الآخرة) فالأخبار عنها قليلة، إلا ما جاء في القرآن الكريم، كما ورد في سورة الأنبياء الآية ١٠٣ "وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون" وفي سورة الأنفال الآية ٥٠: "ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق." وفي سورة الأنعام الآية ٩٣ "ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون. ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون."

هذا بالإضافة الى الأخبار المروية عن هذه اللحظات، وما تكون حالة المؤمن، وحالة الكافر...

كل هذا يرسم صورة عن حالة الكافر، وما فيها من المهانة والخوف والرعب والذلة والهوان... وتنكشف للميت الصفحة الأولى من صفحات الآخرة، فيصاب بالذهول. وبعضهم من يربط بين جحوظ عيني الكافر، وصور العذاب التي تنتظره، ويرون في هذا الجحوظ صورة من صور الذهول والرعب الشديد...

في هذه الأثناء، وأهالي ذلك الكافر المحتظر يحيطون به من كل جانب، ولكنهم لا يرون شيئاً مما يراه. ويظنون أنهم الأقرب إليه، وأن باستطاعتهم تخفيف آلام الموت ورعبه وتداعياته عليه. ولكن الآية الكريمة ٨٥ تبلغهم: "ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون". ومن يرى ليس كمن لا يرى. وفي الآية: أن أمر هذا الرجل بين يدي الله تعالى وملائكته، والله يأمرهم وهم ينفذون تلك الأوامر. والمرجع الوحيد هو الله تعالى، والإنسان من الأهل والأقارب والأصحاب، والأطباء... لا دور لهم، ولا منفعة ترتجى منهم.

- ثم تنتقل الآيتان ٨٦ و ٨٧ الى موضوع آخر، حيث ورد فيهما: "فلولا أن كنتم غير مدينين. ترجعونها إن كنتم صادقين." والمعنى: أنتم مدينون، أي محاسبون. والحساب يقتضي كل هذه الأمور حضور الملائكة، وأخذهم للكافر مكبلاً، يضربون وجهه وقفاه...

هذا الموقف المرعب كان يمكن أن يفرّ منه الكافر ويعود الى الحياة الدنيا لو أن المحاسبة غير واردة. فهل يستطيع أحدكم ـ والخطاب موجه للكافرين ـ أن يعود الى الحياة الدنيا. والاستنتاج أن كل ما تقولونه بشأن الحياة والموت، والدينونة كذب منكم وافتراء على الله.

إذن فالحساب لا بُدّ منه. وفي سورة الملك الآية ٢: "خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً." وعند الحساب يكون الناس ثلاثة أقسام: وهنا يتسعيد التقسيم الذي ورد في أول السورة:

<u>القسم الأول</u>: فأما إن كان من المقرَّبين: (السابقون السابقون)... وجزاء هؤلاء: رَوْح وريحان وجنة نعيم: ومعناها: نعيم، وراحة، ورفاهية، وسعادة... وجنة فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

<u>والقسم الثاني</u>: أصحاب اليمين: وأما إن كان من أصحاب اليمين. وجزاء هؤلاء: فسلام لك من أصحاب اليمين، ومعناها أن هؤلاء يعيشون في حالة من الأمن والطمأنينة والسلام يحسدهم عليها أهل الدنيا، ويتمنون أن يكون لهم مثل هذا السلام الذي يرفل فيه أصحاب اليمين.

<u>والقسم الثالث</u>: أصحاب الشمال، أو أصحاب المشأمة. وهم هنا: المكذبون الضالون.

وجزاؤهم: نُزُل من حميم، أي أن مصيرهم الى النار. وهي نار حامية، يصطلون بنارها، ويكابدون من عذاباتها...

- وتنتهي السورة الكريمة: إن هذا لهو حق اليقين.

ويعود التوكيد هنا على صدق هذا الخبر: بـ (إنّ)، ثم باللام (لهو). وكل هذا الحديث الذي سمعتموه ـ من أول السورة الى آخرها لهو: (حق اليقين) أي هو اليقين حقاً لا مراء فيه.
وهو حق ويقين وليس ظناً وتخميناً.

- ثم ينتقل الخطاب الى الرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة والسلام وعلى آله الطيبين الطاهرين: "فسبح باسم ربك العظيم".

وفيها: ـ دعوة للثبات على ما هو عليه من نشر الرسالة،
ـ والوعد بأن يكون في منجاة مما يصيب الكافرين.
ـ ووعد بالنصرة والتثبيت.
ـ وتذكر بأنك تعبد ربك العظيم الذي ليس كمثله شيء. خالق السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير. وأن إرادته هي النافذة في الخليقة، وأن كلمته لا تعلوها كلمة وأنك: على الحق المبين.

- ٨ -

شرح سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي
خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ
الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ
ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)
وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)

٢ـ ليبلوكم: ليختبركم.
٣ـ تفاوت: اختلاف وتناقض.
ـ فطور: خلل.
٤ـ كرتين: مرة بعد مرة.
٥ـ ينقلب: يرتدّ.
ـ خاسئاً: فاشلاً، عاجزاً.
ـ حسير: كليل.
ـ رجوماً: حجارة ترمى بها الشياطين.
ـ السعير: نار جهنم.

- عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في ذكر سورة الملك (تبارك) أن من قرأها فكأنما أحيا ليلة القدر. وهي الواقية، والمنجية من عذاب القبر لصاحبها. وعن الصادق عليه السلام: من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطاب، ولم يكتب من الغافلين. وهي المانعة من عذاب القبر، ومن قرأها قبل أن ينام لم يزل في أمانه تعالى حتى يصبح. وهو في أمان الله تعالى حتى يدخل الجنة.

وفي هذه السورة الكريمة تبيان لقدرة الله تعالى، وعظمة خلق الكون الذي جاء في غاية التنسيق والتآلف بين أجزائه... كما أن فيها دعوة الى التأمل في هذا الخلق لتستبين له عظمته... وفيها أيضاً وعظ، وإرشاد، وتوضيحات مختلفة في كثير من قضايا الخلق.

- تبدأ السورة الكريمة بالتحدث عن ذات الله تعالى، فتصفه بأمرين:

١ـ بيده الملك،
٢ـ وهو على كل شيء قدير.

أما الصفة الأولى: (بيده الملك) فهي التأكيد على أنه ملك هذا الكون كله، ومالكه، وبيده مقاليد السموات والأرض... بحيث تبيّن أن الكون كله طوع يده، ولا سلطة لأيّ كان عليه غير الله. وأنه الحاكم المطلق، وان إرادته وحدها هي النافذة في الكون، وهو الذي يتصرّف بهذا الكون على حسب ما تقتضي إرادته، وما يراه مناسباً، وما به تتمّ الغاية من الخلق، وتضمن بقاءه واستمراره.

وأما الثانية: (وهو على كل شيء قدير)، فهي استكمال للأولى (بيده الملك). إذ أن هذا الملك العظيم يقتضي قدرة عظيمة لا حدود لها، حتى لا يخرج عنها أيّ حدث من الأحداث، ولا يعوزها شيء لوضع الأمور في نصابها.

أما قوله تعالى تبارك الذي بيده الملك، فإنه يستوقفنا الفعل (تبارك) وهو فعل لازم، وصيغته (تفاعل) تدلّ على الاكتفاء الذاتي، دون الحاجة الى ما يأتي من خارج. وتفيد بأن البركة حالة فيه، نابعة منه، دائمة دون زوال... وأنها مستمرة، وفيها تقديس للخالق، وإشارة الى ما يصدر عنه من البركة التي يستفيد منها الخلق، وتحيط الكون كلّه بجو من البركة، والفضل، والنعم حتى تتم الغاية من الخلق...

- ثم يأتي بعد ذلك في الآية الثانية: "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور".

وفي هذه الآية الكريمة توضيح لقضية هامّة من قضايا الخليقة، وهي خلق الموت والحياة، والتي كثيراً ما يشكل على الناس فهمها... وتفسّر الآية الكريمة هذه القضية على أنها:

١ـ ابتلاء (اختبار) من الله تعالى للناس، والغاية منه تصنيف الناس درجات في قربهم من الله تعالى. فالأحسن عملاً هم الأقرب الى الله...

٢ـ ويتوقف على هذه الأعمال تحديد موقع الإنسان في الحياة الآخرة، فالأقرب الى الله هم الأوفر حظاً في الآخرة، والأكثر سعادة...

وفي طرح هذه القضية (محاسبة الناس على أعمالهم) برهان على ما ورد في الآية الأولى (بيده الملك)، إذ لا يمكن أن يكون حساب وعقاب إلا بيد من يقدر على ذلك، ويعرف مراتب الأعمال، وبالتالي يعرف مراتب العاملين، ويقدر على تصنيفهم.

ثم تخلص الآية الكريمة الى القول: وهو العزيز الغفور. وفي هذا تثبيت لأمرين:

الأول: العزة لله، بما تعنيه هذه العزة من المجد والعظمة، والقدرة، والرفعة، والعدالة، والإنصاف، والكبرياء...

والثاني: الغفران (الغفور). وكأنما أراد ـ جلّ شأنه ـ أن يطمئن العباد الى أن العزة لا تمنع من الرأفة بالعباد، والرحمة لهم، والإشفاق عليهم، ومسامحتهم في أمور كثيرة، شرط ألا تتجاوز تصرفاتهم حدود الله، وأن تكون خطأً عابراً غير مقصود، ولا يصرّ عليه المخطئ، وإنما يسارع الى استغفار ربه، والتوبة عما ارتكبه من هذه الأخطاء.

والغفران هو أيضاً مما لا يكون إلا للقادر على العقاب. وذكر الغفران هنا لتثبيت الملك لله وحده، لأن غيره لا يمكن أن يفعل فعله، ويعفو عن المخطئين.

- وتأتي الآية الثالثة: "الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور".

وهذه الآية أيضاً تأتي في سياق إظهار عظمة الخالق، في موضوع آخر، يخرج عن نطاق خلق الإنسان وهو من مخلوقات هذا الكون، لينظر في خلق هذا الكون ذاته، وهو من مجالات الخلق الذي تظهر فيه عظمة الخالق: وقصد الى خلق السموات، فقال فيها:

ـ الذي خلق سبع سموات طباقاً:

والمقصود بهذه الصورة الخلق المركب من عناصر مختلفة (سبع سموات). ثم إن هذا الخلق جاء "طباقاً"، بحيث أن كل طبقة تمتاز بخصوصيات مختلفة عما تمتاز به طبقة غيرها.

وذكر هذا (الطباق) له غاية، وهي أن يبيّن أن كل طبقة من هذه الطبقات تنتظم مع رفيقاتها ضمن إطار واحد، ونظام واحد للخليقة. يثبت وحدة الخالق، وقدرته على تنسيق الخليقة على نحو ما يريد، وعلى أكمل نظام، وأتمّ انسجام.

ومن هنا يأتي تحدي الخالق للمخلوقين في دعوتهم الى التأمل في هذا الخلق بعد أن وصفه لهم: (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)، ولإثبات ذلك الانسجام وعدم وجود التفاوت بين الطبقات، يأمر الله تعالى الإنسان: (فارجع البصر هل ترى من فطور). والسؤال هنا: هل ترى من فطور يدخل ضمن نطاق التعجيز ليؤكد للإنسان أنه لن يرى في هذا الخلق من تفاوت. وهنا تفيد (من) أنه لن يرى أيّ نوع من أنواع التفاوت أبداً.

ويستمر التحدي، بعد أن نظر الإنسان فلم يجد ما يبحث عنه من هذا التفاوت. والتحدي يكمن في قوله تعالى: "ثم ارجع البصر كرّتين" وهو طلب بمعاودة النظر مرة بعد مرة، وليس مرة واحدة... ليتأكد له قول الله تعالى.

وبعد الكرتين لا يسأل الله تعالى الناظر: هل رأيت فطوراً، بل يجيب مباشرة: "ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير". فخسيء منك البصر: فلا هو رأى تفاوتاً. ولا هو قادر على أن يحيط بكل ما خلق الله تعالى.

وكل ذلك التحدي لإثبات قدرة الله وحده على الخلق، وعلمه التام بما خلق، وانسجام هذا الخلق على تفاوت أجزائه، وعجز الإنسان عن العثور على "عيب" واحد في هذا الخلق... وبعد كل ذلك لا مهرب من الإقرار بقدرة الخالق، ووحدانيته، و... تقديسه.

- بعد هذه النظرة الإجمالية الى السماء في تكوينها من "سبع سموات طباقاً"، وتحقيق الغاية المرجوة من إثبات التناسق بين المخلوقات، وانتظامها في نظام الخليقة الكونية، دونما نشاز ولا تفاوت... مما يثبت وحدانية الخالق تعالى وقدرته... ينتقل المشهد الى السماء الدنيا في الآية الخامسة: "ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين". وفي هذا وصف لهذه السماء في ما تبدو عليه من الجمال الذي يتمّم عملية الخلق، بحيث أن هذا الخلق قد جاء في غاية الجمال الذي يعجز أيٌّ كان على أن يخلق مثله. ونظرة واحدة الى هذه السماء الدنيا في ليلة صافية مقمرة، وفي كل ليلة، كافية أن تسلب عقل الرائي والمتأمل في هذه المخلوقات التي كيفما نظر الإنسان إليها، يستطيع أن يدرك هذا الجمال الذي يأسر قلبه وعقله، وقد يأخذه الانفعال بهذا المشهد الذي يكفي ليكون وحده الدليل الى الله. فكيف إذا استنجد الإنسان بآلات الرصد، ورأى من عجيب الخلق ما يتحدث عنه العلماء والباحثون... وتراءت لهم تلك المصابيح وهي تنير ظلام الليل، وتبدو بمنظر لا يدرك مقدار جماله، وعمق هذا الجمال وأبعاده إلا من يشاهده...

وهذه الزينة لها وظيفة في الخليقة، إذ جعلها الله تعالى وسيلة من وسائل انضباط الخليقة ضمن الحدود التي يجب أن تنضبط بها... فكانت هذه المصابيح رجوماً للشياطين. وذلك ضمن تصوير حدود عناصر الخليقة فلا يتجاوز أحد منها هذه الحدود، وضمن تصوير ما يمكن أن ينال المخالفين من العقاب، ومن هؤلاء الشياطين الذين يسترقون السمع، فأتبعهم الله تعالى بتلك الشهب الرادعة، على نحو ما ورد في الآية ١٨ من سورة الحجر، والآية ١٠ من سورة الصافات. وكل ذلك لا يمنع عن هؤلاء المخالفين للإرادة الإلهية مما أعدّ لهم من عذاب جهنم يوم القيامة "وأعتدنا لهم عذاب السعير.".

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا
فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ
كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا
بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا
كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا
لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)

٨ـ تَمَيَّزُ: تتقطع.
ـ الغيظ: شدة الغضب.
ـ خزنتها: حراسها من الملائكة.
١١ـ سُحْقاً لأصحاب السعير: بعداً لهم. أبعدهم الله وأبلاهم.

- بعد الحديث عن عقاب الشياطين الذين يسترقون السمع، وتوعّدهم بما حضّر لهم من عذاب جهنم (السعير)، تنتقل الآية الكريمة (الآية السادسة) الى الحديث عن هذا العذاب الذي ما أعدّه الله تعالى للشياطين وحدهم، بل إنه أعتد هذا العقاب للذين كفروا بربهم أيضاً، ويقول عنه "بئس المصير" فهو إذن مصير بائس، سيّئ، ومن أشد المصائر سوءًا للذين كذبوا بآيات الله تعالى، وخالفوا إرادته، وتجاوزوا حدوده.
- وفي الآية السابعة صورة من صور جهنم وهي (تستقبل) هؤلاء الكافرين. تستقبلهم بشهيق يسمعونه فتطير له عقولهم، لما فيه من إظهار الغضب منهم، والحقد عليهم، والكراهية لهم، وحب الانتقام منهم... هذا في مشهد أول مسموع. وفي مشهد ثانٍ يرونه بأعينهم وهو فوران جهنم وهم يغوصون في أعماقها وهي تغلي، وتفعل فيهم فعل النار في قدر عظيم وقد رمى فيه الطابخ ذبيحة، فهي تعركها، وتفتّتها، وتفصل العظم منها عن اللحم... ويرتفع على السطح زبد مخيف... وهي بعدُ لا تكفّ عنهم، ولا تكتفي لهم بهذا الذي أصابهم، بل يستمر الحقد عليهم متمثلاً في تقلبهم في النار في ما يشبه الشهيق عند الإنسان، والزفير أيضاً. ويشتدّ كلاهما باشتداد تأثر من يشهق ومن يزفر، ويدلّ على مدى تأثره بما يجري له. وهذا الشهيق لا يتمثل فقط بتقلّبهم في النار، بل وفي زمجرة هذه النار التي يبدو كأنها كانت تنتظر مثل هذا اليوم لتنتقم من هؤلاء الكافرين.
- ويدخل الكافرون النار أفواجاً. و"كلّما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير". ولا يبدو أن هذا السؤال يأتي من الخزنة على سبيل الشفقة عليهم مما يحلّ بهم من العذاب، وإنما من باب إلقاء الحجة عليهم، وعدم الاستماع الى استغاثاتهم، وتضرّعاتهم، واسترحامهم... ثم رغبة في الاستماع الى الجواب الذي يكون أهم إدانة لهم، وهو الاعتراف بالمعصية لله، وتكذيب المرسلين.

- ويأتي الجواب في الآية التاسعة: "قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء". ويعترفون بموقفهم من المرسلين دون سؤال عن هذا الموقف، وهو الجحود للنبوّات الذي لا يقف عند حد، بل يتجاوز ذلك الى الرد على المرسلين: "إن أنتم إلا في ضلال كبير". أو كأنما يفهم من الآية أن الجواب عن سؤال الخزنة اقتضى رداً منهم على هؤلاء الكافرين، وفيه من الشماتة بهم، كما فيه من تأكيد استحقاقهم لما نزل بهم من العقاب، والذي كان نتيجة للضلال الكبير الذي غرقوا فيه في حياتهم الدنيا.
- وتأتي هنا ملامة الكافرين لأنفسهم بعدما حصل لهم: "وقالوا لو كنا نعقل أو نسمع ما كنّا في أصحاب السعير". فهم هنا يقيّمون علمهم: وهو أن عقولهم لم تكن تدلهم على الحقيقة (فهم لا يعقلون)، وأنهم كانوا يرون من الآيات، ويسمعون من المواعظ وكأنهم لا يسمعونها، أي أنها لا تدخل الى عقولهم وقلوبهم، ولا تمرّ بآذانهم، فحلّ بهم العقاب.
- وينتهي هذا المشهد بالاعتراف بالذنب، وليس بعد الاعتراف بالذنب دليل أكبر ولا أقوى، وتتمّ إدانة الذي يعترف فيشهد على نفسه بارتكاب الجريمة. ويأتي الجواب حكماً قاطعاً دون أن تأخذ الحاكم ولا الشاهد رأفة أو رحمة بالمجرم، بل ينقلب موقفه منه الى حقد عليه، وشماتة به: "فسحقاً لأصحاب السعير"، وفيه طلب تشديد العذاب، واستبعاد للرحمة حتى لا تتخذ طريقها الى هؤلاء، وانتفاء لأي دور أو مكان للشفقة عليهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)

١٢ـ بالغيب: دون أن يَرَوْهُ.
١٣ـ أسرّوا: أخفوه.
ـ بذات الصدور: بما تخبئه الصدور (القلوب).
١٥ـ ذلولاً: تذلّ لكم، لا تمتنع عليكم.
ـ مناكبها: في طرقها...
ـ النشور: البعث يوم القيامة.

- ومن الطبيعي أن ينتقل الحديث بعد ذلك الى ذكر المؤمنين بعد أن كان مداره في ما سبق من الآيات عن الذين كفروا بربهم، في نوع من الدعوة الى المقارنة ما بين الحالتين، لتبيان الخير الذي يناله المؤمنون، وما يكون من عقاب الكافرين، فيكون ذلك عبرة لمن يعتبر.

ففي الآية الثانية عشرة: "إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير."

فالأجر إذن أجران: أجر على الإيمان في زمن الدعوة، إذ يكون المؤمن ممن يعيشون الأحداث في زمنها، ويعاينون صاحب الدعوة من نبي أو إمام، ويسمعون منه فيؤمنون به، وبرسالته... فهذا المؤمن له أجره عند ربه. أما النوع الثاني من الإيمان فهو إيمان بالغيب. ومعناه أن المؤمن يؤمن بالله في غير زمن الدعوة، ودون أن يرى النبي أو الإمام، ودون أن يرى الآيات الإلهية والمعجزات التي تيّسر الإيمان بالله تعالى وبما جاء به الأنبياء. وهذا المؤمن له "مغفرة وأجر كبير".

وهذا التمايز في الأجر بين الحالتين طبيعي ومنطقي، إذ "أن الذين يخشون ربهم بالغيب" قد تكون ظروفهم أصعب، وجهادهم أكبر، وبخاصة جهاد النفس، وبذل الجهد للصمود في وجه الضالين وضلالاتهم أكبر بكثير من سواه.

- وتنتقل الآية ١٣ الى الحديث عن الإيمان، فالإيمان إيمان بالقلب، ويقين وعقيدة، وليس قولاً باللسان، يجهر به الإنسان أو يكتفي به سراً في نفسه، دون أن يكون قد بلغ القلب: "وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور". وهذا معناه أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، وهو "يعلم السر وأخفى" سورة طه الآية ٧.

وقد يكون المراد بهذه الآية بأن من متممات إتقان الخلق وضبط الحياة، والعدالة بين الناس، وصدق العقيدة، والإيمان الذي هو الفارق ما بين الكفر والضلال... يتوقف على هذا الموضوع، وبهذا العلم الإلهي لما تخفيه الصدور لا يكون غلط في الحكم، ولا ظلم لأحد، ولا حصول لأحد على ما لا يستحقه من الأجر والثواب.

- وفي سبيل الردّ على كل من يمكن أن يشكك في العدالة الإلهية، وهي قدرة الله تعالى على ضبطها، ومعرفة تفاصيل كل شيء وأسراره وخفاياه يأتي قوله تعالى في الآية ١٤: "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير". والاستفهام هنا تقريري، وفيه تأكيد على العلم الدقيق بكل شيء، حتى بالأسرار التي يخفيها الإنسان في نفسه. ويستند هذا التأكيد الى أمرين: اللطف والخبرة.

أما اللطف فهو لطف بالعباد، وهذا اللطف يعني مراعاة الحقيقة، وتقدير المنفعة لهم، وما فيه مصلحتهم. ومن نتائج هذا اللطف أن لا يضيع حق، ولا يطمع طامع في ما ليس له فيظلم بطمعه الآخرين.

وأما الخبرة فتعني المعرفة بخفايا الأمور، فالله تعالى يعرف من حقائق الكون والوجود، ومن طباع الخلائق وظروف الخلق، وميول المخلوقات ونوازعها، وغاياتها وأهدافها، وما يجول بخاطر كل منها... ما يجعل معرفة الحقيقة وخفايا الأمور شيئاً سهلاً على الله تعالى.

- أما في الآية ١٥ من السورة الكريمة، وفيها: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور".

وفي هذه الآية نوع من تطمين البشر الى أن الله تعالى لا يريد بهم إلا الخير. وهذه الإرادة هي في مصلحة الإنسان وتخفيف مؤونة الحياة عليه، مما يجعل الحياة مع الإيمان سهلة، ولا يضطر فيها الإنسان الى إضمار النوايا السيئة، والعقائد الفاسدة. فالإيمان بالله هو حصانة للإنسان عن الوقوع في الغلط في معتقداته، وتذليل الأرض له عامل مساعد للحصول على كل حاجاته بيسر وسهولة من هذه الأرض التي خلقه الله عليها.

في القسم الأول من هذه الآية الكريمة: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً"، أي أن الله تعالى قد يسّر للإنسان أمر الاستفادة من الأرض، وجعل الحصول على خيراتها سهلاً عليه. ويكفي التأمل في بعض المناطق الوعرة من هذه الأرض من الجبال والوديان والغابات ليجد فيها من الصعوبة في المسالك، ومن الأهوال والمصاعب في سلوك طرقاتها الوعرة ما يضيع معه الإنسان، ويهلك دون غايته. وسهولتها تتمثل في ما تنبته الأرض من مختلف الغابات التي يحتاج إليها الإنسان، وفي الثمار التي يحتاجها وتشكل مع نباتات الأرض غذاءً كافياً له ولماشيته، ملبياً لحاجاته، ومقيماً لأوده. ومبعداً عنه شبح الجوع... وفي ما يتفجر فيها من الينابيع ما يحميه من العطش، وفي طرقاتها التي جعلها سهلة المسالك عليه لتوصله الى مأمنه، والى الأمكنة التي يستطيع فيها أن يحقق غايته وما يؤلمه في حياته... وذلك كله يتمثل أيضاً في قوله تعالى: "والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها.

متاعاً لكم ولأنعامكم". سورة النازعات الآيات ٣٠ ـ ٣٣. ومثلها في سورة الغاشية الآية ٢٠. وكذلك في سورة الحجر الآيات ١٩ ـ ٢١. "والأرض مددناها لكم وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين."

وأمر الله تعالى بني البشر: "فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور." فهو يطمئنهم الى أن كل ما على الأرض وفيها من رزق الله، وكله مباح للإنسان، ولا يستطيع إنسان أن يمن على إنسان بشيء. ثم يربط ذلك بقوله تعالى: "وإليه النشور" أي أنه هو الذي يعود إليه الناس يوم النشور، أي يوم القيامة، فيحاسب كل إنسان على ما يكون قد اقترفه من الأعمال. وفي هذا القول ـ مع التطمين ـ إنذار وتحذير بالابتعاد عن الشرور، ومخالفة الإرادة الإلهية، وأن يتذكر الإنسان أن هذا كله سوف يحاسب عليه في ذلك اليوم، يوم النشور.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦)
أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ
نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨)
أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ
مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي
يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَنْ يَمْشِي
مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢)

١٦ـ تمور: تضطرب وتموج.
١٧ـ حاصباً: ريحاً تحمل حجارة صغيرة.
ـ كيف نذير: قيمة النذر، وسببها.
١٨ـ نكير: العذاب القاسي المنكر.
١٩ـ ويقبض: يضمُّها.
ـ ما يمسكهنّ: ما يمنعهن من ذلك.
٢١ـ أمسك رزقه: قطعه عنهم.
ـ لجّوا: تمادوا.
ـ عتوّ: استكبار وعناد.
٢٢ـ مكباً على وجهه: منكساً رأسه الى الأرض.
ـ سوياً: معتدلاً، لا يعثر.

- بعد التطمين الذي ورد في الآية ١٥ من هذه السورة المباركة، حتى يطمئن الناس الى رحمته، وعدله، ورأفته بهم... بما يسّر لهم من سبل العيش على سطح هذه الأرض، والتي ختمها بتذكير الناس بالنشور، وهو إحياؤهم بعد الموت لمحاسبتهم على أعمالهم... بعد هذا التطمين جاء التحذير من العقاب في الآيتين ١٦ و ١٧.

وهذا العقاب قد يأتي فجأة، ودون مقدمات، ثم إن كثيراً من الناس لا ينفعهم العقاب، ولا يردعهم عن غوايتهم، على نحو ما ورد في قوله تعالى: "وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً" سورة الأعراف الآية ١٤٦. وسورة الأنعام الآية ٢٥.

وعقاب الله تعالى غير مأمون، بمعنى أن هذا الغضب على من يخالفون ارادته، ويفسدون في الأرض، ويرتكبون الآثام والمحرّمات... لا يمكن أن يُرَدَّ عن هؤلاء المجرمين. وقد يأتي فجأة إذا استحق المذنب العقاب... ثم إن الإنسان يعيش على أمل المغفرة من الله تعالى، وعلى طبيعة النسيان التي تمنعه من الحذر، وعلى التسويف والتلهي عما يحدق به من الأخطار بالأمل، وأحياناً بعدم حمل الأمور على محمل الجد...

- وفي الآية ١٦ "أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور." والأمان هنا العيش في طمأنينة من غضب الله، دون أن يحدد مصدر هذا الأمان. مع العلم أن الله قد حذّر الناس من الاستسلام لمثل هذا الأمان الذي لا يمكن أن يصدر عن الله تعالى للمجرمين. وقد أشار ـ جل شأنه ـ الى هذا الأمر في سورة الأعراف: الآية ٩٩: "أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون".

• ثم يأتي الحديث بعد ذلك عن بعض أنواع العقاب، ومنها ما ورد في الآية ١٦ من السورة المباركة وهو:

١ـ خسف الأرض حتى (تمور) فيتحول سطحها الى ما يشبه حال وجه ماء البحر الذي تتلاعب به الرياح وعوامل أخرى، فإذا به لا يهدأ عن الحركة، ولا يستقر على حال، ولا يأمن الإنسان مع ذلك المَوْر على نفسه...

٢ـ حاصب يأتيهم من كل مكان فيقتلهم جميعاً ...

وقد أشار الله تعالى الى مثل هذا العقاب في الآية ١٤٥ من سورة النحل. كما أشار الى أن وقت هذا العقاب قد يكون في الليل (وهم نائمون)، أو في الضحى (وهم يلعبون) على نحو ما ورد في سورة الأعراف في الآيتين ٩٧ و ٩٨.

وفي تتمة الآية ١٧ "فستعلمون كيف نذير":

١ـ تحذير من الاستهتار بإنذارات الله تعالى لبني البشر، وعدم الإهمال لهذه الإنذارات.

٢ـ وتذكير بما تحتمله هذه الإنذارات من العقاب الشديد الذي لا يدرك الناس مداه إلا إذا حلّ بهم.

• ولا يكتفي الله تعالى هنا بالإنذار والتهديد بالعقاب، بل إنه يقدّم أمثلة من العقاب الذي حلّ بالشعوب السابقة، ودون أن يفصّل. ويترك للناس أن يأخذوا العبرة مما عرفوه من هذه العقوبات التي حلت بعادٍ وثمود وآل فرعون... ويسأل: "فكيف كان نكير". وهنا إشارة الى هذه العقوبات الضخمة. والسؤال لا ينتظر جواباً، وإنما فيه دعوة الى الاتعاظ وأخذ العبرة. ويشير ضمناً الى ضخامة ما حلّ بهذه الشعوب من العذاب العظيم...

• وفي الآية ١٩: "أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهنّ إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير". في هذه الآية أمور منها:

١ـ التذكير بقدرة الله تعالى. هذه القدرة التي لا حدود لها، وهي التي تقدّر الأمور، وتحدّد المواقف، وتخلق العجائب، وتزوّد بعض المخلوقات ببعض القدرات والطاقات التي يقف الإنسان أمامها ذاهلاً، ومنها حركة الطيور في الهواء. هذه الطيور التي تملك قدرات لا يمتلكها الإنسان، من ارتفاع في الفضاء، وتتحرّك فيه جيئة وذهاباً، وارتفاعاً وانخفاضاً، وذلك بحركة الجناحين من قبض وبسط دائمين... ولا تكون حركة هذه الأجنحة من قبض وبسط إلا بإرادة الله تعالى، وهو وحده القادر على إيقافها (ما يمسكهن إلا الرحمن).

وهذه القدرة الإلهية قدرة بصيرة بمعنى أنها تعرف ما تريد، كما أنها تقدّر الغاية المرجوّة، ثم تجعل في المخلوقات قوى وطاقات وقدرات تحقق تلك الغايات.

٢ـ وفيها عتاب للناس الذين يرون هذه المظاهر الطبيعية ويمرّون عليها مروراً عابراً، دون تأمل ولا تفكير في ما يرون، وكأنهم لا يرون شيئاً. مع العلم أن هذه الطيور تملأ السماء، ويتكرّر المشهد باستمرار أمام النواظر، وتبقى هذه الآية من تحليق الطيور في الفضاء ماثلة أمام الأعين التي ترى ولكنها لا تفكر في ما ترى.

٣ـ وفيها ربط بين آية الطير ـ وهي من الآيات العظيمة، وتذكير للناس بأن الخالق الذي دبّر هذا التدبير، وخلق هذه الأعاجيب لا يصعب عليه أن يخسف الأرض إن شاء، أو يرسل حاصباً على الكافرين عقاباً لهم على أعمالهم القبيحة.

- ثم تتتابع الأسئلة عن سبب ذهول الناس عن كل هذه الحقائق الكونية، وذكر الاحتمالات التي قد تكون هي السبب في هذا الشعور بالأمن المكذوب، ومنه ما ورد في الآية العشرين من هذه السورة المباركة:

"أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور."

ومؤدّى هذه الآية أن الإنسان قد يشعر بالراحة والطمأنينة والأمان إذا استطاع أن يؤمن لنفسه حماية خاصة، فاستخلص لنفسه جنداً ينصرونه على أعدائه ويحفظونه من أمر الله. وما هذه الطمأنينة وهذا الأمان إلا باطل في باطل، والانسان الذي يعتقد مثل هذا الاعتقاد هو كافر أولاً، ومغرور بقوته وبنفسه ثانياً، وليس غير ذلك، إذ حصر الله تعالى مثل هذا التفكير بهذا التفسير: "إن الكافرون إلا في غرور"، وفي نوع من وصف للكافرين، وتحديد لأسباب كفرهم وما يدفعهم إليه، وما ذلك سوى الغرور، والغرور وحده.

- وتتابع الآية ٢١ الحديث في هذا الموضوع: في سبب هذا الشعور المكذوب بالأمن: "أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجّوا في عتوٍّ ونفور".

فقد يكون سبب شعور الإنسان بالأمن اطمئنانه بأن عنده من الرزق ما يكفيه ويفيض عن حاجته، ويغنيه عن المسألة. وهذا شعور في غير محلّه لأسباب منها:

١ـ أن الرزق كله بيد الله. "والله يرزق من يشاء بغير حساب" (البقرة ٢١٢) وآل عمران ٣٧، والنور ٣٨. وفي سورة فاطر: "هل من خالق غير الله يرزقكم من السموات والأرض" الآية ٣... وفي سورة الذاريات: "إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين" الآية ٥٨.

وإذا أمسك الله رزقه فما من أحد يرزق الناس غير الله.

وأما الذين يعتقدون غير هذا الاعتقاد، وينتظرون أن يأتيهم الرزق من عند غير الله فقد "لجّوا في عتو ونفور"، إذن فإن هؤلاء قد أوغلوا في الظلال والتجبّر والعناد. كما أنهم أوغلوا في الضلال والبعد عن الصواب ومخالفة الحقيقة. لأن "ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ" النحل ٩٦.

- وتخلص الآية ٢٢ الى نتيجة قائمة على المقارنة بين حالتين: "أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم". وفي هذه الآية:

١ـ أن حالة الإنسان الذي يؤمل في غير الله، ولا يسعى لطلب رضا الله تعالى والحصول عليه، والذي لا يخاف عقاب الله ويطمئن الى غيره من جند وأتباع، وقوة، ومال وفير... هذا مثله كمثل الذي "يمشي مكباً على وجهه" أو الذي لا يرى أبعد من أنفه. أو أنه لا يرى شيئاً أبداً، ولا يعرف ما يدور حوله، ولا تتكشف له حقائق الأمور.

٢ـ وأن الإنسان الذي يهتدي بهدى الله، ويفعل ما أمره ربه، ويطلب توفيقه، ورضاه... فهو الذي يمشي على صراط مستقيم، وهو الطريق السويّ الى جنان الله حيث يدخل في رحمة الله مطمئناً، آمناً من كل مكروه.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
(٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا
رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا
فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا
بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

٢٣ـ أنشأكم: خلقكم.
ـ الأفئدة: مفردها الفؤاد، ويقصد به القلب...
٢٤ـ ذرأكم: خلقكم.
٢٧ـ رأوه زلفة: شاهدوا العذاب قريباً.
ـ سيئت وجوه الذين كفروا: اسودت.
٢٨ـ يجير: يحمي.
٣٠ـ غوراً: ذاهباً في الأرض. دون فائدة.
ـ معين: طاهر، عذب...

- بعد الاسئلة الكثيرة التي طرحت في المقطع السابق من السورة المباركة (الآيات من ١٦ الى ٢٢) والتي تركز على جهالة الإنسان في مواقفه، ومفاهيمه، وتصوراته وأوهامه، والتي ترمي الى تنبيهه الى حقائق الكون والوجود، والتي لها علاقة بحياة الإنسان. واستمراريته، ورزقه، وسلامته، وهدايته... ومن غاياتها توعيته، وإرشاده ودعوته لاتباع الصراط المستقيم، صراط الله تعالى ليمشي على هذه الصراط فيكون في مأمن من العقاب... وحتى لا تبقى هذه الأسئلة دون أجوبة واضحة، وحتى لا تستمر حيرة الإنسان، وتتضح طريق الاستقامة للوصول الى الله تعالى كانت الأجوبة أمراً من الله تعالى في تعاليم سماوية، كلف الله تعالى نبيّه بنشرها، وترسيخها وتثبيتها... ومنها:
- الآية ٢٣: "قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون". وفيها:

أ ـ تذكير بأن الله هو الذي خلق الإنسان وأحياه، وتعهّده... والخلق أفضل من العدم. وشكر الخالق واجب على الإنسان.

ب ـ تعداد لبعض النعم التي أنعم بها الله تعالى على الإنسان كأن جعل له السمع، والبصر، والفؤاد... ويمكن إدراك قيمة هذه النعم وعظمتها عندما نذكر حالة الأطرش، والأعمى، ومن تحجّر قلبه ففقد الإحساس وحسن

التقدير... وما يجرّه ذلك على مثل هؤلاء من الشر والعواقب الوخيمة، وقلة الاستمتاع بالحياة... حتى يقترب من الحيوان، وحتى من الجماد.

ج ـ ملامة الإنسان على جحوده لتلك النعم الإلهية "قليلاً ما تشكرون."

- والآية ٢٤: "قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون". وفيها:

أ ـ هو الذي ذرأكم في الأرض، على نحو ما ورد في الآية ١٥ من هذه السورة المباركة: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور". هذه الأرض التي "وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام" (الرحمن ١٠ و ١١). فتكون الأرض بذلك مستقراً للإنسان "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى" (طه ٥٥) وبما يوحيه كل ذلك من أهمية الأرض في حياة الإنسان مع اختلاف أطوار هذه الحياة، وتجذّره فيها، وتملّكه لها، وتصرّفه بها... حتى صارت منطلق تلك الحياة، وسعادتها، ونهاية المطاف...

ب ـ "وإليه تحشرون". وفيها تذكير بأن كل ذلك لا يدوم، وأن الله تعالى في النهاية يستعيد من الإنسان ما جعله وكيلاً عليه. وأن كل ذلك التملك المؤقت صائر الى زوال، ليستعيد المالك الحقيقي ملكه... كما فيها تذكير بالحساب الذي يجب أن يقدّمه الوكيل الى موكله عن تصرفاته بموضوع الوكالة، وما إذا كان قد أحسن الوكيل في تنفيذ الوكالة أو أساء . وأن هناك حساباً ينتظره على تلك الأعمال، وتذكير ضمني بالعقاب على إساءة الأمانة.

- والآية ٢٥: "ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين". والذين يقولون هم الكفار الذين يحادّون الله ورسوله والمؤمنين... ويأتي سؤالهم متردداً بين شيء من الخوف وعدم التصديق. فهم يسألون عن موعد الحساب، والعقاب...

- وفي الآية ٢٦: "قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين" وفي هذا الجواب:

أ ـ أن الله تعالى وحده يعلم الغيب. وهذا سر من أسرار الكون التي احتفظ بها الله تعالى لنفسه، كما ورد في الآية ١٨٧ من سورة الأعراف "يسألونك عن الساعة أيّان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفيّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون."

ب ـ وأن موضوع السؤال والحساب والثواب والعقاب... هو أيضاً كله بيد الله. وأن النبي ـ أيّ نبي كان ـ مكلف بإيصال ما يأمره الله تعالى بإيصاله الى العباد. ينذرهم بالعقاب، وبين لهم الشرائع، ويعلمهم الأحكام، ويوضح الأمور.

- وفي الآية ٢٧: "فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدّعون." وفيها:

أ ـ أن هؤلاء الكفار يستمرون على الكفر، ونكران الحشر والحساب... حتى يأتي ذلك اليوم.

ب ـ وتصوّر الآية الكريمة تلك اللحظة عندما يأتي أمر الله وكأنها قد حصلت فعلاً، وهذا لتأكيد حصول ذلك فجأة، فيفاجأ به الكافرون، ويكون قريباً جداً إذ لا يكون بين القيامة والحساب وقت ولا مجال للانتقال من الكفر الى الإيمان، ولا باتخاذ التدابير المنجية من العقاب، ولا بالتخفيف منه ... عندها: سيئت وجوه الذين كفروا... أي بدت آثار المفاجأة على وجوههم، فاصفرت، ثم اسودت، ثم تجهمت، ثم حزنت، ثم تألمت، ثم أصابتها الحسرة والندم، والمهانة والذل...

ج ـ وكل ذلك كان يحصل بمشهد من الملائكة الذين يبادرون الى القول لهم في نوع من تحميلهم للمسؤولية عن الأحوال التي حلت بهم، وشيء من الشماتة بهؤلاء الكفار، والفرح بما أصابهم من السوء، والذي كان توكيداً لما كلّف به الملائكة من المراقبة، والتسجيل، والمحاسبة ـ بإذن الله تعالى...

- وفي الآية ٢٨: "قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أورحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم.".

وفي كتب التفسير "أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلى المؤمنين بالهلاك."

في هذه الآية أن الله تعالى أمر رسوله بإبلاغ الكافرين بما يأتي:

أ ـ إن الأمر بيد الله تعالى بأن يرحم عباده أو يعذبهم.

ب ـ وأن الله تعالى هو الحكم في هذا الأمر، فعذابه لنا، أو رحمته لا يقررها أحد سواه.

ج ـ ومهما كان حكم الله تعالى علينا فهل أنكم ـ أنتم الكافرون ـ مُعْفَوْنَ من العقاب.

د ـ ويفهم من هذا كله أن العقاب يكون للكافرين الجاحدين المفسدين في الأرض. وأن من كان مكلفاً من قبل الله تعالى بحمل دعوته للناس لهدايتهم واستنقاذهم من النار، وكلّ الذين اتبعوه سوف يكونون بمأمن من العقاب. وأن الكافرين هم الأجدر بأن ينالهم غضب الله تعالى، ويستحقون العقاب.

هـ ـ وأن هؤلاء الكافرين لن يجدوا من يشفع لهم عند الله، ولا من يدفع عنهم العذاب، ولا من يحميهم من غضب ربهم.

و ـ وأن ما سينال هؤلاء الكافرين سوف يكون عذاباً أليماً.

- وفي الآية: ٢٩ "قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين".

وفي هذه الآية الكريمة:

أ ـ دعوة النبي الى إبلاغ الكفار ثباته وثبات المؤمنين على إيمانهم.

ب ـ وإيمانهم برحمة الله العظيمة (الرحمن) التي تصيب المؤمنين بالرسالات السماوية.

ج ـ وإعلان التوكل على الله تعالى، بحيث أنه بمقتضى هذا التوكل فإن الله لا يخيّب من توكل عليه، وبذلك يؤمل المؤمنين بتسديده لهم في كل أعمالهم وأفعالهم، ومسيرتهم في الحياة دون خطأ ولا ضلال.

د ـ كما أن فيها تحدياً للكافرين: ويتمثل هذا التحدي:

ـ بثبات المؤمنين على عقيدتهم، وشعورهم الثابت بأنهم على صواب.

ـ وبأن الكافرين في ظلال مبين وواضح وظاهر، ولا يحتاج ذلك الى شهادة ولا دليل.

- وفي الآية ٣٠: "قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين".

وينتهي خطاب النبي (ص) للكافرين على نحو ما قامت عليه رسالة السماء في جميع مظاهرها ومواقفها... بأن لا تجعل الحكم مبرماً قبل أوانه، بل أن يبقى النصح والإرشاد، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبالدليل والبرهان القاطع... بحيث تبقى الرحمة الإلهية هي المسيطرة، وهي التي تسبق غضب الله. ويبقى باب التوبة مفتوحاً "لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد". فيأتي آخر السورة بدليل جديد على قدرة الله تعالى، وقوته ورحمته بالعباد، والدعوة بالتوجه الى الله وحده في كل شيء، والإيمان به. أما الدليل فقوله تعالى على لسان نبيّه (ص): "أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين".

وفي هذا أيضاً تحدٍّ لا يقوم على الغضب وحب الانتقام، وقطع الطريق على الذي يتحداه لأن يعود عن ضلاله... بل يقوم على الشفقة والرحمة، والتبصرة، والدعوة الى إعمال العقل، ومحاسبة النفس... للنجاة من العقاب.

- ٩ -

شرح سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)
فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ
الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ
حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
(١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ
عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)

١ـ إذا وقعت الواقعة: إذا جاء يوم القيامة.
٣ـ ليس لوقعتها كاذبة: لايمكن لأحد أن يكذب وقوعها (حصولها).
٣ـ خافضة: تخفض أقواماً الى النار.
ـ رافعة: وترفع أقواماً الى الجنة.
٥ـ بُسّت الجبال: بُسطت.
٦ـ هباءً منبثاً: غباراً منتشراً في كل مكان.
٨ـ أصحاب الميمنة: من أعطوا كتبهم باليمين.
٩ـ أصحاب المشأمة: الذين أعطوا كتبهم بالشمال.

- تحدّث المفسرون عن سبب نزول هذه السورة المباركة، وفي من نزلت، فقالوا: كان المشركون من أهل مكة يتهمون النبي (ص) بالجنون، فبرأه الله تعالى من هذه التهمة "ما أنت بنعمة ربك بمجنون". وقد عرف عنه ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك. فأنزل الله: "وإنك لعلى خلق عظيم". كما أن الآيتين الكريمتين: "ولا تطع كل حلاّف مهين. هماز مشاء بنميم". قد نزلتا في الأخنس بن شريف، أو الأسود بن عبد يغوث...

وقد ذكر أن من قرأ هذه السورة أعطي ثواب الذين حسنت أخلاقهم، ولم يصبه فقر أبداً، وأمّنه الله من ضغطة القبر.

- تبدأ هذه السورة المباركة: "نون والقلم وما يسطرون".

أما (ن) (نون) فأحد الحروف الأبجدية، وقد بدأت به هذه السورة. والله أعلم بالمراد بذلك.

وتجدر الإشارة الى أن هذه الطريقة في بدء بعض سور القرآن الكريم ـ ومنها ما يبدأ بحرف مثل (ق) و (ن) و (ص)، ومنها ما يبدأ بحرفين أو أكثر ـ تأتي كلها في معرض القَسَم. والمراد بهذا القسم تأكيد أمر من الأمور التي تتحدث عنها كل سورة...

أما (ن) فقد ورد عن سفيان الثوري، نقلاً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: أما (ن) فهو نهر في الجنة قال له الله عز وجل: اجمد، فجمد، فصار مِداداً. ثم قال ـ عزّ وجلّ ـ للقلم: اكتب. فسطّر القلم في اللوح المحفوظ

ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة. فالمداد مداد من نور، والقلم قلم من نور، واللوح لوح من نور. [راجع: في ظلال الوحي. شرح سورة (ق) للمؤلف].

والقسم هنا بآية من آيات الله تعالى، وهي التي تتمثل بتعليم الإنسان بالمطلق، ثم بالآلة المستعملة في هذا التعليم.

ـ أما التعليم بالمطلق فهو فضل من الله تعالى تفضل به على الإنسان، فأطلعه على حقائق الكون والوجود، وبعض أسرارها، ليفهم الإنسان بعض هذه الأسرار، ويعقلها، فيزداد إيمانه ويقينه بالله تعالى... ثم يتفكر في ما تعلّمه فيهتدي الى حقائق ترسم له الطريق الصحيح في فهمه لما خفي عليه من الحقائق، وتنير له درب الوصول الى نعيم الله تعالى، وهو الجنة، وذلك بانكشاف هذه الحقائق، ومعرفة الخالق، والغاية من الخلق، واتباع شريعة الله تعالى الموصلة الى ذلك النعيم. ثم باستعمال هذه العلوم لتحسين أحوال معاشه، وتحقيق جزء من السعادة المرجوّة التي يسعى للوصول إليها.

ـ أما الآلة المستعملة لتحقيق هذه الغاية فهي القلم. وهو أداة الكتابة الأولى، كما أنه السبب الأول في الوصول الى المعرفة.

ويجمع القلم بين الآلة وفعلها (ما يسطرون)، لأن الآلة التي لا يكون لها أثر ملحوظ تبقى جامدة، صامتة، خرساء لا فائدة فيها.

وقوله: وما يسطرون: فهو حديث عن أخبار الكون والوجود، وهو حقيقة أرادها الله تعالى بداية للتعلّم، ومبدأً للمعرفة، وأشرف أنواع المعرفة، لأنها تعبير عن إرادة الله تعالى.

وقد ورد الحديث في سور أخرى من القرآن الكريم عن أهمية العلم في تربية الإنسان وتثقيفه، وفي حياته العامة، وعلى نحو ما ورد في سورة الرحمن: "الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان، علمه البيان.". وفي سورة العلق ورد قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم." فهو هنا يتحدث عن القراءة، وفي سورة (ن) يتحدث عن الكتابة "وما يسطرون" والقراءة والكتابة أساس المعرفة. ثم إنه جعل من أهم ما تكرّم به الله تعالى على الإنسان هو تعليمه بالقلم "الذي علّم بالقلم". وأنه ما من كَرَمٍ مهما بلغ قدره أعظم من هذا الكرم. وما من مكرم يستطيع أن يتكرم بمثل هذا الكرم. ومن هنا "وربك الأكرم".

- هذا القَسَم. أما المراد به فهو إثبات ما جاء في الآية الثانية من السورة المباركة: "ما أنت بنعمة ربك بمجنون". وأساس الآية: "ما أنت بمجنون" هذا " بنعمة ربك". فيكون المراد بها نفي مزاعم المشركين، وتأكيد سلامة موقف النبي، ووصفه بأنه في أحسن حالات الصحة العقلية والبدنية، وبالتالي، تأكيد صحة ما جاء به، وصدق أقواله، وتأييده في كل ما يأتيه من الأفعال... وأن ما جاء به هو من عند الله: مداده من نور. والقلم من

نور، واللوح لوح من نور... وكل ما جاء به النبي نور من عند الله... فيكون: نور على نور... في درب طويل هو الدرب الذي أراد الله تعالى للمؤمنين ـ عبر الدهور ـ أن يسيروا عليه. فيكون المنطلق من النور، والمنتهى الى النور.

- ثم تتوالى التطمينات والمكافآت الإلهية لسيّد المرسلين، وأولها: "وإن لك لأجراً غير ممنون". وهو أجر لا ينقطع أبداً، ولا يضعف، وهو من عند الله تعالى. ولا فضل لأحد من الناس عليك فيه. وقد أكّد الله تعالى هذا الأجر مرتين: بـ (إنّ)، ثم بـ (اللام) (لأجراً).

- وثاني التطمينات: "وإنك لعلى خلق عظيم". الآية الرابعة. وهنا يأتي التوكيد مرتين أيضاً، بـ (إن)، ثم باللام (لعلى). أما الوصف فقد جاء واضحاً بسيطاً (عظيم)، ولكنه أيضاً عظيم الدلالة. إذ جعل وصف العظمة مفتوحاً على مداه، ودون حد، بحيث يستغرق فهمه كل معاني العظمة في شتى أنواعها من الكمية، والنوع، واتساعها، ومداها... بحيث لا تبلغها أية عظمة أخرى، ويعجز الإنسان عن وصفها، وتحديد أمدائها.

- ومن التطمينات أيضاً ما ورد في الآيتين الخامسة والسادسة: "فستبصر ويبصرون. بأيكم المفتون". وفي الآية الخامسة وعد للنبي (ص) باتضاح الحقيقة، بحيث يبصرها الناس جميعاً. ويبصرها أصحاب التهمة من الكافرين، كما يبصرها النبي (ص)، ويدرك الجميع أن هؤلاء الكافرين الذين اتهموا النبي هم الذين سقطوا في الفتنة، "وإن جهنم لمحيطة بالكافرين" على نحو ما ورد في سورة التوبة الآية ٤٩.

- ومن التطمينات أيضاً: "إنّ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين" الآية ٧. إذن فتصنيف الناس بين مهتدٍ وضال لا يعود الى بني البشر. وإنما العلم عند الله، وهو يحكم في ذلك ويعلم من هو المهتدي حقاً، ومن هو (في ضلال مبين). كما ورد في سورة النجم الآية ٣٠. وفي هذا دعوة لعدم تصديق الكافرين في كل ما يقولون.

- وفي الآيتين ٨ و ٩: "فلا تطع المكذبين. ودوا لو تدهن فيدهنون". وهنا يأتي التوجيه الإلهي للرسول الأعظم يرسم حدود التعامل مع مثل هذه الجماعات من الكافرين المكذبين، وأصحاب الدعايات الكاذبة المغرضة. والفاء في أول الآية الثامنة: (فلا تطع المكذبين)، تربط ما بين الآيات السابقة واللاحقة، حتى يصير المراد بالكلام: يكفيك تأييد الله لك، ونصرته ورعايته وتسديده. فلا مجال بعد لتصديق المكذبين.

ثم تأتي الآية التاسعة لتبين واقع أولئك الكافرين، وغايتهم من هذه الحملات المسعورة على النبي (ص). إذ كانوا يقصدون من حملاتهم تلك أن يخففوا من موقف النبي (ص) منهم ومن آلهتهم. ويبدو أن حملته هذه كانت قد أثّرت فيهم، وفتحت أعين الناس على حقائق كانوا يجهلونها، وبدأ بعضهم يغيّر موقفه وعقيدته في أولئك

الكافرين وآلهتهم. ولتبيان مقدار هذا التأثير التعبير بكلمة "ودّوا" بما تحمل من الرغبة الدفينة القوية لتحقيق غاياتهم. وتعكس الخوف من النتائج التي تترتب على موقف النبي (ص) منهم...

كما أن هذه الآية الكريمة تصوّر جانباً من أسلوب هؤلاء الكافرين في التعامل مع النبي (ص)، وهو المقايضة في المواقف، فعرضوا على النبي أن يخفف من مواقفه منهم ومن آلهتهم، فيكفوّا عنه ألسنتهم، ويتخذوا منه ومن دينه موقفاً ليناً "ودوا لو تدهن فيدهنون".

- وتتوالى التوجيهات للنبي (ص). ويبدو أن بعض الكافرين كان أشد من بعض في مواقفه من النبي والدين الجديد. وتأتي الآيات ١٠ ـ ١٦ في وصف أحدهم ممن نزلت فيهم بعض آيات هذه السورة المباركة، تأتي لتصوّر حال هؤلاء الكافرين، وسياستهم في مواجهة الإسلام بشتى الوسائل المتاحة عندهم، وأساليب الدعاية المعروفة. وتتمثل تلك السياسة بصفات الواحد منهم، ومن هذه الصفات:

١ـ القَسَم (الحلف) الكاذب (ولا تطع كل حلاّف مهين) الآية ١٠. ويستخدم القسم لتوكيد قول أو فعل بغية تصديق السامع لذلك. وصيغة حلاّف تدلّ على استخدام الحلف (القسم) بصورة دائمة. ونستبين من هذا التعبير نيّة الغش والخداع.

٢ـ والصفة الثانية لتلك السياسة أنه لا يقوم بها إلا كل مهين. وهو الحقير، الذي لا يعرف معنى الكرامة، ويحل لنفسه استعمال كل الأساليب الحقيرة والشريرة من مثل الكذب، وكل أسلوب آخر.

٣ـ وهذا الخصم من صفاته أنه: "همّاز مشّاء بنميم" الآية ١١.

أ ـ همّاز: وهو الذي يكثر من الغيبة، ونقل الأخبار الكاذبة، والادعاء بالباطل

ب ـ مشّاء بنميم: يجهد نفسه في النميمة، فينقل الأخبار من مكان الى مكان، ومن بلد الى بلد، ويحاول الإفساد بين الناس بتحريض بعضهم على البعض الآخر.

٤ـ وهو أيضاً: "مناع للخير معتدٍ أثيم". الآية ١٢.

أ ـ منّاع للخير: لا يفعل خيراً يستفيد منه الناس. وإذا شاهد إنساناً يبادر الى عمل الخير، يحاول أن يمنعه من ذلك. ويدل هذا على نفس حاقدة، تمتلئ بالشر، وتفسد على الناس حياتهم... وروح عدوانية...

ب ـ معتدٍ: وهو الإنسان الذي يعتدي على الناس، ويلحق بهم الأذية من دون ما ذنب اقترفوه.

ج ـ أثيم: وهو الذي يرتكب الآثام، ويعتدي على حرمات الناس، ويخالف الشريعة والقوانين، ويستحل لنفسه كل عمل قبيح.

٥ـ وهو فوق ذلك كلّه: "عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم" الآية ١٣.

أ ـ عُتُلٍّ: وهو غليظ الطبع، سيء الخلق، يأخذ الناس بالشدّة، ويخاصم الناس بالباطل، ويستبيح حقوق الناس، ويمكر بهم، ويحاول أن يلحق بهم الأذيّة بكل وسيلة ممكنة.

ب ـ زنيم: وهو من لا أصل له في قومه، وهو دعيٌّ فيهم، يدّعي أنه منهم، وليس منهم. وهو المعروف باللؤم، وخبيث الطبع... وهذا هو الوليد بن المغيرة؛ ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة. وعن ابن عباس: لا نعلم أن الله وصف أحداً بما وصفه به من العيوب، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً، وجعله سخرية الناس جميعاً، ذليلاً في قومه، مرفوضاً حقيراً...

٦ـ وهو من أغنياء قريش وأصحاب القوة والجاه: "أن كان ذا مال وبنين" الآية ١٤.

وتتمثل قوته وجاهه بأمرين:

أ ـ الغنى (ذا مال): والمال ـ كما هو معروف ـ هو عصب الحياة عند عامة الناس، وبه تستقيم أمورهم، ويحصلون على ما يريدون، ويعيشون في هذه الحياة الدنيا حياة اللذة والسعادة... وكل ذلك على مستوى ما يفكرون به، وبمستوى ما وصلت إليه مفاهيمهم العامة في الخلق والحياة والثواب والعقاب...

وقد عرض القرآن الكريم الى هذا الأمر، واتخذ موقفاً واضحاً تمام الوضوح من المال وما يفكر به الناس في موضوع المال: ومنها ما جاء في سورة الكهف الآية ٤٦: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا". ولكن إنعام الله تعالى على الإنسان بالمال ليس معناه تكريم الإنسان صاحب المال. على نحو ما ورد في سورة (المؤمنون) الآية ٥٥: "أيحسبون أن ما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون.". وفي سورة الليل، الآية ١١ " وما يغني عنه ماله إذا تردى". وفي سورة المسد: "ما أغنى عنه ماله وما كسب..." الآية ٢.

وفي نص الآية الكريمة: "أن كان ذا مال وبنين" يبدو الاستخفاف بتلك العقيدة التي كان يعتقدها ذلك الكافر الوليد بن المغيرة، ونرى العبارة تعبر عن سخرية بهذه الأفكار ومن يعتقد بها، لأن المال قد يكون من أعدى أعداء الإنسان، وقد يورده موارد التهلكة على نحو ما في الآية ٢٨ من سورة الأنفال: "واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة..." وفي سورة سبأ: "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى" الآية ٣٧. ومثلها في سورة التغابن الآية ١٥. كما حذر الناس من أن أموالهم لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وذلك في أماكن متعددة من القرآن الكريم.

ب ـ والبنون: وهم يشكلون العنصر الثاني من عناصر العزة التي يشعر بها الناس. وقد رأينا في ما سبق من الآيات كيف أنه جمع بين المال والبنين، واعتبر أن الاثنين لا يغنيان شيئاً عن الإنسان إذا لم يكن إنساناً صالحاً، يعرف كيف يستفيد من المال والولد، يحسن التصرّف بالمال، وبما يرضى به الله، ويحسن التنشئة لأولاده ليكونوا أناساً صالحين، يخدمون المجتمع، ويستفيد منهم أهل زمانهم...

- وتتابع الآية ١٥ من السورة المباركة وصف هذا الرجل الوليد بن المغيرة، في ما كان عليه من الكفر والعناد والضلال، فتقول فيه: "إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين". ويظهر من قوله هذا عدم الإيمان، وعدم التصديق، والاستهتار بكل شيء...
- وبعد كل هذه الأوصاف التي وردت في حق هذا الرجل، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، وإنما انتقلت الآية ١٦ من السورة المباركة الى وصف ما سيناله هذا الرجل من العقاب على مواقفه وأقواله وأعماله، واعتداده بنفسه، وبماله وأولاده. فتقول فيه: "سنسمه على الخرطوم."

ونتخيّل هذا العقاب الذي قد يبدو بسيطاً، ولكنه فاضح جداً للرجل، فلنتخيّل رجلاً احترق أنفه، أو اكتوى بالنار، فتركت النار أثرها في أنفه، وهذا الأثر يراه كل الناس، لأن الناس ينظرون الى وجه الإنسان عندما يلقونه، وأول ما يشاهدون وهم ينظرون الى وجهه تلك العلامة التي تقول لمن يراه: هذا كافر فاحذروه. وهذا معاند لله ورسوله... هذا بالإضافة الى ما في هذه السمة على أنفه (الخرطوم) من المنظر القبيح الذي تشمئز منه العين، وتكرهه النفس، وتستعيذ من كفره الجوارح كلها، ويتشاءم منه كل من يراه...

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ
رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا
مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ
(٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ
عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ
أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا
إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ
(٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا
خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ
الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)

١٧ـ بلوناهم: اختبرناهم.
ـ ليصرمنها: ليقطفنّ ثمارها.
ـ مصبحين: في الصباح الباكر.
١٨ـ ولا يستثنون: لا يقيمون اعتباراً لشيء.
١٩ـ طائف من ربك: حريق سلطه الله عليهم.
٢٠ـ كالصريم: كأنه الطوفان.
٢١ـ فتنادوا: راحوا ينادي بعضهم بعضاً.
ـ مصبحين: عند الصبح.
٢٢ـ أغدوا على حرثكم: اذهبوا باكراً الى جنتكم.
ـ صارمين: لقطع الثمار.
٢٣ـ يتخافتون: يتحادثون بصوت خافت.
٢٥ـ وغدوا على حرد قادرين: صار في مقدورهم منع الفقراء من دخول جنتهم.
٣٠ـ يلوم بعضهم بعضاً.
٣٢ـ راغبون: نشكو أمرنا لله.

- ثم يشمل الحديث أولئك الرجال الثلاثة ومن شاكلهم، واعتقد مثل ما يعتقدون، وكانت له مثل مواقفهم، وآرائهم من الدين والعقيدة، والقرآن والنبي (ص). والذين تتحدّث عنهم هذه السورة المباركة بأسلوب المثل، فتقول إن حالهم كحال أولئك الجماعة الذي امتحنهم الله تعالى فرزقهم مالاً وأولاداً، وقد فشلوا في الامتحان، فلا بقي مالهم، ولا نفعهم أولادهم الذين ضلوا هم الآخرون، وفسدوا بأخلاقهم الفاسدة، بسوء تدبيرهم، وبعدم الالتزام بأوامر الله تعالى، فلا هم خيراً كسبوا، ولا أموالهم حفظوا، لا أجراً اكتسبوا...

أما تفاصيل ذلك فترويها الآيات ١٧ ـ ٣٢. وذلك على النحو الآتي:

هو رجل أفاض الله عليه بالمال، فكانت له جنّة فيها من كل شيء، وخيرها وفير؛ فكان إذا قطف ثمارها لا يدخل منزله شيئاً من تلك الثمار حتى يعطي كل ذي حق حقه، من العمال وأصحاب الحقوق الأخرى، وذلك تقوى لله تعالى، وحرصاً على تأدية الحقوق الى أصحابها قبل أن يأخذ لنفسها منها شيئاً.... ولما توفاه الله، ورثه أولاده،

وكانوا خمسة بنين. وفي تلك السنة التي قُبض فيها أبوهم، حملت تلك الجنة من الثمار حِملاً وفيراً لم تحمل مثله من قبل.

وفي يوم، وبعد صلاة العصر قصدوا الى تلك الجنة، ورأوا من خيراتها ما لم يروه من قبل. فسرّهم ذلك كثيراً. فقال بعضهم لبعض: إن أبانا كان شيخاً كبيراً، ذهب عقله وخرف، فكان يبذل أمواله دون وعي منه... واتفقوا على أن لا يعطوا أحداً من الفقراء والمساكين شيئاً من تلك الخيرات، ومن هذا العام فصاعداً، حتى تكثر أموالهم، وتزيد ثروتهم...

ووافق أربعة من الأولاد الخمسة على هذه الفكرة، وأنكر عليهم ذلك أوسطهم، فقال لهم: اتقوا الله، وسيروا على نهج أبيكم، فذلك أفضل لكم، وبه يرضى الله عنكم... فأوسعوه ضرباً حتى كاد يهلك. فلما أيقن أنهم مصممون على قتله والخلاص منه، سكت عنهم وهو كاره لما يفعلون.

واجتمعوا في منزل أحدهم، ثم أقسموا بالله أن يقطفوا ثمار جنتهم إذا أصبحوا. فلما أصبح الصبح تنادوا بصوت خافت، وقصدوا الى جنتهم وهم يتشاورون في أفضل السبل التي تجعل الناس لا يعرفون أنهم يقطفون تلك الثمار، وفي كيفية منع الناس من الفقراء والمساكين من دخول جنتهم ومساعدتهم في القطاف على نحو ما كانوا يفعلون في حياة والدهم الشيخ... وظنوا أنهم بذلك صاروا قادرين على منع أولئك الفقراء من الوصول إليهم: "لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين".

واستحق القوم العقاب من الله تعالى ببخلهم، ومنع أصحاب الحقوق من حقوقهم، وبكفرهم وتبديل شرع الله، وتوافقهم على قهر الفقراء والمساكين، وأنانيتهم... فأرسل الله تعالى على جنتهم ريحاً فيها نار فأحرقتها في ليل مظلم لا نور فيه...

ولمّا رأى القوم ما حلّ بجنتهم أدركوا فداحة الذنب الذي ارتكبوه، وعرفوا أنهم كانوا ضالين في كل ما فكروا به، وسعوا الى تنفيذه من منع الصدقة، وأكل حقوق الناس التي فرضها الله تعالى للمساكين والفقراء في أموال الأغنياء. "قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون".

- وجاء الحديث عن أصحاب الجنة المجرمين هؤلاء ليكون مثلاً للمصير الذي ينتظر أمثالهم من الأغنياء ممن أبطرتهم النعمة، فنسوا الخالق، وتكبّروا وتجبّروا، وبغوا في الأرض، وحاربوا الأنبياء، واضطهدوا المؤمنين..كما فعل أولئك النفر من قريش، وبخاصّة أشرسهم، وألأمهم، وأشدهم كفراً، وتجرأ على الله... الوليد بن المغيرة... وهذا المثل يأتي هنا بمثابة الحكم عليه، مع ما فيه من التوبيخ والتقريع والوصف بأقبح الصفات مما قلّ مثيله في القرآن الكريم...

والمراد بهذا المثل تذكير المشركين بأمور منها:

١ـ التذكير بوجوب تقوى الله تعالى في كل عمل يأتيه الإنسان.

٢ـ وبأن عين الله تعالى ساهرة، فهو يرى ويبصر كل ما يجري في هذا الكون، فيثيب المتقين الملتزمين بشريعته ووصاياه، ويعاقب المشركين الكافرين الذين يخربون المجتمع باتباع شهواتهم، وبأنانيتهم، وخلو قلوبهم من الرأفة والرحمة...

٣ـ وبأن الله يسمع ما يصرّح به الناس، وما يخفونه في نفوسهم، وما يتخافتون به... وأن الإنسان مسؤول عن أقواله كما هو مسؤول عن أفعاله، ثم لأن الأقوال تفضح النوايا السيئة...

٤ـ وأن ما بين أيدي الناس من الأموال ليس ملكاً لهم، إذ الملك لله تعالى، والإنسان مستخلف على هذه الأموال، يستثمرها ويستفيد منها الى مدة معلومة، ثم تنتقل منه الى غيره... ولا يمتلك أي إنسان أيّ شيء في الدنيا تملكاً نهائياً قاطعاً؛ كما في قوله تعالى: "وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا فلهم أجر كبير". سورة الحديد، الآية ٧.

٥ـ وأن حقوق الفقراء والمساكين في أموال الأغنياء من الحقوق الشرعية المحفوظة التي لا يمكن أكلها، وأن يستحلّها الغني لنفسه، ويحرمهم منها، كما ورد في قوله تعالى: "والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم." سورة المعارج الآية ٢٤. والذاريات الآية ١٩ وفي سورة الأنعام: "كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده" الآية ١٤١. وفي سورة الإسراء: "وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً"، الآية ٢٦. وفي سورة الروم: "فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله" الآية ٢٨.

٦ـ وأن ما يستشعره الإنسان في نفسه من القدرة، والقوّة والغلبة، والقهر... لا ينفعه في شيء. فالحق هو الذي ينتصر عند الله. وأن العاقبة للمتقين.

٧ـ وأن إدراك الإنسان للحقيقة لا ينفعه في شيء إذا تأخر هذا الإدراك عن الوقت المناسب، وأن الندم لا ينفع صاحبه، وأن الذنب إذا ثبت على المذنب لا يمكن أن يزول عنه ويُسامح به إلا إذا كان قائماً على توبة نصوح يرضى بها الله تعالى.

- أما في حالة هؤلاء القوم أصحاب تلك الجنة، ففي الآية ٢٨ من السورة المباركة: "قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون". وفيها يقين المؤمنين بأن التسبيح من الإيمان، وهو طريق للهداية الى الحق...

وفي الآية ٢٩: "قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين" وفيها إقرار واعتراف بالذنب...

- وفي الآية ٣٠: "فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون"، وفيها أن الشركاء في الجريمة أو الذنب إذا ارتكبوا خطأً يحاول كل منهم أن يبرئ نفسه من المسؤولية، ويرمي بها على الآخرين. وأنهم يلوم بعضهم بعضاً

على سكوت كل واحد منهم عن الذنب، وعدم استعمال الوسائل الممكنة في منع المخطيء من ارتكاب الخطأ... كل ذلك في نوع من الحسرة التي لا تفيد.

- وكأنما يستفيق المجرمون من كبوتهم، ويعرفون حجم الجريمة التي وقعوا فيها كما تفيد الآية ٣١: "قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين" وفيها ندم وحسرة كبيرة.

ويصل القوم الى حالة من اليأس يجدون معها أنه لا يمكن للإنسان أن يخلص نفسه مما وقع فيه من الخطأ إلا بالعودة الى الله تعالى. وفي الآية: "عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا الى ربنا راغبون." الآية ٣٢. فعسى هنا تفيد معنى الرجاء، وهو الأمل الشديد في حصول الأمر المطلوب حصوله. والمرجّو هو: "أن يبدلنا خيراً منها"، وهو يدل على الرغبة الشديدة في غفران الذنب، والتعويض عن المفقود. أما القسم الثالث من الآية الكريمة: "إنا الى ربنا راغبون" فهي تفيد بخلوص الرغبة الى الله وحده، وليس لأيٍّ كان سواه. وفيها أيضاً معنى الندم على ما فات بالإعراض عن الله تعالى، والانشغال بالمال والدنيا. والتقديم (الى ربنا) في الجملة دليل على ذلك. إذ أن أصل الجملة: إنا راغبون الى ربنا. فالتقديم يفيد التخصيص، كما يفيد الإعراض عن الرغبة في أيّ كان غير الله.

- ويخلص هذا المقطع من السورة المباركة في الآية الكريمة ٣٣: "كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون." فيجعل الله تعالى هذا النوع من العذاب أعلى درجة من درجات العذاب: "كذلك العذاب". في شدته ووقعه في النفس، والتأثير في صاحبه، والندم الذي يتبعه. وضياع الفائدة والخيرات من بين يديه، وخيبة الأمل بعد ضياع الأوهام... ثم ما تبع العمل بذاته من الآثام، وما تركته هذه الآثام من الآثار في الفكر عن الشعور بالبعد عن الصواب، وإدراك جريمة معصية الله تعالى، وحلول الغضب الإلهي على العاصي... مما يصب كله في العذاب النفسي الذي قد يكون أشد إيلاماً من العذاب الجسدي... ثم إن نتيجته قد تكون غير مأمونة العواقب، وقد يغرق صاحبها في الضياع الذي لا قرار له.

وهذا هو القسم الأول من العذاب الذي يعاني منه الإنسان في الحياة الدنيا. أما عذاب الآخرة فهو أكبر، وأشد، وأكثر إيلاماً: "ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون". وقد جاء توكيد ذلك بحرف اللام في قوله: "ولعذاب الآخرة". ثم إنه يكفي الإبهام في الجملة الناجم عن عدم التفصيل ليزيد من القلق والاضطراب... وذهاب الفكر كل مذهب، ومعه الخيال أيضاً في تصوّر هذا العذاب، وما هيته، ومقداره.... وفي قوله تعالى: "لو كانوا يعلمون"، إتهام لهؤلاء الكافرين بالجهل الذي لا ينتج عنه إلا الغلط، والغلط الفادح. كما أن فيه دعوة لهم لأن يكونوا على بيّنة مما ينتظرهم من العذاب، وهذا التعبير بديل عن قوله تعالى: اعلموا ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ
كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ
فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ
عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ
أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا
صَادِقِينَ (٤١)

٣٩- لكم علينا أيمان بالغة: حلفنا لكم أيماناً لا تخلفها أبداً.
٤٠- سَلْهُمْ: اسألهم.
- زعيم: كفيل بتحقيق الوعد.

- وبعد أن ضرب الله تعالى مَثَلَ أولئك القوم الذين كفروا بنعمة الله تعالى، وأنكروا شريعة السماء التي تدعو الى أن يعطف الأغنياء على الفقراء، وغرّهم ما كان عندهم من المال فأطاحت بهم الأنانية من أجواء النعمة الإلهية الى الوقوع في مهاوي النقمة والغضب الإلهي... ليكونوا عبرة لمن يعتبر، وليكون في ما أصابهم مثال حي للوليد بن عتبة وأمثاله، وجميع الكافرين المعاندين...

وبعد هذا المثال الحي، إذا بالآيات الكريمة تنتقل الى مجال آخر، وهو مجال الربط الصريح بين المثل الذي ضربه الله تعالى في العقاب بما أعدّه الله للمتقين من الثواب. في جنات النعيم: "إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم". فإذا لكل واحد من هؤلاء المتقين "جنات" وليس جنة واحدة، وكل جنة أعظم من أختها... على نحو ما ورد في سورة الرحمن الآية ٤٦: "ولمن خاف مقام ربّه جنتان".

- وفي الآية ٣٥: "أفنجعل المسلمين كالمجرمين". وهذا الاستفهام الإنكاري ينكر أن يتساوى عند الله تعالى المسلمون والمجرمون. وهذا الإنكار فيه تعجّب من مثل هذا الأمر إذا حصل، كما أنه يفيد بأن هذه المساواة بين المسلمين والمجرمين فيه ظلم للمسلمين، وخروج عن مبدأ الحق، إذ لا يمكن أن نساوي في أحكامنا بين مسلم، مسالم، يخاف الله تعالى، ويعبده، ويطلب رضاه، وينفذ تعاليمه وكل ما أمره به... وبين المجرم الذي ينكر وجود الله، كما ينكر تعاليم السماء، ويجحد النعمة الإلهية، ويتجاوز حدود الله في كل شيء.

- ثم تأتي الآية ٣٦ لتؤكد هذا المعنى من استنكار الحكم بالمساواة، وتعتبره من الخطأ الفادح في الحكم، والذي يدل على نوع من فقدان العقل، واختلال الموازين، والجور العظيم: "ما لكم كيف تحكمون"؟

والخطاب في هذه الآيات الكريمة موجّه الى أولئك المجرمين ممن ذكرتهم السورة المباركة من الوليد بن عتبة وأمثاله، والذين كانوا ينظرون الى أنفسهم فتأخذهم العزة بالإثم، ويظنون أنهم أحسن حالاً من المؤمنين، وأرفع قدراً، وأعلى مكانة... وبعد أن استنكرت عليهم الآية السابقة الحكم باعتبارهم ليسوا أعلى مقاماً من المسلمين، بل وعلى قدم المساواة معهم، إذا بالآية ٣٧ تكمل في استطلاع الأسباب التي تجعل هؤلاء المجرمين يحكمون بمثل هذه الأحكام، ويريدون أن يُحكم لهم أيضاً بمثل هذا الحكم، وبعد استنكار مثل هذه الأحكام، والطعن بمجرد التفكير بمبدأ المساواة مع المؤمنين... تحاول تلك الآية أن تعرف الركائز التي يستندون إليها، فتقول: "أم لكم كتاب فيه تدرسون". وفيها إشارة الى عقيدة فاسدة عند الكافرين من مبدأ المساواة بينهم وبين المسلمين، إلا أن يكون لهم من الله تعالى (كتاب) يخبرهم فيه بهذه المساواة، ويتعهد لهم بها إذا ما جاء يوم الحساب. وهم يجدون في هذا الكتاب أو التعهّد مرتكزاً لدعواهم بالمساواة التي يختارونها بمقتضى ما ضمن لهم ذلك التعهّد الموهوم. "إن لكم فيه لما تخيّرون".

- وتأتي الآية ٣٩ في نفس السياق إذ تسأل عن سبب اعتقاد الكافرين بالمساواة بينهم وبين المسلمين يوم الحساب: "أم لكم أيمان بالغة الى يوم القيامة إنّ لكم لما تحكمون". والسؤال هنا: هل أقسمنا لكم أيماناً بالغة موثوقة لا يمكن نقضها والرجوع عنها، وتستمر الى يوم القيامة، وتضمن لكم أن تحصلوا على كل ما تفكرون فيه من المساواة مع المؤمنين، ومن الإكرام، وحسن الوفادة، ودخول الجنة...
- وتنتقل الآية ٤٠ الى خطاب النبي (ص)، وتطلب منه أن يسأل هؤلاء الكافرين: "سلهم أيّهم بذلك زعيم" أي أن يسألهم عمن تعهّد لهم بذلك وأخذ على نفسه ضمان هذا التعهّد وتحقيق هذا الزعم.

ومثلها الآية ٤١: "أم لهم شركاء" وهؤلاء الشركاء هم الذين يضمنون لهم ما زعموه من المساواة.

وهنا يأتي التحدي: "فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين". فترفض هذه الآية الكريمة أن يكون هناك من يشارك الله في أحكامه، كما ترفض أن يكون أحد من شركاء الكافرين ـ وهم مثلهم في الكفر وفي ما ينالهم العقاب ـ قادراً على أن يحقق شيئاً من أمانيّهم، أو أن يشهد لهم بما يزعمون، أو يخفف عنهم العقاب أو يمحوه. ويأتي اتهام هؤلاء الكفار بالكذب واضحاً "إن كانوا صادقين" فلا هم قادرون على أن يأتوا بشركائهم، ولا هم صادقون. والكاذب لا يقدر أن يفي بما وعد به، أو ما يظنه حاصلاً وهو مخالفة للإرادة الإلهية وهذا الكذب لا ينفعهم يوم القيامة. حيث لا يمكن لأحد أن يكذب على الله، ولا أن يدّعي ما ليس له.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
(٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى
السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي
مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ
عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧)

٤٢ـ يكشف عن ساق: يشعر الناس بالخطر الداهم.
٤٣ـ خاشعة أبصارهم: ينظرون في ذل.
٤٣ـ ترهقهم ذلة: والذل ظاهر عليهم بوضوح.
٤٤ـ سنستدرجهم: سوف نوصلهم الى جهنم خطوة خطوة.
٤٥ـ أملي لهم: أمهلهم.
٤٦ـ مغرم: من كلفة هذا الأجر.
ـ مثقلون: لا يقدرون على حمله.

- وفي الآية ٤٢: "يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون". وتذكرهم الآية بيوم القيامة وما سيكون فيه:

١ـ يومئذ يدعى هؤلاء الكافرون الى السجود. وهذه الدعوة أمر من الله لا بد من تنفيذه.

٢ـ ولكنهم ليسوا قادرين على ذلك.

٣ـ في ذلك اليوم تتعاظم الأحداث، وتتوالى المفاجآت التي يفاجأ بها الناس جميعاً، ويأخذهم الذعر... ويظنون أن باستطاعتهم الفرار مما يحدث حولهم، والنجاة بأنفسهم الى مكان ما قد يقيهم شر الأحداث التي تتوالى حولهم. فيحاول أحدهم الفرار، وأول خطواته أن "يكشف عن ساق"، كحالة الإنسان الذي يلبس ثياباً تلامس أطرافها الأرض، فلا يجد معها مجالاً للهرب والركض محاولاً النجاة بنفسه، فيكشف عن ساقيه بأن يشمّر أثوابه، ويربطها حول وسطه، ويطلق ساقيه للريح... ولكن، الى أين؟ فلا هو يملك القدرة على ذلك، ولا مهرب له من أمر الله.

٤ـ وفي ذلك اليوم يدعى الناس للسجود الى الله تعالى، إعلاناً للخضوع، واعترافاً له تعالى بالوحدانية... فيسجد المؤمنون فرحين بلقاء الله تعالى، مسرورين بهذا اليوم الذي وعدوا فيه بالخير والثواب على إيمانهم وأعمالهم في طاعة الله... ولا يجدون في ذلك أي مانع أو أية صعوبة. أما الكافرون فـ "يدعون الى السجود فلا يستطيعون". وذلك لما حلّ بهم من مشاعر الخوف والرهبة التي ذهبت بقواهم.

وقد ذكر الله حالة مثل هؤلاء الكافرين يوم القيامة في سورة الحاقة، فوصفهم في الآيات ٢٥ ـ ٢٧، إذ يقول الكافر (من أوتي كتابه بشماله) "يا ليتني لم أوت كتابية. ولم أدر ما حسابية. يا ليتها كانت القاضية. ما أغنى عني مالية. هلك عني سلطانية. خذوه فغلّوه. ثم الجحيم صلّوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذرعاً فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم...".

- وتنتقل الآية ٤٣ الى تصوير حالة هؤلاء الكافرين، وفيها: "خاشقة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون." وهي تصوّر حالتهم الجسدية والنفسية. ويتمثل ذلك:

١ـ في خشوع أبصارهم الظاهر في ذبول العينين، وعدم التركيز على شيء، وكأنهم لا يرون شيئاً، ولا يشعرون بشيء مما يدور حولهم...

٢ـ وفي حالة الذل التي ترهقهم، فتعطل عقولهم عن التفكير، وتذهب بكل نشاط جسدي، وتطأطيء رؤوسهم الى الأرض وكأنهم يخشون عذاباً لا يدرون من أين يأتيهم، ولا متى يحصل لهم ذلك، أو كأنهم يخجلون من النظر الى ما حولهم، وقد أدركوا حقيقة ما تنكروا له، وصدق ما يحيط بهم، وعرفوا حقارتهم وضعف عقولهم، وشعروا بأن ساعة الحساب قد حانت، وأنه سيكون حساباً أليماً.

٣ـ ولعلّ من جملة ما يرهقهم هو تذكرهم بما أعلنوه من العصيان على أوامر الله تعالى، والندم عليه، فقد "كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون". فلم يفعلوا. واليوم يدعون الى السجود فلا يستطيعون...

- وهنا يتوجّه الحديث الى الرسول الأعظم (ص) من قبل الله تعالى، وقد حان أوانه، فيقول الله تعالى لنبيه (ص): "فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون" الآية ٤٤.

ويبدو الغضب واضحاً في هذا الخطاب، الغضب على هؤلاء الكافرين، ولا تخفى لهجة التهديد الذي يحمله هذا الخطاب. إذ يطلب الله تعالى من رسوله أن يترك الأحداث تجري بين الذات الإلهية العظيمة القادرة، الجبارة القاهرة، وبين أولئك المكذبين، في مواجهة من بيده الأمر كلّه، ومن هو قادر على كل شيء، ومالك كل شيء، وولي الدنيا والآخرة... وبين نفر ضعيف من خلق، لا يملك من أمره شيئاً... وفي هذا وعيد واضح بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم...

ومثل هذا الوعيد ورد في سورة المزمل الآيات ١١-١٣: "وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً. إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصّة وعذاباً أليماً." وفي سورة المدثر الآيات: ١١- ٢٩: "ذرني ومن خلقت وحيداً. وجعلت له مالاً ممدوداً. وبنين شهوداً. ومهدت له تمهيداً..".

ثم ترسم الآية الكريمة ٤٤ خطة المواجهة مع هؤلاء الكافرين فتقول: "سنستدرجهم من حيث لا يعلمون.". ويتمثل هذا الاستدراج في تهيئة الظروف التي يمكن أن يستفيد منها الإنسان المؤمن فيقوى بها إيمانه وثباته على الدين وما أمر الله به. ويستغلها الإنسان الكافر الجاهل في ما يبعده عن الله تعالى فلا تناله رحمته، بل إنه يسجّل على نفسه من التصرفات والأعمال التي يأتيها ما يجعله مستحقاً لكل أنواع العقاب. وطبيعي أن الإنسان الكافر الذي أعمى الكفر عينيه، وعطّل عقله وأفقده رشده... أن لا يكون قادراً على التمييز بين ما فيه خيره وما فيه شقاؤه: "من حيث لا يعلمون."

- أما الأمر الثاني الذي أعدّه الله تعالى لهؤلاء الكافرين فيظهر في نص الآية ٤٥: "وأملي لهم إن كيدي متين". والإملاء هو الإمهال في العقاب وتأخيره الى الوقت الأنسب. فليس الإمهال في العقاب مسامحة للكافرين والآثمين والمعتدين، وإنما هو تأجيل ليزدادوا إثماً، على نحو ما ورد في سورة آل عمران الآية ٧٨: "ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين.".

وتوضح الآية ٤٥ من السورة المباركة سبب الإملاء: "إن كيدي متين". وهو تحذير من الاسترسال مع الكفر، كما هو إنذار بالعقاب الشديد (متين).

- وفي الآية ٤٦: " أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون". ويبدو لنا أن هذه الآية الكريمة قد قطعت أية طريقة من طرق التواصل مع هؤلاء الكافرين. وأن الإنذار الإلهي كان بمثابة الإنذار الأخير. ففي قوله تعالى ردّ على احتمال أن يكون هناك رأي باستمرار الحوار مع هؤلاء، وتحمّل ما يمكن أن ينتج عنه من مواقف هؤلاء الكافرين المشركين بالله، مما قد يؤذي النبي (ص)، ولا فائدة فيه للدين. فالله تعالى يردّ مثل هذا الاحتمال ولا يريده.

أما هذا الاحتمال فنستنتجه من قوله تعالى: "أم تسألهم أجراً؟" وهو استفهام فيه إنكار لقبول فكرة الأجر. وهذا الرفض كانت له مبرراته، كما ورد في الآية الكريمة نفسها: "فهم من مغرم مثقلون". ومعناه أنّ هؤلاء سيرفضون فكرة أن يدفعوا أجراً عن عمل خير يقدّم إليهم:

ـ أولاً: بسبب بخلهم، ككل كافر بخيل، يهرب من دفع أيّ مال مهما كان بسيطاً، ويعتبره مغرماً عليه، ويدّعي أنه مثقل بالديون، ويرزح تحت مسؤوليات كثيرة لا يستطيع تحمّلها.

ـ وثانياً: لأن هؤلاء الكافرين قد خلت نفوسهم من الخير، وعقولهم من الفهم، فلا يستجيبون لأية دعوة فيها فائدة لهم، ويقيسون كل شيء بالمال، فيكون جوابهم الرفض بسبب ادعائهم البخل.

ـ وثالثاً: لأن نفوس هؤلاء لا تفهم معنى القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية، فلا يمكن أن يفهموا التعامل معهم بالمهادنة ومتابعة الحوار والسعي الى هدايتهم أنه من باب رحمة الله لهم، ورأفته بهم، وانتظار أن يثوبوا الى رشدهم. فقد أثقلتهم أوزارهم، على نحو ما ورد في سورة الفرقان الآية ٤٤: "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً".

- وفي الآية ٤٧: "أم عندهم الغيب فهم يكتبون".

وهنا تصوير لما يمكن أن يكون قد رسخ في عقولهم من المفاهيم حتى صار يشبه العقيدة التي لا يتنازلون عنها. فبعد الآية الكريمة ٤٥"وأملي لهم إن كيدي متين". وفيها تهديد ووعيد وإنذار. وبعد هذه الآية جاءت الآية ٤٦. وفيها "أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون".

وتفيد (أم) معنى الموازنة والمفاضلة والمقابلة... فهؤلاء يقابلون التهديد الإلهي بالتسويف، فيرفضونه في الآية ٤٦. بحجة الفقر والتهرب مع دفع أي مال بديلاً لأي موقف آخر. وفي الآية ٤٧: "أم عندهم الغيب فهم يكتبون، فإنها بمعادلة الآية ٤٦، فهي ترفض الإنذار الإلهي.

أما سبب هذا الرفض فشعورهم وعقيدتهم أن علم الغيب بيدهم. فهم يكتبون في كتاب علم الغيب ما يشاؤون. وما كتبوه لا يمكن أن يمحى، وصار عندهم يقين بأنه لن ينالهم سوء، لأنهم كتبوا في ذلك الكتاب كل ما فيه خيرهم. وهذه عقيدة واهمة، وهم قوم ضالون...

إذن، فما من شيء من مفاهيمهم، وما من تصوّر من تصوّراتهم، وما من حكم من أحكامهم، وما من وهم توهموه... ولا في أمر من هذه الأمور ما ينفعهم ويدفع عنهم العذاب المحتوم...

بسم الله الرحمن الرحيم

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ
مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ
مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ
يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ
وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)

٤٨- مكظوم: يكتم غيظه الذي يكاد يخنقه.
٤٩- تداركه نعمة من ربّه: حلت به نعمة.
- لنبذ بالعراء: ترك وحيداً لا يجد مكاناً يؤويه.
- وهو مذموم: وهو متهم وملوم.
٥٠- فاجتباه ربّه: فأنعم عليه وقرّبه منه.
٥١- ليزلقونك بأبصارهم: يلتهمونك بأعينهم، فتزل بك القدم.

- وبعد كل ما بينته الآيات الكريمة السابقة من وصف حال الكافرين، وكشف عقيدتهم، وفضح افكارهم السيئة والخبيثة، وإنذاراهم بالعقاب، وتسفيه آرائهم في كثير من القضايا... وكل ذلك في سبيل تبيان الحقيقة، ومدى ضعف هذا الفريق الكافر، وما ستؤول إليه حاله في النهاية... إذا بالحديث ينتقل في نهاية السورة الكريمة الى مثل ما بدأت به هذه السورة من الدفاع عن النبي (ص) ودعمه، وتثبيته... حتى يقوم بالمهمة الإلهية الملقاة على عاتقه من تبليغ الدعوة ونشر الدين الحنيف.
- وفي الآية ٤٨: "فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم."

فالآية الكريمة تطالب النبي (ص) بالصبر والثبات على مواقفه، وأن لا يتأثر بأجواء الكافرين وتصرّفاتهم. ثم تنبه الرسول (ص) حتى لا يحدث معه ما حدث مع نبي الله يونس "صاحب الحوت"، كما يحدثنا القرآن الكريم في سورة يونس (ع). أما قصته فيرويها الرواة على النحو الآتي:

كان النبي يونس (ع) رجلاً صالحاً يتعبّد في جبل في قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى. وكان قومه يعبدون الأصنام، فاختاره الله نبياً أرسله الى قومه لهدايتهم، فأقام فيهم ثلاثاً وثلاثين سنة فلم يؤمن به إلا رجلان. فلما يئس منهم دعا عليهم... وحذرهم العذاب إن لم يؤمنوا بعد ثلاثة أيام. وبعدها أحاط بهم العذاب من كل جانب. وفتشوا عن يونس فلم يجدوه بينهم، فأيقنوا أن العذاب نازل بهم لا محالة. وفكروا أن الله قد يغفر لهم ويرفع عنهم العذاب إذا هم تابوا وأخلصوا لله. وأقاموا أياماً يتضرعون الى الله تعالى، فقبل توبتهم، وكشف عنهم العذاب.

وكان يونس (ع) قد تركهم وأقام في مكان قريب ينتظر ما سيحل بهم من العذاب. ولما لم ينزل بهم عذاب، غضب يونس وانطلق معاتباً ربّه بأنه لم ينفذ ما وعده به من تعذيب قومه الكافرين. وأتى البحر، فوجد قوماً يركبون سفينة، فحملوه معهم بغير أجرة. ولما دخل السفينة لم تستطع الإقلاع، إذ اعترض طريقها حوت كبير منعها من السير، في

حين كانت بقية السفن تنطلق بشكل عادي. فلما رأى الملاحون ذلك قالوا: إن في السفينة عبداً هارباً من سيّده. وكانوا في مثل هذه الحالة يقترعون بين الركاب، ويرمون من تقع عليه القرعة للحوت. فاقترعوا، فوقعت القرعة على يونس. فألقى يونس بنفسه في الماء، فابتلعه الحوت، وسار به في البحار من مكان الى مكان، وكان يسبّح وهو في بطن الحوت... فعفا الله عنه وأخرجه من بطن الحوت الى الشاطئ بعد أن بقي في بطن الحوت أربعين يوماً. فآواه الله تعالى، وأنبت له شجرة من يقطين فاستظل بها... وعاد الى قومه بعد معاناة طويلة... ومكث مع أهله وأولاده أربعين ليلة، ثم خرج سائحاً في البلاد يعبد الله ويدعو الناس الى عبادته حتى توفاه الله.

وقد كان غضب يونس لنفسه عندما عفا الله تعالى عن قومه وقبل توبتهم، وكان يونس محرجاً في موقفه من قومه بعد أن أنذرهم بعقاب لم يحصل لهم.

وهنا تأتي النصيحة الإلهية للنبي (ص) أن لا يكون مثل يونس، وأن لا يستعجل العقاب لقومه، فلعلهم أن يتوبوا من ذنوبهم، ويستغفروا ربّهم. وأن الغضب الذي سيطر على يونس لما جرى، وغيظه الذي كان يكظمه لم يكن في محلّه. ومن هنا جاء الأمر بالصبر: "فاصبر لحكم ربك". وتنبيه الى أن الحكم في النهاية لله وحده، وهو الذي "يعلم الغيب" وهو "بصير بالعباد".

وتشير الآية الكريمة الى أن الله قد تدارك يونس فحفظه، وسخّر له الحوت ليحميه من كل مكروه. ثم إن الإيمان الذي كان في قلبه، والذي تمثل بالتسبيح وهو في بطن الحوت هو الذي كافأه الله عليه بالحفظ والنجاة من المخاطر. ولو أن نعمة الله تعالى لم تحلّ على يونس لبقي في العراء منبوذاً وذليلاً ومذموماً أيضاً. (الآية ٤٩). وهذا الذي حصل له كان بسبب أن الله اجتباه فاختاره نبياً وجعله من الصالحين.

ومفاد هذا المثل الثاني في هذه السورة المباركة أن الله اجتبى رسوله وفضله على العالمين. وأن ما حدث له مع المشركين من قريش شبيه بما حدث مع النبي يونس (ع)، ومع جميع الأنبياء والمرسلين. وأن الله تعالى يحفظ النبي - كل نبي - من أن يحصل له سوء، وينصره على أعدائه. كما أنه تعالى يقبل التوبة عن عباده، ويغفر السيئات، ويمهل الكافرين والمجرمين، ويبقى المجال أمامهم مفتوحاً للتوبة والاستغفار.

ويأتي هذا كله على سبيل التذكير من قبل الله تعالى في مجال النصيحة وللتهوين من وقع تصرفات الناس على الأنبياء والمرسلين.

- وتأتي الآية ٥١ من السورة المباركة لترسم صورة عن واقع النبي (ص) مع خصومه من الكافرين على سبيل كشف سر من أسرار هؤلاء الكافرين في موقفهم منه، فتقول الآية: "وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون". ومعناها أن الكافرين عندما يسمعون النبي (ص) يقرأ القرآن الكريم يحقدون عليه، وتشتد كراهيتهم له، ويحسدونه، ويبغضونه، ويتمنون له الهلاك. وتمتلئ نفوسهم بالغيظ،

ويتطاير الشرر من أعينهم، وتكاد تلك الشرارات الخفية أن تقتله لما فيها من سموم الحقد والكراهية... ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، فالله حاميه، وهو يدفع عنه شرهم. وهم يكادون أن يموتوا بغيظهم، ولا يجدون ما يخففون به عن أنفسهم غير القول: إنه لمجنون". وهنا تعيدنا هذه الآية الكريمة الى بدء السورة من جديد "ما أنت بنعمة ربك بمجنون.". ويأتي التأكيد هنا من جديد في الآية ٥٢ من هذه السورة المباركة: "وما هو إلا ذكر للعالمين" والذكر هنا بمعنى الموعظة ليس للناس وحدهم وإنما للإنس والجن على حد سواء.

- ١٠ -

شرح سورة الجن

في أسباب نزول هذه السورة المباركة

عن كتاب الميزان في تفسير القرآن، المجلد العشرون.

انطلق رسول الله (ص) في طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء. فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا: مالكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها.

فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي (ص) عامدين الى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا الى قومهم وقالوا: "إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً." فأوحى الله الى نبيّه (ص): "قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن..."

وفي آخر سورة الأحقاف (الآيات ٢٩ـ ٣٢) ورد قوله تعالى: "وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضي ولّوا الى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى صراط مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم. ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين."

وعن عبد الله بن مسعود عندما سئل: من كان منكم مع النبي (ص) ليلة الجن؟ فقال: ما كان منا معه أحد. فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة فقلنا: اغتيل رسول الله (ص) أو استطير. فانطلقنا نطلبه من الشعاب، فلقيناه مقبلاً من نحو حراء، فقلنا: يا رسول الله أين كنت؟ لقد أشفقنا عليك. وقلنا له: بتنا الليلة بشرّ ليلة بات بها قوم حين فقدناك. فقال لنا: إنه أتاني داعي الجن، فذهبت أقرؤهم القرآن. فذهب بنا، وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم...

وعن الإمام علي عليه السلام: فأقبل إليه الجن والنبي (ص) ببطن النخل، فاعتذروا بأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً. ولقد أقبل إليه واحد وسبعون ألفاً منهم، فبايعوه على الصوم والصلاة...

وفي كتب التفسير أقوال كثيرة حول هذا الموضوع، وبخاصة في أسباب نزول الآيات: ١ و ٦ و ١٦ و١٨ و٢٢... وفيها روايات مختلفة.

وفي كتاب "المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام" لجواد علي، في الجزء السادس منه، في الفصل الرابع والثمانين: وعنوانه: تسخير عالم الأرواح... وفيه بحث مستفيض عن الجن، وبخاصة عن علاقاتهم بالإنسان، وما كان مشهوراً من أحوالهم، وما كثر الحديث عنه في أدب الجاهليين، وشغلهم، وشكّل جزءًا من عقيدتهم الجاهلية، ومفاهيمهم الاجتماعية... مما كان مشهوراً من أحوال الجن، وتأثيرهم في حياة الناس... مما تختصره الآيات الكريمة الواردة في سورتي الجن والأحقاف، والتي تتعرض الى أمور كثيرة نتوقف عندها في معرض شرحنا لمعاني الآيات الكريمة الواردة في سورة الجن.

كما أننا سنتبع شرح سورة الجن بملحق يتحدث عن الجن كما تصوّرهم آيات القرآن الكريم.
وعن الرسول الأعظم (ص)، في ذكر ثواب سور القرآن الكريم أن من قرأ هذه السورة أعطي بعدد كل جنيّ وشيطان صدق بمحمد (ص) وكذب به عتق رقبة.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا
(٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ
كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ
يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا
ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ
فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا
مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَّا
لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)
وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا
ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا
لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا
رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ
فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)

١- نفر من الجن: جمع منهم.
- عجباً: لم نسمع مثله من قبل.
٣- تعالى جدّ ربنا: جلت عظمة الله...
٤- سفيهنا: الجاهل منا. عدم العاقل، والمقصود إبليس.
- شططا: أقوالاً غير صحيحة.
٦- يعوذون: يستجيرون.
- رهقا: طغيانا، وكفراً، وتعبا.
٩- رَصَدا: يرصده ويترقبه ويطارده.
١٠- رشدا: خيراً.
١١- دون ذلك: غير الصالحين.
- طرائق قددا: فرقاً مختلفة.
١٢- ظننّا: اعتقدنا.
١٣- بخساً: خسارة، أو نقصاً من الآجر.
١٤- القاسطون: الظالمون الذين حادوا عن الحق.
١٥- تَحَرَّوا رَشَدا: كانوا يبحثون عن الحقيقة، وكسب الثواب.
- السعير: نار جهنم.

- موضوع الجن من الموضوعات الشائكة التي اختلطت فيها الحقائق بالأوهام. وعاشتها الأمم والشعوب جميعها، وغرقت في أوهامها. وقليل هم الذين بحثوا في هذا الموضوع بطريقة جدّية تتوصل الى نتائج ثابتة تقنع بها الجميع.

ولعل العرب في جاهليتهم هم أكثر الشعوب اهتماماً بهذا الموضوع، وقد غلبت الأوهام عندهم على الحقيقة، ذلك أن بيئة الجاهلية هي المكان الأنسب لانتشار الأوهام وتصديقها. وهذا التصديق هو الذي جعل هذه الأوهام

تعشش في عقول الجاهليين، كما جعلهم يعيشونها في حياتهم الاجتماعية، ويعتبرون الجن جزءًا هاماً من الحياة، وعنصراً مهماً من عناصر المجتمع، ولو كان هؤلاء الجن يختلفون في حياتهم الواقعية عن الإنسان، وبشخصية مختلفة، وقوى وقدرات فائقة...

وقد كانت للأديان مواقف من الجن، غير أن الإنسان الجاهلي بصورة خاصّة هو أقرب الى تصديق الأخبار والروايات التي تناسب هواه، وتحرّك أحاسيس ومشاعر معينة عنده، منه الى تصديق الفكر المطلق الحر الواعي، فكان يأنس بالأخبار التي كانت تتناول هذه الأوهام وتثير مشاعر مختلفة عنده وتحرّك كوامن النفس الغامضة التي تبقى مكبوتة، ولا تجد مجالاً للظهور في منطقة الوعي في تفكير الإنسان.

كما أن الإنسان قد عاش في بعض الفترات مع الجن، وتعامل معهم في الحياة، وشاركهم في أعماله، وكلفهم بما كان يعجز عن القيام به، واستغلّ طاقاتهم وقواهم الخارقة في التغلب على الصعاب، وتحقيق ما لا يقدر هو بنفسه وحيداً على تحقيقه.

هذا مع أن الأديان كانت قد بحثت في علاقة الإنس بالجن عند البحث في موضوع الخلق، وأشارت الى ذلك الصراع الأزلي بين الجن والإنس. ومنه علاقة آدم أبي البشر، بإبليس أبي الجن... وعن علاقة النبي سليمان عليه السلام بهم، بعد أن سلّطه الله عليهم، ودخلوا في خدمته كما نصّت عليه سورة سبأ.

وقد أشرنا في أسباب النزول الى الحادثة التي جاءت سورة الجن لتؤكد حصولها، ولتنطلق منها الى تحديد أمور كثيرة. وترسم صورة للعلاقة بين الإنس والجن، في ما يمكن اعتباره الكلام الفصل في هذا الموضوع.

- وتبدأ السورة المباركة في آيتها الأولى:

"قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا".

فالأمر الأول إذن هو أمر من الله تعالى الى النبي الأكرم (ص) أن يبلغ الناس (قل)، بأن الله تعالى قد أمره بإبلاغ تلك الحادثة، وروايتها للناس وذلك لغايات عديدة منها:

١ـ رسم صورة صحيحة للناس عن الجن في عالمهم، وعن معتقداتهم...

٢ـ تبيان العلاقة القائمة بين الإنس والجن.

٣ـ الحديث عن معتقدات الجن. وما شابها من مغالطات وأوهام.

٤ـ الإثبات أن النبوّات ـ وبخاصة نبوّة سيدنا رسول الله محمد (ص) ـ هي رسالات عامة للإنس والجن.

٥ـ الحديث عن بعض صفات الجن وما تميّزوا به من القدرات الفائقة...

٦ـ وذكر التعايش ما بين الإنس والجنّ...

والأمر الثاني هو أن الجن قد "استمعوا" للرسول الأعظم يقرأ القرآن باللغة العربية التي نزل بها. فماذا عن اللغة التي يتقنها الجن ويفهمونها؟

والأمر الثالث في هذه الآية الكريمة هو في قولهم: إنا سمعنا قرآناً عجباً. فما هو العجب في القرآن الكريم الذي أثار حفيظة الجن؟

ما نظن أن هذا العجب الذي استشعره الجن عند الاستماع الى القرآن الكريم هو غير العجب الذي يستشعره الناس عند الاستماع إليه. وقد كان الناس إذا استمعوا الى النبي (ص) يتلو القرآن "تفيض أعينهم من الدمع"، وصحفه "صحف مطهّرة"، وهو "قرآن مجيد في لوح محفوظ" و "وهو القول الفصل" وهو الذي يعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله، و"يهدي للتي هي أقوم" في أجمل أسلوب، وفي أجمل نسق وترتيب، وأعمق فهم لخفايا النفوس، وأكبر إدراك لواقع الأمور...

- ومن جملة العجب الذي سيطر على الذين استمعوا القرآن من الجن أنه "يهدي الى الرشد". ومعناها أنه يبحث في حقائق الأمور دون زيادة ولا نقصان، ويعظ ، ويرشد، ويرسم طريق الحق والخير والصواب... وينفذ الى أعماق القلوب، ويأسر العقول...

فماذا كانت نتيجة الاستماع؟ كانت بحسب قول الجن "فآمنا به". فقد كان هذا الاستماع للمرة الأولى موصلاً الى الإيمان الحقيقي، هذا الإيمان الذي كان ملتبساً عندهم على ما يبدو.

وما مقدار هذا الإيمان الذي تحصّل عن استماع واحد؟ كان مقداره كبيراً جداً ويتمثل ذلك في التعّهد الذي أخذه أولئك النفر من الجن على أنفسهم: "ولن نشرك بربنا أحدا".

إذن هو عهد بالإيمان الثابت الذي لا يتزعزع، واعتبار هذه اللحظات لحظات فارقة بين ما سبق من الشرك، وما سيأتي من الإيمان العميق. ولا يمكن لأحد أن يكون شريكاً لله عندنا، وفي نفوسنا التي خلصت من الشرك، وثبتت على الإيمان.

- وليس الإيمان بالله وحده هو الذي نتج عن هذا الاستماع، وإنما معه أيضاً تصحيح مفاهيم كثيرة منها:

١ـ "وأنه تعالى جدّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا."

وفي هذا تنزيه لله تعالى عمّا وصفوه به، بأن له زوجة وولداً. وهذا أمر لا يتناسب مع جلال الله تعالى، وعظمته، وقدرته، وقدسيته... وتنزهه عن مشابهة الإنسان...

٢ـ "وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا".

ومعناها أن غير العاقلين (السفهاء) منهم كانوا يقولون على الله شططا، أي قولاً غير صحيح، أو أقوالاً غير صحيحة، تدل على شطط، وهو الإمعان في البعد عن الحق، وجور في الحكم.

وهنا لا يتوسّع في ذكر شطط هؤلاء السفهاء، فيصير المعنى أن هؤلاء كانت لهم معتقدات كثيرة في الله تعالى غير صحيحة، وجائرة، وتدل على سفاهة عقولهم.

٣ـ "وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا".

فقد كان في اعتقادهم أن ما يقول الإنس والجن عن الله، من قبل أنه اتخذ صاحبة وولدا...هو صحيح. وقد تبيّن لهم كذب هذا القول. وعرفوا حقيقة الأمور. وصارت عقيدتهم تنزيه الله تعالى ووعد بالإقلاع عن الكذب والافتراء على الله.

وفي هذا الاعتراف اعتذار عن فعل هذه العقائد الكاذبة التي كانت شائعة بين الإنس والجن، ووعد بالإقلاع عنها ونسيانها، ونوع من الملامة للنفس عن الوقوع في مثل هذا الخطأ المشين.

ثم تتابع اعترافاتهم بما كان عندهم من المعتقدات الفاسدة، ومنها:

٤ـ "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا". وعن هذا يروي الرواة أن الجن كانوا يسكنون في كل مكان وموضع، لذلك كان الناس يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم، وإذا نزلوا منازلهم يقولون: نعوذ بأعزّ أهل هذا المكان. أو: إني أعوذ بكبير هذا الوادي، أو بصاحب هذا الوادي، أو بعظيم هذا الوادي. ونسبوا الى الجن إحداث كثير من الأمور غير الطبيعية، مثل الأمراض والأوبئة والجنون... وكانوا يقدمون الذبائح للجن، يتقون بها شرّها، وكثرت الروايات حول هذا الموضوع، وامتلأ الناس رعباً من الجن الذين يسكنون في كل مكان، وبخاصة في الأماكن المقفرة والموحشة...

ولنتصوّر حياة الناس في مثل هذه الظروف، وفي ظل مثل هذه المفاهيم، وبأيّ تأزم نفسي، وقلق واضطراب يعيشون. وهذا معنى: "فزادوهم رهقا". إذ كان لا يكفيهم ما هم فيه من رهق العيش في البيداء، حتى زاد على ذلك الخوف والقلق، ورهبة العدو الذي لا يُرى، ولا يقاوم، ويصعب إرضاؤه.

٥ـ "وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا"

وما يزال الحديث المرويّ على لسان نفر من الجن استمعوا الى القرآن الكريم، وعادوا الى قومهم يخبرونهم بما سمعوا...

وقد اشتركت الإنس والجن في عقيدة واحدة وهي أن الله تعالى لن يبعث أحداً، وأنكروا البعث بعد الموت للحساب، أو أنهم أنكروا ما بشّرت به الكتب السماوية من مجيء سيّد المرسلين محمد (ص) متمماً لرسالة السماء...

وهذا هو القسم الأول من الخبر الذي يروي عن عقيدة الجن، وعن علاقتهم بالناس من بني آدم.

أما القسم الثاني من الخبر، فيروي ما كان عليه وضع الجن في علاقتهم مع السماء، وكيف أن هذه العلاقة قد تبدّلت، وما عادوا قاردين على القيام بالأعمال التي كانوا يقومون بها من استراق السمع...

وفي هذا القسم يشير الى حادث حدث، ولا يعرف الجن ما هو هذا الحدث، وإن كانوا يدركون آثاره فلا يفهمونها، ولا يعرفون أسبابها.

والحديث الجديد هو: " وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشُهُباً. (الآية ٨).

وفي القديم: "وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً".

وبين (لمسنا) بصيغة الماضي القريب، وبين (وكنا نقعد منها مقاعد للسمع) بصيغة الماضي البعيد، نشعر بهذا التحوّل، والحدث المستغرب. أما ما هو هذا الحدث فيقول المفسرون إنه ولادة الرسول الأكرم، وبعثه بالرسالة، ونزول القرآن الكريم عليه، وفيه شريعة السماء.

وأما مفاعيله: فهي امتناع الجن عن القعود من السماء مقاعد يسترقون فيها السمع. واستحالة ذلك عليهم وذلك لأمرين:

<u>**أولاً**</u>: لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً.

<u>**والثاني**</u>: فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً.

- ويحتار الجن في تفسير الحدث الجديد، وهم يتأرجحون بين احتمالين: "وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً". (الآية ١٠)

إذن، فقد يكون تفسير للحدث على أنه: شر أريد بأهل الأرض. أو نعمة من الله تعالى في سبيل هدايتهم لسلوك الطريق المستقيم الذي تكون به نجاتهم.

ويستفيض ذاك النفر في الحديث عن واقع الجن، وتوصيف مجتمعهم، فيتحدثون عن طبقتين في هذا المجتمع: "وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً." (الآية ١١).

أما <u>الطبقة الأولى</u> فهم <u>الصالحون</u>: ومعنى (الصالحون) هنا لا بد من أن نأخذه بمعناه الواسع، أي الصلاح الاجتماعي والأخلاقي والديني أيضاً. إذ ان من الجن من كان مؤمناً بموسى (ع) كما ورد في سورة الأحقاف (الآيات ٢٩ ـ ٣٢).

وأما <u>الطبقة الثانية</u> فهي في الواقع تجمع جميع الفرق الباقية من الجن، ولم يأت في الآية ١١ ما يشير الى طبقة واحدة، بل جاء فيها ما يدل على طبقات مختلفة (دون ذلك) أي غير الصالحين. ثم يتبعها بالقول: كنّا طرائق قددا. ومعناها: كنا فرقاً متعددة ومختلفة، ولا صلات بينها، ولا يلتقي بعضها ببعض على مبادئ واحدة.

- وما كانت نتيجة ذلك الاستماع الى النبي وهو يتلو القرآن الكريم؟ وتشير الآية ١٢ الى هذه النتيجة برسوخ عقيدة ثابتة هم متأكدون منها، وهي أن الله تعالى هو خالق الكون والوجود. وأن السيطرة له وحده على هذا الكون كله.

ويبدو أنهم كانوا قد فكروا في أمور أخرى للخلاص من هذه السيطرة الإلهية. فما وجدوا سبيلاً الى ذلك. ففكروا في العصيان في الأرض. أو في الهرب الى مكان آخر لا يقع تحت سيطرة الله تعالى.

أما في العصيان، فلن يكون الله تعالى غير قادر على إخضاعهم، وقمع عصيانهم، والأرض أرضه، وله السلطة التامة عليها وعلى كل ما فيها. ثم إنه هو الأقوى والأقدر. وفي النهاية هو المنتصر، لأن بيده كل شيء.

وأما الهرب، فهذا أيضاً غير ممكن، لأن الله تعالى هو خالق كل شيء ومليكه. وفي قبضته السماء والأرض ومن فيهن، وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، على نحو ما ورد في الآية ١٨ من سورة التوبة.

فأين الحل إذن؟ وكيف يخرجون من هذا الوضع؟

وتجيب عن ذلك الآية ١٣: "وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا".

ويتبين من هذا الكلام (الآية ١٣) أن المشكلة كان سببها الجهل بحقيقة الأمور، وأنهم كان ينقصهم أن يعرفوا طريق الهدى. فلما استمعوا الى الهدى ـ والمقصود به القرآن الكريم. وهذا ما تدل عليه الآيتان الأولى والثانية من السورة المباركة، لما استمعوا إليه آمنوا. وكان إيمانهم عن قناعة تامة، وعن كلام دخل القلب، وأقنع العقل، وثبت في اليقين، وأبعد الشك، وأشعر بالطمأنينة... وهذا الإيمان بالله كانت له مفاعيله العجيبة ومنها الثقة الكبيرة التي يبعثها في النفس، واليقين الذي لا يمكن أن يزعزعه أيّ شك. والمؤمن بالله هو الرابح دوماً، ولن يكون مغبوناً، ولا ناقص الحظ، ويذهب عنه أي شعور بالتعب والإرهاق، والضياع، والضيق...

- وتدخل الآية ١٤ في صلب الموضوع، فتجعل الجن قسمين: المسلمين، والقاسطين.

أما المسلمون فهم أولئك الذين أجهدوا أنفسهم في البحث والاستدلال والمتابعة حتى حصل لهم اليقين، فوصلوا الى الحقيقة (تحرّوا رشدا)، إذ أنهم سلّموا أمورهم لله، واعتقدوا به خالقاً للكون بكل ما فيه ومن فيه، وأنه هو الذي يدبّر أمور هذا الكون بما يشاء، وهو القادر على ذلك، ولايعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. (سورة سبأ ٣، وسورة يونس ٦١).

وأما القاسطون الظالمون الذين لم يعرفوا الحقيقة، أو أنهم عرفوها وحادوا عنها، فأولئك كان مصيرهم الى النار.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)

١٥ـ القاسطون: الظالمون.
١٦ـ على الطريقة: على الإيمان.
ـ غَدَقا: كثيراً. يغدق: ينزل من السماء.
يسلكه: يسيّره في طريق العذاب.
صَعَدَا: المتدرج في شدة العذاب.

- القاسطون إذن كانوا لجهنم حطباً، وبهذا التعبير يظهر هوانهم على الله، وقلة شأنهم، وأن لا دور لهم يُعتدّ به، بل هم وسيلة الى غاية أكبر، وهي أن يكونوا شرارة في النار تحرق الكافرين...
- وتحمل الآية ١٦ في معانيها نوعاً من الشعور بالإشفاق على هؤلاء الذين أهلكوا أنفسهم، ورضوا بأن يكونوا حطباً لجهنم، وقد كان في مقدورهم أن ينجوا من العذاب. أو نوعاً من التحذير لكل كافر مكذب برسالة السماء.

والحديث هنا هو ما كان مطلوباً من النبي (ص) أن يبلّغه ليس لهؤلاء النفر الذين كانوا يستمعون إليه فقط، وإنما للخليقة جمعاء، ليكون نوعاً من الإنذار للإنس والجن، ودعوة للتصديق بالإسلام وبما جاء به سيّد المرسلين (ص)، على نحو ما ورد في سورة الأعراف الآية ٩٦: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون".

والمراد بالطريقة هنا هو الإسلام بجميع تفاصيلها، وهي الطريقة التي حدّها الله ورسمها، والسير فيها يؤدي حتماً الى الجنة والنعيم.

ومن مظاهر هذا النعيم الماء الذي يغدق عليهم غدقاً، بكميات كبيرة، تخصب به الأرض، ويتّسع به العيش، وتعشوشب به الأرض...

- وتبيّن الآية ١٦: "لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صَعَدا". وسبب هذا الإغداق لنعمة الله على المؤمنين: "لنفتنهم فيه". والفتنة هنا معناها الاختبار. والإنسان قد يغترّ بالنعمة التي تصيبه. وينسى فضل الله عليه، ويوسوس له الشيطان، وقد يحيد به عن طريق الصواب. ونعمة الله لا تكون إلا لمؤمن راسخ إيمانه، ثابت على دينه، لا يزحزحه الشيطان عن موقعه، ولا يغريه، ولا يفسد عليه إيمانه. (سورة طه الآية ٩٠) وسورة العنكبوت الآية ٢: "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون".

- وتكمل الآية ١٧ الحديث بعد أن أثبتت أن الإنسان المؤمن مُعَرّض للفتنة، وهي الاختبار لمعرفة مقدار إيمانه، فيكون عقاب من افتتن، وأعرض عن ذكر ربّه ـ كما تقول الآية الكريمة: "يسلكه عذاباً صَعَدا".

إذن، فإن عقاب المعرض عن آيات ربه، فلا يأخذها بعين الاعتبار، ولا يصدّقها، ولا يعتبر بها... هو دخوله النار ليعذّب فيها عذاباً يتدرّج في شدّته صعوداً حتى يبلغ أعلى درجات العذاب. ومعنى يسلكه أن هذا المعرض عن ذكر ربه يُدفع به دفعاً في طريق العذاب، وهو يتنقل فيه من مرحلة الى مرحلة، وقد سدّت عليه المنافذ، فلا يستطيع أن يهرب من هذا العذاب أو يخلص منه، أو يخفف وطأته...

- أما الآية ١٨: "وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا.".

في هذه الآية احتمالان: إما أن يكون من باب النصيحة والإرشاد حتى (يستقيم الإنسان على الطريقة) في الالتزام بالتعاليم الإسلامية، وبخاصّة في المساجد التي يجب أن تبقى دوماً وأبداً خالصة لله، منزهة عن الشرك والكفر وكل ما يدل على استهتار بالدين وخروج على تعاليمه. وإذا كان كل مكان لله، ويجب أن يلتزم الإنسان المؤمن بتعاليم السماء في كل مكان، فإنه من الأولى به أن يلتزم بذلك في المساجد التي أريد من بنائها أن تكون مقراً للعبادة، وهي خاضعة للإرادة الإلهية وحدها، في حين أن غير المساجد قد تكون لبعض الناس عليها سلطة. ومن هنا نفهم القيود السلوكية التي فرضها الإسلام في المساجد، ولم يفرضها في أي مكان آخر...وقد ذكرت أمور كثيرة في كتب التفسير حول المساجد، ولا نرى أن نخوض في ذلك.

وإما أن تكون هذه الدعوة "فلا تدعوا مع الله أحدا" من نوع النصيحة أيضاً، ولكنها تأمر بعدم سلوك مسلك أصحاب الديانات الأخرى الذين كانوا يدعون في (مساجدهم) وأماكن عبادتهم مع الله آلهة أخرى يجعلونها شركاء لله، وينصبون لها التماثيل، ويذكرونها في صلواتهم مع الله، ويجعلونها في مستوى الألوهية. والدعوة هنا مطلقة، وهذا الإطلاق متمثل في قوله تعالى: "فلا تدعوا مع الله أحدا". مهمن أو مهما كان هذا الذي تدعونه.

وما يزال الكلام متصلاً بأول آية من آيات هذه السورة المباركة التي أمر النبي (ص) فيها أن يخبر الناس بما جرى له مع الجن في تلك الليلة. والدليل على ذلك سياق الكلام الذي ما زال يقصّ ما جرى باستعمال طريقة واحدة: قل أوحي إليّ أنه استمع... وأنه، وأنه، وأنا... وآخر آية في هذا السياق هي قوله تعالى: "وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا." (الآية ١٩).

أما الحديث عن استماع الجن للنبي (ص) وهو يتلو القرآن فلا لبس فيه، إذ أنه قد ورد النص على هذا الأمر في أول آية من السورة المباركة: "قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن..." أما كيف كانت حالهم عند الاستماع، فقد تحدثت عنه الآية الكريمة ١٩. وصورته: "كادوا يكونون عليه لبداً."

وفي كتب اللغة: لَبَدَ بالمكان أقام به ولزق. ولبد الشيء بالشيء ركب بعضه بعضاً.

ونفهم بالقول: :"كادوا يكونون عليه لبدا" أنهم اجتمعوا حوله متلاصقين، جنباً الى جنب، بحيث لا تجد مكاناً فارغاً بينهم من الازدحام، بل كاد الواحد منهم أن يضيع بين الآخرين من شدة الازدحام، ومن الرغبة في الاستماع الى ما يقوله "عبد الله" أو أن أحدهم كان يرمي نفسه فوق أصحابه ليكون الأقرب الى النبي، فلا يفوته شيء مما يرى المجتمعون حول النبي (ص)، ولا مما يسمعون... وليس ذلك غريباً عليهم بعدما نعرفه من السورة المباركة التي تقصّ علينا ما حلّ بالجن: من الطرد من السماء، ومن قذفهم بالشهب، ومن حالتهم الجديدة بعد ذلك وما أصابهم من الجهل الذي أحاط بهم نتيجة منعهم من استراق السمع... وهذا كله يمثل الحيرة التي كانوا فيها، والرغبة الجامحة في معرفة أسباب ذلك... ثم في ما وصل الى أسماعهم من الآيات الكريمة (الساحرة)، والتي تأخذ بالعقل، والقلب، والعين، والأذن... ألم يقل صلى الله عليه وآله: "إن من البيان لسحرا"؟

وقد عبّرت الآية الكريمة من هذه السورة المباركة: "إنا سمعنا قرآنا عجباً". و "كادوا يكونون عليه لبداً" فعل يمثل حالتهم من الحيرة، ورغبتهم في معرفة أسبابها.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ
ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ
دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا
يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ
أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ
فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ
يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا
رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)

٢١- رشدا: هداية أو منفعة.
٢٢- ملتحدا: ملجأ أختبيء فيه من العذاب.
٢٥- أمدا: زمناً محدداً، نهاية.
٢٧- يسلك: يُسَيّر. أدخل عليه.
٢٨- أحصى: عرف عدده.

- عندما أخبر النبي (ص) ما جرى تلك الليلة التي استمع الجن إليه وهو يقرأ القرآن. وكان هذا الإخبار بأمر الله، تطرق الحديث الى أمور كثيرة، فوصف تأثير ما استمعوه في عقيدتهم، وعرض ما كانوا يعتقدون في الله، وما كانوا عليه من الخطأ، وردّوا أخطاءهم على سفهائهم، ثم تحدثوا عن بعض العلاقات بين الإنس والجن...

ثم يجري الحديث عن مرحلة جديدة ابتدأت عندهم (عند الجن) عندما حاولوا أن يلمسوا السماء كما كانوا يفعلون، فمنعوا من ذلك. ثم عن الهواجس التي سيطرت عليهم. ثم صنّفوا أنفسهم في فرقتين: صالحة وغير صالحة (الصالحون وغير ذلك). وتفكيرهم في ما جرى، وما اهتدوا إليه من الحقائق بعد تلك الحادثة... ثم ما كان أثر استماعهم الى القرآن (الهدى) في عقيدتهم، وتوزعهم الى فرقتين من جديد: المسلمين والقاسطين.

ثم يبلغهم النبي الكريم (ص) بوجوب الاستقامة على الطريقة الصحيحة في العقيدة والعبادة، وأنهم معرّضون للامتحان في كل لحظة. ثم يأمرهم أن يكون حضورهم الى المساجد خالصاً لوجه الله، وعقيدتهم به وحده دون شرك.

وينتقل بعد ذلك الى وصف تزاحمهم وتدافعهم حول النبي (ص)... ويعلمهم النبي (ص) أموراً كثيرة من أصل العقيدة، وقد أمره الله تعالى بذلك: قل... قل... ومنها:

١ـ من هو النبي: "قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا" (الآية ٢٠). فالنبي إنسان اختاره الله لنشر رسالته في الخليقة. وهو (النبي) يؤمن بالله وحده، ولا يشرك به.

٢ـ والنبي إنسان ينفذ أوامر تأتيه من الله تعالى، وهو لا ينفع أحداً ولا يضر أحداً: إلا بإذن الله. (الآية ٢١).

٣ـ والنبي إنسان خاضع للمساءلة من الله تعالى، والله يسأله عن أعماله، فيثيبه عليها. وإذا هو غلط في أمر من الأمور فإنه لا يوجد أحد يحميه من عقاب الله. ولا ملجأ يلجأ إليه. (الآية ٢٢)، (تراجع الآية ١٧٦ من سورة الأعراف).

٤ـ وكل مهمة النبي قائمة على إبلاغ ما أمره الله تعالى به، وإيصال رسالاته الى من يجب أن تصلهم هذه الرسالات.

وهذا ليس معناه أن هناك بعداً أو فواصل بين الله ورسوله، والرسول عندما يقوم بتبليغ رسالات ربه على النحو المطلوب بما يرضي الله تعالى، فإنه يصير قريباً من الله. ويصير كلامه هو كلام الله، وما جاء به هو من عند الله، مما يوجب على العباد من الجن والإنس إطاعة النبي، ومن يعص الرسول فكأنه عصى الله تعالى. وعاقبة العصيان دخول النار والخلود فيها أبد الدهر. "ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا" (الآية ٢٣).

- أما الآية ٢٤ فتركز على أمر، وهو أن عدم معاقبة المذنبين والكافرين والعاصين في الحياة الدنيا ليس معناه أنه فاتهم العقاب، وأنهم نجوا منه، وإنما تتوعدهم الآية بيوم القيامة: "حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عددا". (الآية ٢٤).
- والآية ٢٥ تتحدث عن اليوم الذي يكون فيه هذا العقاب للعاصين، وهو يوم القيامة، فتقول الآية الكريمة: "قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي آمدا". وهنا إن بمعنى لا (لا أدري). فيوم القيامة لا يعلمه إلا الله. كما ورد في قوله تعالى: "يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة. يسألونك كأنك حفيّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون". الأعراف ١٨٧.
- وتؤكد الآية ٢٦ ما ورد في الآية ٢٥ عن يوم القيامة، فتقول: "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا".

وتأتي هذه الآية رداً على ما قاله الجن في الآيات: ٨ و٩و١٠: "وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشُهُبا...". فالجن كانت تحاول الاستماع الى حديث الملائكة في السماء، فمنعها الله تعالى من ذلك.

أما لماذا كان هذا المنع؟ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله. وما يتحدث به الأنبياء عن الغيب إنما هو مما علمهم الله أياه، وسمح لهم أو أمرهم بإذاعته، حتى يكون معجزةً ودليلاً على صدق النبي، وأنه يخبر بما علّمه إياه ربه.

وأما غير الأنبياء فلا أحد يعلم الغيب، والنبي يبقى ما يعلمه من الغيب سراً بأمر الله، يحفظه النبي، ويحرس النبي ملائكة أشدّاء جعلهم الله تعالى يحيطون بالنبي من بين يديه ومن خلفه، ويمنع المتطفلين من الجن من الوصول إليه.

ويبقى السؤال: ولماذا كل ذلك؟ ويأتي الجواب: "ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا." الآية ٢٨.

وفي الجواب تبيان من الله تعالى الى أن الرسول يبلّغ ما أطلعه عليه ربّه، وما طلب منه إبلاغه بحرفيته، دون زيادة ولا نقصان، وبدون تحريف ولا تعديل، ولا تصرّف من عنده. ومثل هذا ما ورد في الآية ٢٢: "قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً". ومثل ذلك ما ورد في سورة الحاقة، الآيات ٤٤-٤٧: "ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين، ولقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين".

والغاية من هذا كله أن يحيط بما لديهم أي أنه يعلم كل خطوة يخطوها كل نبي. ثم إن الأمر يقتضي ذلك، والربوبية تقوم على إحصاء كل شيء: "وأحصى كل شيء عدداً". والله يعلم كل كبيرة وكل صغيرة، ولو كان حبة من خردل: "وإن كان حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين" الأنبياء ٤٧. ومثلها في سورة لقمان الآية ١٦: "إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله".

وقد أشار المفسرون الى أن كل هذا التشدّد في أداء الرسالة يقصد منه حماية الرسالة مما قد يطرأ عليها بفعل الجن الكافرين، وغيرهم من الشياطين. فالنبي معصوم، ولكن الشيطان يوسوس للناس. والناس بين معصوم لا تؤثر فيه وسوسة الشيطان، والله يعصمه منها، ويمنع تأثيرها فيه: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" الحجر ٤٢. و"إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون" النحل ٩٩. ومثلها: الإسراء ٦٥.

ملحق
من كتاب "ملكوت الله" للمؤلف

عالم الجن

إن الحديث عن الجن يقتضي أن نبحث عما ورد عنهم في أكثر من مكان من القرآن الكريم. إذ تحدّث عن الجن مرّة، وعن الشياطين مرة أخرى (أو عن الشيطان)، وعن إبليس مرة ثالثة. وإذ كنا سنعتمد في حديثنا اسم الجن للحديث عن كل ما تحدّث عنه القرآن الكريم في هذا العالم ـ عالم الجن، فذلك سببه أنه ورد في سورة الكهف قوله تعالى: (... إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر به)[١]. كما ورد في سورة البقرة. قوله تعالى: (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا)[٢]. وكذلك في سورة الأنعام: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن) [٣]. ومن هذا كله يظهر أن المقصود بالجن والشياطين وإبليس... شيء واحد، وهو هذا المخلوق الذي برأه الله تعالى من نار، وله قوى وقدرات وخصائص وطباع به وإن كانت تجدر الإشارة الى أن الجن أمّة منهم الصالحون ومنهم دون ذلك كما ورد في سورة الجن [٤]. وسنتحدّث عنه في ما سيأتي، في محاولة للإحاطة، أو معرفة شيء، عن هذا العالم العجيب ـ عالم الجن ـ أما العحب فيه فهو أنه ليس لدينا أدلة واضحة وماديّة ملموسة عن هذا العالم، وأن كل ما لدينا هو ما ورد في القرآن الكريم ـ وهو الثابت. أما كل ما عداه مما نسمع من المرويات، ونقرأ من الأساطير، فيدخل معظمه في عالم الخيال أكثر منه في عالم الحقيقة، ولا نستطيع أن نركن إليه. على أننا سنجد من المعلومات عن هذا العالم ما يكفي في القرآن الكريم. وأول ما يجب فعله في هذا المجال، أن نعود إلى كتب اللغة نستنطقها عن معنى الجن والشيطان.

أما عن مصدر "جنن" فقد ورد في لسان العرب: جن الشيء يُجُنُّهُ جناً ستره. وكل شيء ستر عنك فقد جُنّ عنك. وجنّه الليل ستره. وبه سمي الجن لا ستتارهم واختفائهم عن الأبصار. وجنّه في القبر واراه. والجن نوع من العالم سموا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار ولأنهم استجنوا من الناس فلا يُرَوْن. (عن ابن سيده). وعن الجوهري: الجن خلاف الإنس. والواحد جني سميت بذلك لأنها تخفى ولا تُرى. (ووصف الشاعر حبيبته فشبهها بالجنيّة في تلونها وابتدالها). والجِنَّةُ الجنون، وفي التنزيل: أم به جنّة، والاسم والمصدر على صورة واحدة. والجنّة طائف الجن. والجنون نقصان العقل. وقال أبو إسحق في قوله تعالى: أتجعل فيها من يفسد فيها

---

[١]- سورة الكهف: الآية ٥٠.
[٢]- سورة البقرة: الآية ١٠٢.
[٣]- سورة البقرة: الآية ١١٢.
[٤]- سورة الجن: الآية ١١.

ويسفك الدماء: روي أن خلقاً يُقال لهم الجان كانوا في الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء فبعث الله ملائكته أجلتهم من الأرض. وقيل إن هؤلاء الملائكة صاروا سكان الأرض بعد الجان. وجُنّ: أعجب بنفسه حتى يصير كالمجنون من شدة إعجابه. وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة عليهم السلام جناً لاستتارهم عن العيون. قال الأعشى بذكر سليمان عليه السلام:

وسخّـر من جن الملائك تسعـة قيـامـاً لـديه يعملون بـلا أجـر

وفي قوله عز وجل: إن إبليس كان من الجن، إنه من الملائكة. قال أبو إسحاق في سياق الآية دليل على أن إبليس أمر بالسجود مع الملائكة. قال: وأكثر ما جاء في التفسير أن إبليس من غير الملائكة. وقد ذكر الله تعالى ذلك فقال: كان من الجن. وقيل: إن إبليس من الجن بمنزلة آدم من الإنس. وقد قيل: إن الجن حزب من الملائكة كانوا خزّان الأرض، وقيل خزّان الجنان. وجن الشباب أوله... وجن كل شيء أول شداته. وأرض مجنونة معشبة لم يرعها أحد، ونخلة مجنونة إذا طالت. والجنّة البستان، والحديقة ذات الشجر والنخل[١].

وعن مصدر "شطن" ورد في لسان العرب: الشطن الحبل الطويل الشديد الفتل يستقى به وتشد به الخيل. والجمع أشطان. ووصف أعرابي فرساً لا يحفى فقال كأنه شيطان في أشطان. وبئر شطون ملتوية عرجاء. وحرب شطون عَسِرَةٌ شديدة، ورمح شطون طويل أعوج. وفي الحديث: كل هوى شاطن في النار، والشاطن البعيد عن الحق. والشطن خالفه عن وجهه ونيته. والشيطان كل عاتٍ متمردٍ من الجن والإنس والدواب. قال أمية بن أبي الصلت يذكر سليمان النبي: "أيّما شاطن عصاه عكاه. أراد أيما شيطان. وقوله تعالى: طلعها كأنه رؤوس الشياطين، وجهه أن الشيء إذا استقبح شُبّه بالشياطين فيُقال كأنه وجه شيطان، وكأنه رأس الشيطان"[٢].

وبعد التأمل في ما ورد من معنى الجن، من الناحية اللغوية يمكننا أن نستنتج مجموعة من المواصفات للجن، والتي تتعلق بطبيعة الجن، ووجود الجن على الأرض، وعلاقة الجن بالملائكة وبالإنسان، وبعض صفات الجن... مما سنأتي على ذكره بالتفصيل.

١ـ طبيعة الجن:

هذا الاسم أعطي لمخلوقات مستترة، لا يراها كل الناس ـ وإن كانت تظهر أمام بعضهم فيرونها بالعيان. وهي مخلوقات تتلون وتتبدل فتأخذ كل الصور وكل الأشكال حتى صورة الخنزير والكلب[٣]. ولها أفعال غريبة ومتفرقة فيها من الخفة والتلوي... ما يخيل معها للإنسان أنها غير اعتيادية ولا إنسانية، ومن هنا

١ـ لسان العرب مصدر جنن.
٢ـ لسان العرب مصدر شطن.
٣ـ الطباطبائي ـ محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن المجلد ١٧ ـ بحث في الملائكة..

صار يُقال عمن يُصاب بنقصان في العقل ويقوم بحركات غير متوازنة: به جنّة أو مجنون. والجن قوم أعجبتهم أنفسهم ورأوا فيها تميّزا على بقية المخلوقات وبصورة خاصة على الإنسان لكونهم مخلوقين من نار، وبهذا كان موقف إبليس من آدم عندما رفض أن يسجد له وعصى أمر ربه. وإبليس من الجن[١]. كما أن كلمة الجن تعني الشدة والقوة والبأس، وعدم الاستقامة والعوج في السلوك والتمرد والهيئة القبيحة.

وعند تتبعنا لما وجدنا من معلومات عن الجن، وجدنا أنهم مخلوقات أوجدها الله تعالى على الأرض، وقيل إنها كانت تعمر الأرض قبل الإنسان، وعلى نحو ما ورد في سورة البقرة[٢]، وكما ورد في التفاسير، فأفسدوا في الأرض، فأرسل الله ملائكته فأجلتهم منها[٣]، وهذه المخلوقات تعيش مع الإنسان، ولكنها تفوقه في بعض القدرات، وبينها وبين الإنسان عداوة مزمنة ودائمة لا تنتهي. ومنهم المؤمنون وغير المؤمنين... وعندهم كثير من الشبه في مجتمعهم على نحو ما نجده في عالم الإنسان. وسنحاول استجلاء هذه النقاط وغيرها في ما سيأتي.

٢- خلق الجن:

في سورة الحجر قال الله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم)[٤]. وفي سورة الرحمن قال تعالى: (خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارجٍ من نار) [٥] ومن هذه الآيات الكريمة نستنتج أن خلق الجن قد سبق خلق الإنسان - من قبل - وأن الإنسان مخلوق من تراب - من صلصال من حمأ مسنون، كالفخار، وأن الجان مخلوق من مارجٍ من نار السموم. وقد سبق الحديث عن هذا الخلق الذي أثار مشكلة الأفضلية بين العنصرين: النار والتراب، وتفضيل النار على التراب كعناصر [٦]، وكان من نتيجة هذا التفضيل خروج أحد طرفي النزاع، أو أحد طرفي الخليقة منهزماً أمام الطرف الآخر، وأدى الأمر بالنتيجة إلى صراع دائم بين المخلوقين وفي أنسابهما أدى بإبليس وهو من الجن وزعيمها [٧] أن يأخذ على نفسه عهداً: (لأحتنكن ذريّته إلا قليلاً)[٨]. وبقيت المشكلة قائمة وستبقى قائمة ما دامت الخليقة وإلى ما شاء الله. أما - من قبل - فتثير مشكلة أخرى في موضوع الخليقة، وتترك مجالاً لأقوال

١- سورة الكهف: الآية ٥٠.
٢- سورة البقرة: الآية ٣٠.
٣- لسان العرب مصدر جنن.
٤- سورة الحجر: الآيتان ٢٦ و ٢٧.
٥- سورة الرحمن: الآيتان ١٤ و ١٥.
٦- سورة ص: الآية ٧٦.
٧- سورة الكهف: الآية ٥٠.
٨- سورة الإسراء: الآية ٦٢، والنساء: الآيات ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠.

المفسرين الذين قالوا بأن الجن عمروا الأرض قبل الناس، وطغوا وبغوا فجعل الله تعالى آدم خليفة. وإبليس في الجن كمثل آدم في الإنس[١].

٣- الإنس والجن:

إن ما يلفت النظر في الآيات التي تحدّثت عن الجن في القرآن الكريم أنها جمعت اسم الجن واسم الإنس وقرنت بينهما بحيث جاء الحديث عن الجن مقترناً بالحديث عن الإنس، وبتقديم الإنس على الجن[٢] وبتقديم الجن على الإنس[٣]، مما يجعل الحديث عن الجن والإنس أو الإنس والجن بنفس المنزلة، وجعل المخلوقين ـ الإنس والجن ـ وعالميهما في مستوى واحد، أو مشتركين في كثير من القضايا، ومتشابهين في العديد منها، وإن كان هناك اختلافات في القدرات والقوى والطبع والأهمية... فقد كانا في موقع واحد من حيث النظرة إليهما، وتوزيعهما بين مؤمنين وكافرين، وإرسال النبوات فيهما ومحاسبتهما وجمعهما يوم القيامة...

أ- علاقة الإنس والجن

بالنظر إلى العلاقات القائمة بين الإنس والجن نتيجة لاشتراكهما في المكان ـ الأرض ـ وإن كان في مقدور الجن تجاوز عالم الأرض إلى السماء ـ كما سنرى ـ ونتيجة لاقترابهما في الوضع وفي كثير من الأمور، فقد صار بين المخلوقين ـ الجن والإنس ـ تعاون واستخدام بعضهما لبعض، وسيطرة بعضهما على بعض وخضوع بعضهما لبعض ... فقد ورد في سورة الأنعام قوله تعالى: (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجَلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم)[٤]. وفي سورة الإسراء: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[٥]. وفي سورة الجن: (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً)[٦]. وفي سورة سبأ ورد قوله تعالى: (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)[٧]. وفي سورة سبأ أيضاً: (ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن مَن يعمل بين يديه بإذن ربه ومَن يزغ منهم عن أمرنا نذقه

---

[١]- لسان العرب مصدر جنن.
[٢]- سورة الرحمن: الآيات ١٥ و ٣٩ و ٥٦ و ٧٤، والأنعام: الآية ١١٢، والإسراء الآية ٨٨.
[٣]- سورة الأعراف: الآيتان ٣٨ و ١٧٩، والذاريات: الآية ٥٦.
[٤]- سورة الأعراف: الآية ١٢٨.
[٥]- سورة الإسراء: الآية ٨٨.
[٦]- سورة الجن: الآية ٦.
[٧]- سورة سبأ: الآية ٤١.

من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور. فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين)[١]. وفي سورة فصّلت: (وقال الذين كفروا ربّنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين)[٢]. وفي سورة النمل: (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون)[٣].

ومَن تتبع ما ورد في هذه الآيات الكريمة نستوضح هذه العلاقة القائمة بين الجن والإنس وهي علاقة استمتاع بعضهم ببعض، وعلاقة ولاية بعضهم لبعض، وعلاقة تعاون وتناصر وعبادة أحياناً كأن يعبد بعض الناس الجن مثلاً، وعلاقة خدمة واستخدام وتحالف، وغير ذلك مما يمكن أن يقوم بين فريقين أو طرفين متقابلين، فتكون الغَلَبة حيناً للأول على الثاني وحيناً للثاني على الأول، أو يكون هناك تنسيق وتكافؤ وتضامن... وهذا كله يعود الى طبيعة العلاقة القائمة بين اثنين، وشخصية كل منهما وقدرته على السيطرة على الطرف الآخر، والتميّز بصفات خاصة أو شخصية تؤهله لأن يكون في مثل هذا الموقع.

ب ـ صراع الإنس والجن:

وبرغم هذا النوع من العلاقة بين الإنس والجن التي رأيناها تتخذ أحياناً شكل تعاون وتناصر وولاء ومصالح مشتركة... إلا أن هذه العلاقة في أساسها تقوم على صراع ما بين الطرفين، ابتدأ من أول الخليقة وتتمثل في موقف إبليس من آدم يوم أمر الله الملائكة وإبليس أن يسجدوا لآدم، فامتثل الملائكة لأمر الله، واعترض آدم ورفض وحلّ عليه غضب من ربه فأخرج من الجنة، وأغوى إبليس آدم، فخرج هو الآخر من الجنة. وأخذ إبليس على نفسه عهداً أن ينتقم لنفسه من آدم وذريته إلى يوم القيامة. أما أساس الصراع فيعود إلى أمرين:

<u>أولهما</u>: يتعلق بطبيعة الخلق والعنصر الذي خلق منه كل منهما وأفضلية عنصر على عنصر. فآدم مخلوق من تراب، وإبليس مخلوق من نار، والنار أفضل من التراب...

<u>والثاني</u>: يتعلق بالخلافة في الأرض. ومنطوق الآية الكريمة: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون... وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)[٤] وإذا نظرنا

---

[١]- سورة سبأ: الآيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤.
[٢]- سورة فصلت: الآية ٢٩.
[٣]- سورة النمل: الآية ١٧.
[٤]- سورة البقرة: الآيتان ٣٠ و ٣٤.

في ما قاله بعض المفسرين من أن الجن عمروا الأرض قبل الإنس، وجعل الله آدم خليفة في الأرض يعمرها هو و أبناؤه وتكون لهم الغلبة والسيطرة بعد الجن، غير أنه قامت في الجن غيرة منه وغضب عليه، واستمرت هذه الغيرة وهذا الغضب، وصارت صراعاً يعمل طرفاه:

<u>الأول</u>: وهو الإنسان ـ على القيام بدوره بإعمار الأرض كما أمره الله.

<u>والثاني</u>: وهو إبليس وقبيله من الجن ـ ويعملون على الانتقام من الإنس لأنهم أخذوا منهم ما كان لهم. وهذا الصراع اتخذ أشكالاً مختلفة، فيها محاولات حثيثة من إبليس والجن للفتك ببني آدم وإضلالهم وإغوائهم والانتقام منهم... ومحاولة الإنسان الوقوف في وجه الشيطان وجنوده من الجن حتى لا يفسد عليهم النعيم الذي وعدهم الله تعالى به من رسالات سماوية وما قدّمه لهم من ضمانات وتطمينات تمكنهم من الوقوف في وجه الشيطان والحصول على رضا الله تعالى واستحقاق مثوبته ورضوانه.

ج ـ الجن قرناء:

ورد في سورة الزخرف قوله تعالى: (ومَن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين)[١] وفي سورة فصلت: (وقيّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحقَّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين)[٢]. وفي سورة النساء: (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومَن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا)[٣]. وفي سورة الصافات: (قال قائل منهم إني كان لي قرين)[٤]. وفي سورة ق: (وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد. ألقيا في جهنم كل كفارٍ عنيد. مناع للخير معتدٍ مريب. الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد. قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد)[٥]. وبحسب منطوق هذه الآيات الكريمة فالقرين شيطان يسلّطه الله تعالى على الإنسان الكافر، فيتبعه ويبقى معه لا يفارقه ويزيّن له أعمال الشر. ويوم القيامة يتخلى عنه ويتبرأ منه، ويقع بينهما نزاع في أيهما قد أغوى صاحبه، وينال كلاً منهما عذاب من عند الله لأنهما خالفا وعيد الله تعالى وعملا ما أغضبه.

[١]- سورة الزخرف: الآيات ٣٦ و ٣٧ و ٣٨.
[٢]- سورة فصلت: الآية ٢٥.
[٣]- سورة النساء: الآية ٣٨.
[٤]- سورة الصافات: الآية ٥١.
[٥]- سورة ق: الآيتان ٢٣ و ٢٨.

د- عبادة الإنسان للجن:

ونتيجة لواقع تميّز الجن على الإنسان ببعض القدرات الخارقة التي جعلت صورة الجن في ذهن الإنسان على أنه الأقوى والأقدر والأعرف... جعلت الإنسان يؤخذ بهذه الصفات في الجن، يقابلها ما عند الجن من طباع تقوم على الاستكبار[١] أساساً، وما يذكيها من شعور الغيرة من الإنسان لأن الله تعالى ميّزه عليهم عندما جعل آدم خليفة في الأرض... مما أدى بالإنسان الى الاعتقاد بألوهية الجن وعبادته. فقد ورد في سورة سبأ قوله تعالى: (يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)[٢]. وفي سورة فصلت: (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلّانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين)[٣]. وفي سورة النساء: (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً)[٤]. وفي سورة الأنعام: (قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولايضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران...)[٥] وفي سورة لقمان: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أوَلو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير)[٦]. ومثله ما ورد من حديث إبراهيم عليه السلام لأبيه إذ قال له: (يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا)[٧]. وكذلك في سورة يس: فقد تحدّث القرآن الكريم عن عبادة الجن، وهي عبادة فعلية كاتخاذ الجن آلهة يعبدونها، كما أشار إلى هذا الاستماع إلى حديث الشيطان والاقتناع به والعمل بمقتضاه. وما كان هذا ليحصل لولا وصول الشيطان في نفس هؤلاء الناس إلى درجة من الثقة تبلغ حد التقديس. ومن الناس مَن أشركوا بالله بأن (جعلوا لله شركاء الجن)[٨]، ويدخل هذا أيضاً ضمن عبادة الجن.

هـ - تحالف الإنسان والجن

في ما عرضنا من حديثنا عن الجن حتى الآن تصوير لنوع من العداوة الموروثة والمستمرة بين الإنسان والجن، والتي تستند إلى معطيات دائمة وثابتة لا يمكن أن تزول. مما يجعل العداوة بين الخَلْقَيْن: الإنس والجن هي الأخرى دائمة ولا يمكن أن تزول. وظاهر القول إن هذه العداوة الدائمة تشمل جميع أبناء كل فريق. على أنه يجب أن نميّز في المخلوقات المتجانسة أو المتآلفة والمتشابهة أنه قد يحصل بينها نوع من

[١]- سورة ص: الآية ٧٤.
[٢]- سورة سبأ الآيتان ٤٠ و ٤١.
[٣]- سورة فصلت: الآية ٢٩.
[٤]- سورة النساء: الآية ٧٦.
[٥]- سورة الأنعام: الآية ٧١.
[٦]- سورة لقمان: الآية ٢١.
[٧]- سورة مريم: الآية ٤٤.
[٨]- سورة الأنعام: الآية ١٠٠.

تآلف، أو قد يكون تنافر دائم. وهذا التآلف تدعو إليه الطباع المشتركة في كل فريق وفي كل جماعة، كأن يجتمعوا على حق أو على باطل. أما أن يكون بينهم تنافر كأن يكون أحدهم على حق والآخر على باطل فلا يمكن لهما أن يجتمعا، كما لا يمكن للحق أن يجتمع مع الباطل. وعلى هذا الأساس فقد اجتمعت جماعات من الإنس مع جماعات من الجن، وكان اجتماعها على باطل، فتوحّدت، وسارت في الدرب نفسه، وسعت إلى الغايات ذاتها، فتآلفت، وكان بينها تعاون ومشاركة. وبهذا تحدّث القرآن الكريم عن هذا التحالف والتآلف بين الإنس والجن. فورد قوله تعالى في سورة الأنعام: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ)[١]. وكذلك في سورة الأنعام قوله تعالى: (ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون)[٢]. وفي سورة الأعراف: (يا بني آدم لا يفتتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتها إنه يراكم هو قبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون)[٣]. فالشياطين نوعان: شياطين الإنسان وشياطين الجن، وقد جمع بينهم اشتراكهم في الشيطانية. وكل فريق من هؤلاء الشياطين ـ شياطين الإنس والجن ـ يحاول أن يغش الآخر فيوحي إليه "زخرف القول"، وكل ذلك بسبب الغرور الذي استبدّ بهم وأخذ عقولهم. وأعمالهم كلها افتراء في افتراء. ولا يستمع إلى هؤلاء الشياطين إلا مَن كان لا يؤمن بالآخرة، أما المؤمنون فلا سلطان للشياطين عليهم: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان)[٤]. وأكثر ما تكون هذه العلاقة بين الإنسان والجن استحواذاً من الشيطان على الإنسان: (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)[٥].

و ـ عداوة الإنسان والجن:

قلنا إن الصراع القائم بين الإنسان والجن يتمثل في الأساس بنوع من العداوة الدائمة التي لا تنتهي، ابتدأت بآدم وإبليس، وانتهت في أبنائهما وتستمر إلى يوم القيامة. وفي هذه العلاقة يبدو الشيطان وأتباعه من الجن هم الأقوى وهم أصحاب الأحقاد. وموضوع الحقد هو الإنسان، وهو موضع المكيدة ومرمى سهام الشياطين وهدفهم. وأعمال الكيد مستمرة لا تنتهي، وتتخذ لها أشكالاً مختلفة ومتنوعة، ولا توفر أحداً من أبناء

[١]- سورة الأنعام: الآيتان ١١٢ و ١١٣.
[٢]- سورة الأنعام: الآية ١٢١.
[٣]- سورة الأعراف: الآية ٢٧.
[٤]- سورة الحجر: الآية ٤٢.
[٥]- سورة المجادلة: الآية ١٩.

البشر. أما أعمال الشيطان في سبيل الكيد للإنسان فهي: الشيطان يأمر بالفحشاء[١]، ويوقع الإنسان في الزلل[٢]، ويخوّف الناس[٣] ويضلّهم[٤]، ويعدهم ويمنيهم[٥] ويزين لهم أعمالهم[٦] ويوسوس لهم[٧]، وينزغ بينهم[٨]، وينسيهم ذكر ربهم[٩]، ويلقي في نفوسهم الشك[١٠]، ويسوّل لهم[١١]، ويستحوذ عليهم[١٢]، ويستهويهم[١٣]... وتتخذ الغواية والضلال كل طريقة ممكنة وكل شكل من أشكال الكيد والترهيب والترغيب...

وهذه العداوة القائمة ما بين الإنسان والجن تجعل الله تعالى يوجهها في اتجاه معيّن، فيسلّط الشياطين على الكافرين الذين لم يسمعوا كلام الله، ولم يأتمروا بأوامره، ولم يلبوا دعوته، ولم يسيروا في طريق الإيمان... فاستحقوا العقاب.

وهذا العقاب يتمثّل في ترك الشياطين تتسلّط على هؤلاء الكافرين، لأنهم بكفرهم استحقوا العقاب. فقد ورد في سورة مريم: (ألم ترَ أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً)[١٤]. وفي سورة الزخرف: (ومَن يعش عن ذكر الرحمن نقيّد له شيطاناً فهو له قرين)[١٥]. فيكون بذلك وقوع الشر على الشر، والشيطان هو الشر المطلق، فلا ينتج عن ذلك إلا الشر، وتكون عاقبة الإنسان الذي يتسلّط عليه الشيطان وخيمة جداً.

١- سورة البقرة: الآية ٢٦٨و سورة النورة الآية ٢١.
٢- سورة آل عمران: الآية ١٥٥..
٣- سورة آل عمران: الآية ١٧٥.
٤- سورة النساء: الآية ٦٠.
٥- سورة النساء: الآية ١٢٠، والإسراء: الآية ٦٤، والنحل: الآية ٦٣.
٦- سورة الأنعام: الآية ٦، والأنفال: الآية ٤٨.
٧- سورة الأعراف: الآية ٢٠، وطه: الآية ١٢٠.
٨- سورة الأعراف: الآية ٢٠، ويوسف: الآية ١٠٠، والإسراء: الآية ٥٣، وفصلت: الآية ٣٦.
٩- سورة يوسف: الآية ٤٢، والمجادلة: الآية ١٩.
١٠- سورة الحج: الآيتان ٥٢ و ٥٣.
١١- سورة محمد: الآية ٢٥.
١٢- سورة المجادلة: الآية ١٩.
١٣- سورة الأنعام: الآية ٧١.
١٤- سورة مريم: الآية ٨٣.
١٥ ـ سورة الزخرف الآية: ٣٦

ز ـ خدمة الجن للإنسان:

في ما تقدّم من الحديث أشرنا إلى العلاقة القائمة بين الإنسان والجن. وهي علاقة متنوعة ومتعددة الوجوه. أما في هذا المجال فالمقصود الحديث عن قيام الجن بخدمة الإنسان، وتسخير الجن لهذه الغاية. وقد ورد شيء من هذا في الحديث عن أعمال الجن، ومنها أن الله تعالى سخّر الجن لسليمان تعمل بأمره بإذن ربه[١]. وأشرنا إلى عدم تحديد هذه الأعمال على سبيل الحصر، بل ذكر بعضها على سبيل المثل. على أن هناك أمراً يجب أن نتوقف عنده هنا وهو دخول الجن في خدمة الإنسان بصورة عامة، كأن يكونوا جنوداً له. فقد ورد في سورة النمل قوله تعالى (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون)[٢]. والواقع أن هذا النوع من خدمة الجن للإنسان ما كان لغير سليمان عليه السلام. وقد حصل له ذلك بحكم ما أعطاه الله تعالى من ملك ما أعطاه لأحد سواه عندما طلب من ربه: (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهّاب. فسخرنا... والشياطين)[٣].

ح ـ استكبار الجن:

وفي طباع الجن أساساً استكبار ناتج عن شعور عند الجن بالأفضلية على الإنسان بسبب الشعور بأنه ـ الجن ـ مخلوق من عنصر أفضل من العنصر الذي خُلق من الإنسان. وهذا الاستكبار هو الذي أدّى بإبليس أن لا يسجد لآدم، كما أدّى بالجن عموماً إلى احتقار الإنس والاستخفاف به، والحقد عليه، ومحاولة الكيد له بصورة دائمة. فقد ورد في سورة ص قوله تعالى: (فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين)[٤]. والواقع أن هذا الاستكبار في الجن هو علّة الصراع القائم بين الإنسان والجن. وهو الذي نتج عنه محاولة كيد الجن للإنسان بصورة مستمرة إلى يوم القيامة. ويتمثّل ذلك في أمور كثيرة كانت تحصل وما زالت، إذ يتحيّن الشيطان فرصة للانقضاض على الإنسان والفتك به، فيصيب الناس بمكره وكيده ويصيب بعض الناس بمسّ من عنده، فيؤذي، وقد يقتل بأذيته. ومن هنا ازدهرت "العلوم" التي تحاول أن تنظر في هذا الموضوع لتخلص الإنسان من سلطان الجن وأذاه، واختلط في هذه "العلوم" الحق بالباطل، والعلم بالخرافات، والعقائد بالأوهام، ووجد بعضهم في ذلك طريقاً للشعوذة وكسب المال عن طريق الغش والكذب على الناس. إلا أن الله تعالى قد حصّن الإنسان ولم يتركه فرية للشيطان. وسنتحدّث عن هذا التحصين في ما سيأتي.

---

١ ـ سورة سبأ: الآية ١١٢، وص ٣٧.
٢ـ سورة النمل: الآية ١٧.
٣ ـ سورة ص: الآية ٣٥ وما بعدها.
٤ ـ سورة ص: الآيتان ٧٣ و ٧٤.

ط ـ مس الشيطان:

ورد في سورة الأعراف قوله تعالى: (إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون)[١]. وفي سورة البقرة: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس...)[٢]. وفي سورة الأنفال: (... وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويُذهب عنكم رجس الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام)[٣]. وفي سورة ص: (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب)[٤]. فالشيطان يمس الإنسان، والمس هنا من اللمس، وقد يكون من التصوّر للإنسان بصورة مرعبة ومخيفة فهو طائف يطوف به، وقد يتقمّص شخصه ويتسلط عليه حتى صار من يمسه الشيطان يتخبّط فلا يعرف له وجهاً ولا غاية ويضيع ولا يحسن عملاً، ويضطرب ولا يعود عقله قادراً على تسييره. وبهذا اشار القرآن الكريم الى مَن (يتخبطه الشيطان من المس). وهذا المس رجس من الشيطان. والرجس الحركة الخفيفة وهو العمل القبيح والقذر... وبهذا إذا تسلّط الشيطان على إنسان وأصابه برجس منه فقد أصابه بعمل قبيح وألحق به أقذاراً وهزّه وفتنه وأخافه... وعمل الله تعالى تثبيت المؤمنين إذ يثبّت أقدامهم ويطهرهم ويربط على قلوبهم. وكذلك فإن مس الشيطان هو أن يصيب الإنسان بكل سوء وعمل مكروه (بنصب وعذاب). على أن الله تعالى قد أمّن للإنسان المؤمن الحماية من رجس الشيطان ومسّه، وذلك بأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأخذ على نفسه عهداً أن يبعد عن عباده المؤمنين شر الشيطان الرجيم ويطهرهم ويؤمّن لهم حياة هادئة مطمئنة لا سلطة للشيطان فيها عليهم (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان).

ي ـ أوهام الناس:

وأكثر الجاهليون من الحديث عن الجن ومصاهرته للإنسان وتقسيم الجن إلى قبائل كقبائل الإنس وفي مثل حالهم من الحضارة والبداوة والحكم... ومن الحوار بين الإنس والجن والحروب بينهما... وقد نسبت بعض قبائل العرب إلى الجن، وتحدّث العرب عن الهاتف وغيرها من المعتقدات في الجن وسكناهم ومواطنهم، وسعي الإنسان الى استرضاء الجن بوسائل مختلفة... ونسبوا إليهم كثيراً من الأمور غير الطبيعية مثل

---

[١] ـ سورة الأعراف: الآية ٢٠١.
[٢] ـ سورة البقرة: الآية ٢٧٥.
[٣] ـ سورة الأنفال: الآية ١١.
[٤] ـ سورة ص: الآية ٤٢.

الأمراض والأوبئة، وتحدّثوا عن الغول، واعتبروا الحية من الجن وتحدثوا عن الرئي وشق... وغير ذلك من عجائب الجن[١].

٤ـ رعاية الله للإنسان:

في خضم هذا الصراع العظيم والدائم الذي لا ينتهي بين الإنسان والجن، وأمام تسلط الجن على الإنسان، وامتياز الجن على الإنسان بقدرات فائقة، وتكريم الله تعالى للإنسان، ومحاولة فتك الجن بالإنسان، وعصيان الجن لأوامر الله تعالى وعدم طاعته بوجه الإجمال. ولمّا كانت الغاية من الخليقة إعمار الكون، والأرض بصورة خاصة، وتمكين المؤمنين في الأرض بحيث ينتشر الإيمان وتتمثّل الإرادة الإلهية في تحقيق المجتمع الفاضل على الأرض، واختيار الإنسان لهذه المهمة... أمام كل هذه المعطيات لم يكن بد من رعاية الإنسان وحمايته حتى يستطيع أن يقاوم عوامل الشر ويقف في وجه الشيطان وأعوانه، وإلا لفسد كل شيء، ولما استطاع الإنسان إنفاذ الإرادة الإلهية في الكون، ولكانت للإنسان الحجة على الله تعالى.

من هنا كانت رعاية الله تعالى للإنسان، وذلك بطرق وأساليب متعددة، وكلّها تضمن لهذا الإنسان أن يقاوم الشيطان ويسلك طريق الخير. وذلك على النحو التالي:

أ ـ العقل:

وهو من أهم الهبات التي أعطاها الله تعالى للإنسان، وهو الهادي في ظلمات الباطل، والمسدّد للخطو في مدلهم الجهالة، وهو القوة التي ميّز الله تعالى بها الإنسان عن بقية المخلوقات. وهذا العقل هو القادر على تمييز الخير من الشر، والصحيح من الخطأ. وبهذا كان تحميل المسؤولية للإنسان، وبذهاب هذه القوة ـ قوة العقل ـ من الإنسان تسقط عنه كل تبعة فلا يعود مسؤولاً حتى عن أعماله.

ولمّا كان العقل كقوة في ذاتها لا تفيد شيئاً إن لم يؤمن لها الجو المناسب للإفادة منها، فقد خلق الله تعالى هذا الجو المناسب للعقل حتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره. وذلك بتزويد الإنسان بأمور أخرى تساعده على مقاومة الشيطان.

ب ـ إنذار الشيطان:

قلنا إن أساس الصراع القائم بين الإنسان والجن هو استخلاف آدم في الأرض وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له، وعدم إطاعة إبليس، وغضب الله عليه وإنزاله من السماء وإخراجه من الجنة... وكل ذلك أثار حفيظة إبليس فأخذ على نفسه عهداً أن ينتقم من آدم ومن ذريته كلها. وكان الانتقام من آدم بأن وسوس له

---

[١] ـ تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي ـ الجزء السادس.

فأطاعه آدم وعصى أمر ربه فأخرجه الله تعالى هو الآخر من الجنة. وقال إبليس لربه: (لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً)[١]. أمام هذا التهديد من إبليس للإنسان اتخذ الله تعالى موقفاً من هذا الإنسان يعتبر حماية ورعاية له من شر إبليس. وأول هذا الموقف كان إنذار الشيطان. فقد ورد في سورة الحجر: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين)[٢]. وفي سور الإسراء: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً)[٣]. وفي سورة النحل: (إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)[٤]. وفي سورة سبأ أشارت الآية الكريمة إلى عدم وجود سلطان لإبليس على المؤمنين حيث تقول: (وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم مَن يؤمن بالآخرة)[٥]. وفي سورة النحل أيضاً: (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون)[٦]. كما أن هذا الإنذار اتخذ أشكالاً أخرى كتهديد إبليس بالنار هو ومَن اتّبعه، كما ورد في قوله تعالى: (قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً لمَن تبعك منهم أجمعين)[٧]. وفي سورة السجدة: (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس آجمعين)[٨]

ج ـ تحذير الإنسان:

وهذا التحذير للإنسان يدخل ضمن نطاق رعاية الله تعالى له، ويتخذ أشكالاً مختلفة، منها التحذير المباشر بصورة الأمر والنهي... ومنها غير المباشر وذلك عن طريق وصف الشيطان والتنبيه إلى حقيقة أمره وأعماله.

الحالة الأولى: ورد قوله تعالى: (ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)[٩]. وفي سورة آل عمران: (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين)[١٠]. وفي سورة النساء: (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً

[١] ـ سورة الإسراء: الآية ٦٣.
[٢] ـ سورة الحجر: الآية ٤٢.
[٣] ـ سورة الإسراء: الآية ٦٥.
[٤] ـ سورة النحل: الآية ١٠٠.
[٥] ـ سورة سبأ: الآية ٢١.
[٦] ـ سورة النحل: الآية ٩٩.
[٧] ـ سورة الأعراف: الآية ١٨.
[٨] ـ سورة السجدة: الآية ١٣.
[٩] ـ سورة البقرة: الآيتان ١٦٨ و ٢٠٨.
[١٠] ـ سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

مبيناً)[١]. وفي سورة المائدة: (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة...)[٢]. وفي سورة الأنعام: (ولا تتبعوا خطوات الشيطان...)[٣]. وفي سورة الأعراف: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة...)[٤]. وفي سورة النور: (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومَن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء...)[٥]. وفي سورة فاطر: (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)[٦]. وفي سورة يس: (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين)[٧]. وفي سورة الزخرف: (ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين)[٨].

<u>الحالة الثانية</u>: من التحذير من الشيطان فقد وصف الله تعالى أعمال الشيطان فهو يعد الفقر ويأمر بالفحشاء[٩]، وهو يستزل الناس[١٠]، وهو يريد أن يضل الإنسان[١١]، ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم إلا غروراً[١٢]، وهو يريد أن يوقع العداوة بين الناس[١٣] ويزين للناس أعمالهم[١٤] وكان الشيطان لربه كفوراً[١٥]، وكان الشيطان للإنسان خذولاً[١٦]، وهو يدعو إلى عذاب السعير[١٧]... كما أن هذا التحذير قد اتخذ أحياناً شكل الترهيب والوعيد والتخويف من سوء العقاب، كما ورد في سورة مريم: (فو ربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً)[١٨]. وفي سورة الزخرف: (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين)[١٩].

---

١ ـ سورة النساء: الآية ١١٩.
٢ ـ سورة المائدة: الآية ٩١.
٣ ـ سورة الأنعام: الآية ١٤٢.
٤ ـ سورة الأعراف: الآية ٢٧.
٥ ـ سورة النور: الآية ٢١.
٦ ـ سورة فاطر: الآية ٦.
٧ ـ سورة يس: الآية ٦٠.
٨ ـ سورة الزخرف: الآية ٦٢.
٩ ـ سورة البقرة: الآية ٢٦٨.
١٠ ـ سورة آل عمران: الآية ١٥٥.
١١ ـ سورة النساء: الآية ٦٠.
١٢ ـ سورة النساء: الآية ١٢٠
١٣ ـ سورة المائدة: الآية ٩١.
١٤ ـ سورة الأنعام: الآية ٦.
١٥ ـ سورة الإسراء: الآية ٢٧.
١٦ ـ سورة الفرقان: الآية ٢٩.
١٧ ـ سورة لقمان: الآية ٢١.
١٨ ـ سورة مريم: الآية ٦٨.
١٩ ـ سورة الزخرف: الآية ٣٦.

د ـ تعليم الإنسان:

وفي جملة ما منّ الله تعالى به على الإنسان في الصراع الدائر بينه وبين الشيطان أعطى الله تعالى للإنسان وسائل أخرى للحماية يحمي بها نفسه من شر الشيطان، ومنها أن علّمه أموراً يستطيع بها أن يرد عنه كيد الشيطان. وهذا التعليم ينطلق من فكرة العودة الى الله تعالى والانتصار به على الشيطان، لأن هذه العودة ترتكز على أساس الإيمان بالله واليقين بنصرته وحمايته، وهو يحمي من يلتجئ إليه. وإذا كان الشيطان يوحي للإنسان ويوسوس له... فإنه ينتظر منه هنات يدخل منها إلى قلبه وعقله فيوحي إليه بأشياء، ويخوفه ويمنّيه ويعده... فيستبد الشيطان بالإنسان. أما طريقة محاربة الشيطان في هذه الحالات، وطريقة الخلاص من شره فتكون كما علّمه الله. فقد ورد في سورة الأعراف: (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون)[١]. وفي سورة النحل: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)[٢]. وفي سورة الإسراء: (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً. وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً)[٣]. وفي سورة فصلت: (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم)[٤]. وفي سورة "المؤمنون": (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وأعوذ بك رب أن يحضرون)[٥]... وبهذا التعليم إنما يضع الله تعالى بين يدي الإنسان أهم وسيلة من وسائل محاربة الشيطان. هذه الوسيلة التي تتخذ من الله حافظاً، وتستعين به في مواجهة هذا الخصم، والله تعالى هو المجير والذي لا يخيّب مَن استجار به، كما أنه يطلع الإنسان على سر هام من أسرار القرآن الكريم، وهو كلام الله. وهذا القرآن يُعتبر الحصن الحصين، والجُنَّة الواقية، والذي له فعل عظيم بحيث لو أُنزل على جبل (لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله)[٦].

٥ ـ أمم الجن:

والجن، كما علمنا، خلق في أمّة هي أمة الجن، وكان إبليس منها بمثابة آدم من الإنس. هذه الأمّة ـ أمّة الجن ـ سارت في نفس الدرب الذي سارت وتسير فيه أمم الإنس، فكانت قبائل وأجناساً وشعوباً، منهم

---

١ ـ سورة الأعراف: الآيتان ٢٠٠ و ٢٠١.
٢ ـ سورة النحل: الآية ٩٨.
٣ ـ سورة الإسراء: الآيتان ٤٥ و ٤٦.
٤ ـ سورة فصلت: الآية ٣٦.
٥ ـ سورة المؤمنون: الآيتان ٩٧ و ٩٨.
٦ ـ سورة الحشر: الآية ٢١.

المؤمن ومنهم الكافر، وأرسل الله تعالى فيهم النبوات، وكلّما طغت أمة من هذه الأمم بدّلها الله بأمّة غيرها. ورد في سورة الأعراف قوله تعالى: (قالوا ادخلوا في أمم قد خلت قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار...)[1]. وفي سورة فصلت: (وقيّضنا لهم قرناء فزيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحقّ عليهم القول في أمم قد خلت قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين)[2]. فالجن إذن في حال تشبه حال بني آدم، وإن كان هناك اختلاف في الطبيعة والقدرات، وهم شعوب يتلو بعضها بعضاً، مما يجعلنا نظن ـ والله أعلم ـ أن كثيراً من حالات الإنسان في موضوع الزواج والولادة وأساليب العيش... يتشابه فيها الإنسان والجان.

٦ ـ مصير الجن:

أشرنا إلى أن الله تعالى قد استخلف آدم في الأرض، كما أشرنا إلى تفسير الرواة الذي ينص على أن الجن كانوا سكان الأرض وعُمّارها قبل الإنسان، وعندما طغوا وبغوا أرسل الله تعالى ملائكته فأجلوهم عنها، وجعل آدم خليفة في الأرض يعمرها وبنوه من بعده. والواقع الذي نعيشه اليوم أن الأرض يعمرها بنو البشر، وهي في أيديهم، ولهم عليها سلطان، ولا سلطان للجن عليها، ولا أثر له فيها ولا دولة ولا حكم... حتى أن هؤلاء الجن ليس لهم وجود ظاهر عليها. وهذا ما يطرح سؤالاً وهو: هل أفني الجن عن آخرهم؟ وأين يوجد الباقون إذا بقي منهم شيء؟ وما هو العمل الذي يقومون به؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تشغل بال الإنسان.

أما الجواب عن هذه الأسئلة فيقتضي أن نشير إلى أن فهم هذه القضايا المتعلقة بالجن يُقاس على ما يجري في عالم البشر. إذ أن غلبة جماعة على جماعة، وأمّة على أمّة لا يعني إفناء الأمة أو الجماعة المغلوبة بل نزع السلطة والحكم من يدها. وبقاء هذه الأمّة في أماكن وجودها وبقاء أعداد منها، ومتابعة حياتها بصورة عاديّة دون أن يكون لها يد أو دور في الحكم والسلطان، وإن كانت تحاول في السر أو الخفاء تحقيق مكاسب وبلوغ غايات محدّدة. ومنها استعادة السلطان المفقود، وتأمين السيطرة على كل شيء أو على أجزاء من أماكن تواجدها. فالجن إذن موجودون على الأرض، وبين الناس، ولهم عالمهم الخاص، وفيهم قدرات فائقة تجعلهم لا يُرَوْن، وينتقلون في سرعة فائقة ويختفون عن أعين الناس، ويتشكلون في أشكال مختلفة، ويصعدون إلى السماء لاستراق السمع... وغير ذلك مما سنعرض إليه في أمكنة أخرى من هذا البحث.

---

[1] ـ سورة الأعراف: الآية ٣٨.

[2] ـ سورة فصلت: الآية ٢٥.

٧ ـ النبوات في الجن:

وهذا موضوع على مقدار كبير من الأهمية، وهو يصوّر لنا أمرين:

أولهما: شَبَهُ ما بين الإنسان والجن.

وثانيهما: تصوير مجتمع الجن كالمجتمع الإنساني تماماً، وهذا ما جعل نوعاً من الاشتراك بين العالمين في كثير من القضايا منها قضايا النبوات مثلاً، وإن كانت لكل من العالمين خصوصيات لا يشرك فيها الآخرين. فقد ورد في سورة الأنعام قوله تعالى: (يا معشر الجن والإنس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين)[1]. وفي سورة الجن حديث مطوّل عن الجن وموقفهم من الرسالات السماوية، ومن رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فقد ورد قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم. قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا(٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا(٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا(٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا(٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا(٦)وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا(٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا(١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا(١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا(١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا(١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا(١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا(١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا(١٩))[2]. وكذلك في سورة الأحقاف ورد قوله تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّـهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن

[1] ـ سورة الأنعام: الآية ٣٠.

[2] ـ سورة الجن: الآيات ١ـ ١٩.

ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّـهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢))[١].

فقد أنزل الله تعالى الوحي على أنبياء من الجن والإنسان يقصّون آياته على مخلوقاته وينذرونهم لقاء يومهم. ومن الأنبياء من كانت رسالته عامّة في الإنس والجن، وآمن به الإنس والجن، ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وأن من الجن من هو مؤمن، ومنهم من هو كافر. وفي ما ورد عن نبي الله سليمان عليه السلام وعلاقته بالجن ما يوضح ما نذهب إليه[٢].

٨ ـ قدرات الجن:

تحدّثنا أن الجن مخلوقات تشبه الإنسان في كثير من الأمور، وبهذا الشبه كان بينها وبين الإنسان أمور مشتركة كثيرة. إلا أنها برغم هذا الشبه فإن لها خصوصيات تتميز بها عن سواها من المخلوقات، ولعلّ هذا التميّز عائد إلى طبيعة الجن وأساس خلقته، إذ أنه مخلوق من نار وعنصر النار غير عنصر التراب الذي خُلق منه الإنسان، ويمكن اعتبار النار عنصراً غير مادي، وإن كان مصدره المادة ـ في ما نعرف ـ وهو بهذا عنصر لطيف ليس خاضعاً للقوانين التي تخضع لها المادة... وفيه طاقات هائلة وقدرات ليست في الإنسان. حتى إن نبي الله سليمان عليه السلام كان يستخدم الجن في كل أمر صعب لا يمكن للإنسان أن يقوم به، وحتى صار في أذهان الناس أن كل عمل عظيم خارق للعادة هو من أعمال الجن. أما هذه القدرات فتتمثل في ما يلي:

أ ـ القدرة على الاختفاء:

فالجن تعيش مع الإنسان على الأرض، ولكن الإنسان لا يرى هؤلاء الجن في الغالب. فقد ورد في سورة الأعراف قوله تعالى: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون)[٣]. وواقع الحال أن الناس يروون كثيراً من الروايات عن الجن، وكيف أن هؤلاء الجن يأتون الإنسان بشكل شيطان يوسوس له ويهتف... وقد يتصوّر له في أشكال مختلفة فيأتيه في صورة إنسان حيناً، أو في صورة مخلوق آخر. ومن هنا قيل في الجن إنها مخلوقات لطيفة تأخذ كل الأشكال بما فيها شكل الكلب والخنزير.

---

[١] ـ سورة الأحقاف: الآيتان ٢٩ و ٣٢.

[٢] ـ سورة البقرة: الآية ١٠٢ و سبأ: الآيات ١٢ و ١٣ و ١٤ و ص: الآيتان: ٣٧ و ٣٨، والنمل: الآية ١٧، والأنبياء: الآية ٨٢.

[٣] ـ سورة الأعراف: الآية ٢٧.

ب ـ القدرة على التجسُّد:

في الأصل أن الجن مخلوقات لا تُرى، بمعنى أن الإنسان لا يراها. وعدم رؤية الإنسان للجن ليس دليلاً على عدم وجودها، بل إن عدم رؤيتها من قبل الإنسان قد يعود لسببين:

أولهما: قصور في قوة الرؤية عند الإنسان، إذ أن عينه ترى ضمن حدود معينة للرؤية، بحيث تقصّر عن رؤية الألوان ما فوق وما تحت البنفسجية كما هو معروف علمياً.

والثاني: أن الرؤية أيضاً لها علاقة بسرعة الحركة، بمعنى أن الشيء يجب أن يتحرك ضمن حدود معينة للحركة حتى تراه العين، فإذا ازدادت حركته لا يُرى بوضوح، وإذا ازدادت أكثر صارت رؤيته مستحيلة. وقد تكون عدم رؤية الجن في الأصل خاضعة لهذه المبادئ، وأن رؤيتها من قبل الإنسان يتبع حالة الحركة أو اللون فيها. أما الحركة فهي من طبيعة عنصر النار الذي ليس له شكل محدّد ولا يمكن تجميده. وأما التلّون فهو طبيعة في بعض المخلوق التي تستطيع أن تتخذ لون الشيء الذي تلامسه كالحرباء مثلاً، وهذه القدرة جعلها الله تعالى فيها قوّة تساعدها على اتقاء شر الأعداء، حتى إذا أمن المخلوق شر خصومه، أو كانت له مصلحة أو غاية في الظهور للعيان اتخذ من المواقف والتدابير ما يعطيه الشكل المرئي فيراه الإنسان. وهذه القدرة في الجن ـ قدرة التجسد ـ هي ما يمتاز به على الإنسان الذي لا يستطيع أن يتخذ أكثر من شكل ولا أن يتلوّن، وإن كان التلوّن ظاهرة تبدو عليه حسب الحالة التي يكون فيها، وتظهر في الوجه دون سواه.

ج ـ سرعة الحركة:

ومن القدرات الخارقة للجن أنها سريعة الحركة بشكل ليس لسواها من المخلوقات غير الملائكة وهذه القدرة تتمثل في استطاعة الجن قطع المسافات الشاسعة في وقت قصير جداً. وقد حكى الله تعالى ذلك في ما رواه عن النبي سليمان (ع) مع بلقيس ملكة سبأ عندما سأل الجن: (قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم)[١]. وهذه القدرة في الجن ـ سرعة الحركة ـ هي شيء في طباع الجن، كما هي قدرة يحصل عليها من عنده علم من الكتاب. ومهما يكن من أمر

---

[١] ـ سورة النمل: الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠.

فإنها سرعة فائقة ليس عند الإنسان مثلها، ولعلها هي التي جعلت الحديث قائماً عن اهتزاز الجن، حتى صار يضرب المثل بذلك: فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولّى مدبراً[١].

د ـ الصعود إلى السماء:

في سورة الصافات ورد قوله تعالى: (إنا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظاً من كل شيطان مارد. لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب. دحوراً ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأتبعهم شهاب ثاقب)[٢]. وفي سورة الجن: (وأنّا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرساً شديداً وشهباً. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً)[٣]. فغاية الصعود إلى السماء، أو محاولة الصعود، هي لاستراق السمع. وأن هذا الأمر هو محاولة أو محاولات من الجن دون أن يكون ذلك في مقدورهم، لأن الله تعالى قد أعدّ لكل من يسترق السمع شهاباً ثاقباً يتبعه، وأنه ملأ السماء حرساً شديداً وشهباً، وحفظها من كل شيطان مارد. وأما كيف يكون الصعود؟ وإلى أي سماء يصل الصاعد منهم؟ فهذا ما لا نعرف عنه شيئاً، إنما ما نعرفه أن هذه المحاولات في الصعود ـ إن حصلت ـ تبوء كلها بالفشل، ويعود الجن إلى الأرض التي هي مقرّهم الأساسي والأخير، دون أن يكون لهم السلطان عليها. وما يعنينا من هذا الموضوع هو هذه القدرة التي أُعطيت للجن، وبواسطتها يستطيع الجن أن يصلوا الى السماء. ولم تعط إلا للملائكة التي تتنقل بين السماء والأرض بأمر الله تعالى، وفي مهمات محدّدة، مع حفظ الفارق بين جوهر الملائكة وطباعها وقداستها... وجوهر الجن وطباعهم وانتمائهم إلى عالم الشياطين ـ إلا المؤمنين منهم.

هـ ـ أعمال الجن:

وضمن الحديث عن قدرات الجن لا يمكن أن ننسى الحديث عن أعمال الجن عامّة. ومن هذا الأعمال ما يحتاج إلى قدرات فائقة لا يقدر عليها الإنسان. فقد ورد في سورة سبأ قوله تعالى : (ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور)[٤]. وفي سورة ص: (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب.

---

[١] ـ سورة النمل: الآية ١٠، والقصص: الآية ٣١.
[٢] ـ سورة الصافات: الآيات: ٦ ـ ١٠.
[٣] ـ سورة الجن: الآيتان ٨ و ٩.
[٤] ـ سورة سبأ: الآيتان ١٢ و ١٣.

والشياطين كل بنّاء وغوّاص. وآخرين مقرّنين في الأصفاد)[١]. وفي سورة الأنبياء: (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين. ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين)[٢]. فأعمال الجن منها ما هو عادي ـ كما يشاء نبي الله ـ ومنها أعمال غير عاديّة كصناعة المحاريب والتماثيل والجفان والقدور الراسيات... ومختلف أنواع البناء والغوص... وأعمال دون ذلك. ومن هذه الأعمال ما يحتاج إلى قدرات فائقة كالبناء بصورة عامة، ومنها ما يحتاج إلى فن ودقّة صنع كالمحاريب والتماثيل، ومنها ما يحتاج إلى قدرة احتمال كالغوص... أما لماذا كان يستعين النبي سليمان(ع) بالجن؟ فأغلب الظن للحاجة إليها في أعمال لم يكن في مقدور الإنسان عملها. ومن هنا صار شائعاً في أذهان الناس نسبة كل عمل غريب وعظيم وخارق إلى الجن، وتشبيه الإنسان المبدع بالجن، واعتبار الإبداع من العبقرية والعبقر جن، وباسمهم سُميت وادي عبقر حيث كانوا يجتمعون. ولا تنقص الخرافة ـ في حال عدم الإيمان بهذه الأقوال والمعتقدات ـ من قيمة الفكرة التي تشير إلى هذا التميّز في الجن والقدرات الفائقة وغير المألوفة عند الإنسان.

٩ ـ علم الجن:

تحدّثنا في ما سبق عن موقف الإنسان من الجن الذي وصل في بعض الحالات إلى الموالاة والخضوع وحتى العبادة. وإلى موضوع الإيمان بالجن والقناعة بأن عند الجن قوى خارقة وقدرات يستطيع بها أن يوهم الإنسان ويسيطر عليه. وهذه الأمور كلها تعود إلى موضوع قدرة الجن، وتصلنا بموضوع علم الجن، لأن بعض هذه القدرات ترتبط بموضوع العلم، وبالعلم يستطيع الجن أن يوهم الإنسان ويدخل في روعه أشياء كثيرة. ومن هذا نسبة العلم في الجن، والشعر بصورة خاصة. وقد ساد في المجتمعات البدائية أن الجن توحي بالشعر للناس عند العرب مثلاً، وعند اليونان، وإن تحدّث اليونان عن آلهة للشعر لها دور الشياطين بالنسبة للشعراء عند العرب. وحتى صار كل علم مصدره الجن، وصارت "العبقرية" أثراً من آثار الجن يوحي بها الجن لأتباعهم. وبهذا رفض الإسلام فكرة الشعر وجعله عملاً لا ينبغي للأنبياء: (وما علّمناه الشعر وما ينبغي له)[٣]، (وما هو بشاعر قليلاً ما تؤمنون)[٤] وغيرها من الآيات الكريمة.

---

[١] ـ سورة ص: الآيتان ٣٧ و ٣٨.
[٢] ـ سورة الأنبياء: الآيتان ٨١ و ٨٢.
[٣] ـ سورة يس: الآية ٦٩.
[٤] ـ سورة الحاقة: الآية ٤١.

ولكن عند الجن علماً خاصاً بهم، وقد يعلمون بأشياء لا يعلمها الإنسان ولا يقدر عليها، وذلك من منطلق تفوّق الجن على الإنسان في أمور كثيرة أشرنا إليها.

وطبيعة هذا العلم كما يلي:

أ ـ علم الكتاب:

أشرنا في ما سبق إلى أن الجن أمم كأمم بني البشر، وأن الله تعالى أرسل فيهم النبوات، كما كانت نبوات الإنسان موجهة إليهم أيضاً، ومنهم من يؤمن بها ومنهم من لا يؤمن، ومنهم المؤمنون ومنهم دون ذلك[١]. وقد رأينا في ما قصّ علينا القرآن الكريم من قصة سليمان(ع) مع بلقيس عندما طلب من الملأ أن يأتوه بعرشها: (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك)[٢] وهكذا فعل. فيكون عند بعض المؤمنين من الجن علم بالكتاب، وهو يستخدم هذا العلم. وبه ـ بهذا العلم ـ تتأتى له قدرة خارقة لا تكون لسواه.

ب ـ السحر:

والسحر من علوم الجن، وهو العلم الذي يعتمد على الخفّة وسرعة الحركة، وغايته أن يسحر أعين الناس، ويسيطر عليهم، ويوهمهم بأشياء لا تكون موجودة في الحقيقة، وصار معروفاً أن هناك جماعة تتعاطى أعمال السحر، وتعتمد في ذلك على الشياطين، فتجمعهم، وتتحدّث إليهم، وتكلفهم أعمالاً... وصارت لهم طرق خاصة للتحدث إليهم. كما شاع في الفترة الأخيرة موضوع " جمع الأرواح" وشغل هذا الموضوع بال الكثيرين في الشرق والغرب. ولسنا هنا في مجال البحث عن موضوع السحر والتوسع فيه. أما مصدر هذا العلم فهو أمران:

أولهما: علم صحيح يعتمد على أصول صحيحة كعلم الكتاب مثلاً مع استخدام هذا العلم للشر وليس للخير. حتى صار الحديث عن السحر حديثاً عن علم غريب محفوف بالمخاطر ويُراد منه الشر.

والثاني: الاعتماد ـ كما قلنا ـ على خفّة الحركة والتهويل والتأثير على حواس الإنسان وخدعته وبالتالي التأثير على عقله. ولما كان السحر علماً يُراد به الشر، فقد نهى الحديث الشريف عن استخدامه دون أن ينهى عن تعلمه حيث قال صلى الله عليه وسلم: "تعلموا السحر ولا تعملوا به". وقد ورد في سورة البقرة قوله تعالى: (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون

---

١ ـ سورة الجن: الآية ١١.

٢ ـ سورة النمل: الآية ٣٩.

منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون)[١].

ج ـ الجن لا يعلمون الغيب:

وعلم السحر هذا عند الجن أوقع الناس في شبهة وهي الظن بأن الجن يعلمون الغيب. وهذا ما كان يوحي به الجن إلى أوليائهم[٢]، ولهم مصلحة فيه إذ يورثهم نوعاً من ثقة الناس بهم. وقد انخدع بعض الناس بالجن فعبدوهم. ولعل ادعاء علم الغيب من قبل الجن كان سبباً في هذه العبادة. على أن الجن لا يعلمون الغيب ولا شيئاً منه، إذ لا يعلم الغيب في السموات والأرض إلا الله[٣]. وقد ورد في سورة سبأ قوله تعالى: (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين)[٤]. فأراد الله تعالى أن يبطل دعوى الجن في علم الغيب، فأعطى الدليل على ذلك في هذه الآية الكريمة.

١٠ ـ حشر الجن:

موضوع الحشر من الموضوعات الأساسية في موضوع الخلق، ومعناه أن يجمع الله تعالى الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم التي يكونون قد أتوها في الحياة الدنيا. وهذا الحشر يجري على كل المخلوقات، والإنسان والجان وحتى الحيوانات. وقد تحدّث عن القرآن في مواضع مختلفة[٥]. أما عن حشر الجن فقد ورد في قوله تعالى: (فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً)[٦]. وفي سورة الأنعام: (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا...)[٧]. ومن هذه الآيات الكريمة نجد أن الجن سيُحشرون يوم القيامة، وسيُلاقون أعمالهم، وسيُرمى الذي أساءوا والذين أضلوا الناس وأشركوا بالله... في نار جهنم.

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ١٠٢.
٢ ـ سورة الأنعام: الآية ١٢١.
٣ ـ سورة النمل: الآية ٦٥.
٤ ـ سورة سبأ: الآية ١٤.
٥ ـ سورة الكهف: الآية ٤٧، ومريم: الآية ٨٥ و ٦٨، والأنعام: الآية ٢٢، ويونس: الآية ٢٨ و ٤٥، والحجر: الآية٢٥، وسبأ: الآية ٤٠.
٦ ـ سورة مريم: الآية ٦٨.
٧ ـ سورة الأنعام: الآية ١٢٨.

١١- عقاب الجن:

في سورة هود ورد قوله تعالى: (... وتمّت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)[١]. وفي سورة السجدة: (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين)[٢]. وفي سورة الملك: (ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير)[٣]. وفي سورة الأعراف: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يمسعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)[٤]. وقد أشارت هذه الآيات الكريمة إلى العقاب الذي يلقاه الكافرون من الجن، وهو كالعقاب الذي أُعد للكافرين من البشر، فمصيرهم جميعاً إلى نار جهنم، حيث ينالون العقاب الذي يستحقونه على أعمالهم.

ومن التأمل في موضوع العقاب هذا نجد أن الجن كأنما كانت آثامهم كلها تقوم على إغواء الناس أولاً، ودعوة الإنسان إلى عبادتهم ثانياً، وهما أمران مرتبطان مع بعضهما، وكأنه لولا نزعة الشر في الجن وحقده على الإنسان ما ارتكب الآثام ولا وقع في الخطيئة، ولهذا استحق الجن العقاب الشديد، ورمي المجرمون في النار.

١٢- شكل الجن:

في حديثنا عن الجن أشرنا إلى بعض القدرات الخارقة التي يمتاز بها الجن والتي تمكنه من أن يأخذ أي شكل كان، وأن يظهر للإنسان حتى بصورة الكلب والخنزير. وقد يُسمع الجن ولا يُرى، وقد يُسمع ويُرى. إلا أن الحديث عن شكل الجن على ألسن الذين شاهدوه أنه في أشكال قبيحة ومخيفة ومرعبة. دون أن يكون بشكل واحد أو بهيئة واحدة. إلا أنه ورد الحديث عن صورة الشيطان في عدة أمكنة من القرآن الكريم. ففي سورة الصافات تحدّث عن شجرة الزقوم فقال عنها: (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنه رؤوس الشياطين)[٥]. وقد ورد في لسان العرب حول هذا الموضوع "أن الشيء إذ استُقبح شُبِّه بالشياطين فيُقال كأنه وجه شيطان وكأنه رأس شيطان" ولا يفترض الأمر أن يكون الإنسان قد رأى الشيطان، وأن يكون الشيطان

١ - سورة هود: الآية ١٣.
٢ - سورة السجدة: الآية ١٣.
٣ - سورة الملك: الآية ٥.
٤ - سورة الأعراف: الآية ١٧٩.
٥ - سورة الصافات: الآيتان ٦٤ و ٦٥.

بصورة واحدة، وإنما صار الشيطان المثال في التمرد ومخالفة الإرادة الإلهية، والمثال لكل مرذول وبالتالي لكل مستقبح في الذهن، واستتبع استقباح الذهن استقباح العين أيضاً.

١٣ـ الله والشيطان:

في كل ما قدّمنا من حديثنا عن الجن كان الظاهر هو ذلك الصراع القائم بين الإنسان والجن والعداوة التي لا تنتهي. ويظهر الله تعالى في هذا الصراع وهذه العداوة إلى جانب الإنسان وضد الشياطين. والواقع كذلك. فالله تعالى قد كرّم بني آدم: (ولقد كرّمنا بين آدم وحملناهم في البر والبحر فضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)[١]. وفي سورة الإسراء: (قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً)[٢]. وهذا التكريم للإنسان هو بسبب تفضيل الله للإنسان بصورة عامة، ذلك لأنه أعد الإنسان لغاية مهمة يقوم بها في الحياة، ولأن الجن والشيطان كفروا بالله، ففي سورة الإسراء: (وكان الشيطان لربه كفوراً)[٣]، وفي سورة مريم: (إن الشيطان كان للرحمن عصياً)[٤]. وهذا الكفر بالله والعصيان لأوامره ومخالفة هذه الأوامر هو الذي جعل الشيطان محط غضب الله تعالى عليه. بل صار الجن رمزاً للشر والنقمة، وجعله الله ومن يؤمن به ويتولاه في جهنم، كما أنه ترك له أن يتسلّط على الكافرين الذين لا يؤمنون بالله، على أن يكون مصيره ومصيرهم سواء في النار.

١٤ـ الشيطان والأنبياء:

هذه النزعة إلى الشر التي تحدّثنا عنها ـ عند الشيطان ـ ومحاولة فتنة الإنسان والوسوسة له وتخريب إيمانه وإغواؤه وإضلاله... لا تختص بالناس العاديين، وإنما هي موقف الشيطان من الناس عامة. والأنبياء في جملة هؤلاء الناس. وقد بدأ إبليس بآدم عليه السلام ـ وهو نبي ـ واستمر يحاول تخريب العقيدة والإيمان بالله في كل إنسان. إلا أن الله تعالى بالمرصاد دائماً لفعل الشيطان، إذ ينجي أنبياءه من كيده ويطلعهم على الحقيقة، وإذا وقع أحدهم في الخطيئة أو شرع فيها كان الله ينجيه منها. ومثال ذلك كثير، ومنه ما حدث مع موسى عليه السلام عندما قتل واحداً من أهل المدينة لينصر واحداً من شيعته (فوكزه موسى فقضى عليه قال

---

[١] ـ سورة الإسراء: الآية ٧٠.
[٢] ـ سورة الإسراء: الآية ٦٢.
[٣] ـ سورة الإسراء: الآية ٢٧.
[٤] ـ سورة مريم: الآية ٤٤.

هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين)[١]. وكذلك الأمر مع نبي الله يوسف عندما (راودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون. ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عن السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)[٢]. وكذلك مع نبي الله يوسف أيضاً عندما (أنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين)[٣]. وكذلك الأمر مع موسى (ع) عندما نسي الحوت (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره)[٤]. وكذلك الأمر مع سليمان (فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب... ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب. قال ربِ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهّاب)[٥]. وكذلك الحال مع الأنبياء إذ يحاول الشيطان أن يغويهم على نحو ما ورد في قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي غلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق)[٦]. وترك الله تعالى للشيطان يفعل هذا الفعل مع الأنبياء هو (فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم)، ثم (ينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته). وقد كان بين الأنبياء من كان في قلبه مرض ففتنه الشيطان، وذكره الله تعالى بقوله: (واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتذكرون)[٧].

على أنه مهما كان من أمر الجن فإن الظاهر أن هذه المخلوقات شغلت الناس قديماً، وعادت لتشغلهم حديثاً، في الشرق والغرب، فحدّثنا الأقدمون والآباء والأجداد أحاديث مختلفة عن الجن، وبين المحدّثين من لا يرقى الشك إلى أحاديثهم، فكنا بين مصدّق ومنكر، وبين متأمّل ومتّهم، حتى كانت حركة جديدة في الغرب تهتم بعلم "الأرواح"، وتقوم بدراسات حول هذا الموضوع، وتتعاطى معه بمقدار من الجديّة، وتحاول دراسة هذا الأمر بموضوعية كاملة ـ بصرف النظر عما يمكن أن يتبع هذا الأمر من استغلال عند البعض ـ وتحاول الوصول فيه إلى قناعات حول عالم آخر غير عالم الإنسان، وتطلق عليه اسم "عالم الأرواح".

[١] ـ سورة القصص: الآية ١٥.
[٢] ـ سورة يوسف: الآيتان ٢٣ و ٢٤.
[٣] ـ سورة يوسف: الآية ٤٢.
[٤] ـ سورة الكهف: الآية ٦٧.
[٥] ـ سورة ص: الآيات ٣٣ و ٣٤ و ٣٥.
[٦] ـ سورة الحج: الآيتان ٥٢ و ٥٣.
[٧] ـ سورة الأعراف: الآيتان ١٧٥ و ١٧٦.

ونحن لا نملك في هذا المجال إلا أن نشير إلى ما يلي:

١ـ إن ما يسميه الناس اليوم "عالم الأرواح" وما يجري من أبحاث ودراسات لاكتشاف هذا العالم لا يعدو كونه محاولة لاكتشاف "عالم الجن"، ومعرفة بعض أوضاعه وخصوصياته وخفاياه. وقد جرى الاتفاق على تسمية الجن بالأرواح لما بين الجن والأرواح من شبه من حيث إنك تحس بوجودها، وترى آثار أعمالها، دون أن تكون قادراً على لمسها، ودون أن تقع ـ كمخلوقات مادّيّة ـ في نطاق حواس الإنسان. أما عالم الأرواح فشيء آخر لا نكاد نملك عنه معلومات تذكر غير ما ورد في بعض الأحاديث الشريفة والأخبار عن مصير الأرواح بعد الموت، ودون أن يكون في ذلك ما يشفي غليلنا لمعرفة شيء عن هذه الأرواح، ويبقى الشعور الأغلب عندنا وجوب العزوف عن الخوض في مثل هذا الموضوع، وذلك لاعتبار الروح من أفعال الخلق الإلهي الذي احتفظ الله تعالى لنفسه بأسراره حيث قال في سورة الإسراء: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)[١]. وقد سُمي الملائكة بالأرواح وبخاصة جبرائيل عليه السلام. وإذا كان الناس ـ أو بعضهم ـ لا ينتهون، ويتحدثون عن الأرواح، ويمزجون بين الروح والجن فما ذلك إلا لعدم الوضوح في أذهانهم عن الفرق بين الإثنين، ورغبةً في اكتشاف أسرار الخليقة دون أن تتكون عندهم القناعة أن بعض هذه الأسرار لا يمكن اكتشافها لكونها أسراراً، وقد تكون ضمن ما حذّر الله تعالى من السؤال عنه والخوض فيه.

٢ـ إن ما ورد في القرآن الكريم من معلومات حول الجن تعتبر مفيدة ووافية لتكوّن عندنا فكرة عن هذا العالم الذي أثار الناس وما زال يثيرهم حتى اليوم، ويكوّن مجتمعاً لا يكاد يختلف عن مجتمع الإنسان إلا ببعض الخصوصيات في القدرات التي أُعطيت لهذا العالم، مما حاولنا أن نوضحه في ما سبق من هذا البحث مستندين إلى المصدر الأساسي في هذا الموضوع وهو القرآن الكريم.

٣ـ إننا نميل إلى الأخذ بالرواية التي تقول إن الجن قوم عمروا الأرض قبل الإنسان، برغم كل ما يمكن أن تثيره هذه الرواية من أمور تتعلق بخلق الأرض وخلق آدم، وإنزاله إلى الأرض، وفكرة الزمن الذي استغرقه فعل الخلق، وكيفية هذا الخلق...

٤ـ ويبقى عالم الجن وعالم الإنس متلازمين في الوجود لجهة المكان الذي يجتمعان فيه وهو الأرض، والصراع الدائر بينهما والذي لا ينتهي، بل نجد في القرآن الكريم ما يشير إلى استمراره متلازماً حتى يوم القيامة، واشتراك الجن مع الإنس حتى في الحشر والحساب.

---

[١] ـ سورة الإسراء: الآية ٨٥.

٥ـ وإذا كنا لا نعرف سبب هذا التلازم بين العالمين ـ عالم الإنس والجن ـ واجتماعهما في أمور كثيرة فيبدو لنا أن التنافس بين عالمين متشابهين يشكل أمراً طبيعياً في الخليقة، يحاول كل منهما أن يثبت وجوده ويتفوق على العالم الآخر، ويحتد هذا الصراع بصورة خاصة بين المؤمن وغير المؤمن، لما يستبد بغير المؤمن عادة من مشاعر وأحاسيس وغرائز لا تجد ما يهذبها أو يخفف من غلوائها. كما أن هذا التنافس أمر طبيعي بين قديم فاشل، وجديد وارث لأن وجود الجديد تذكر دائم للقديم بفشله، وهذا يدفع القديم للعمل على إفشال الجديد لإثبات مواقفه ومبادئه ووجهات نظره، أو لإيراد الجديد موارده وسوقه في الدرب التي سار فيها.

ويبقى عالم الجن مجالاً خصباً للبحث والتنقيب، والأخصب منه ملاحقة أخبار الجن وروايات الناس عنهم وعن مشاهداتهم في ما يمكن أن يغني الموضوع ويأتي بالعجب العجاب.

- ١١ -

شرح سورة الإنسان

سورة الدهر

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤)

١ـ حين: وقت من الدهر.
٢ـ أمشاج: مختلطة من عدة عناصر.
٣ـ نبتليه: لنختبره.
٣ـ السبيل: الطريق الصحيح.
٤ـ أعتدنا: هيأنا.
ـ السعير: نار جهنم.

- نزلت هذه السورة على النبي (ص) بالمدينة. ونزلت الآية الكريمة "ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً..." وما بعدها في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله والحسن والحسين صلى الله وسلم عليهم جميعاً.

وعن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله (ص) في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك. فنذر علي وفاطمة وفضة جاريتهما إن شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام. فشفيا، وما معهم شيء. فاستقرض علي (ع) من يهودي كميّة من شعير، فطحنت فاطمة منه قسماً، وخبزت خمسة أقراص على عددهم. فوضعوها بين أيديهم ليفطروا. فوقف عليهم سائل، فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد. مسكين من مساكين المسلمين. أطعموني، أطعمكم الله من موائد الجنة. فآثروه على أنفسهم، وباتوا لم يذوقوا إلا الماء. وأصبحوا صياماً. فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم، وقف عليهم يتيم، فآثروه. ووقف عليهم أسير في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك. فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن والحسين، وأقبلوا الى رسول الله (ص) فلما رآهم وهم يرتعشون من شدة الجوع قال: ما أشدّ ما يسوؤني ما أرى بكم. فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها، وقد غارت عيناها، فساءه ذلك. فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد، هنّأك الله في أهل بيتك. ثم أقرأه السورة.

وفي ذكر ثواب سور القرآن أن من قرأها كان جزاؤه على الله جنة وحريراً، وزوجه الله من الحور العين.

- في الآية الأولى من هذه السورة المباركة: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً."

في بعض التفاسير أن الإنسان هنا هو آدم عليه السلام، وأنه، عندما خلقه الله تعالى، مضى عليه أربعون سنة (حين من الدهر)، كان مصوّراً من طين، ولم يكن يذكر "شيئاً مذكوراً". والمعنى أنه كان شيئاً، ولم يكن مذكوراً. وكان

مذكوراً في العلم، ولم يكن مذكوراً في الخلق، ويعني ذلك أنه كان له ثبوت في علم الله، ثم خلق بالفعل، فصار مذكوراً.

و(هل) هنا ليست للاستفهام، وإنما هي للتقرير بمعنى (قد)، فيصير المقصود بالآية الكريمة الإخبار عن خلق آدم(ع).

- وفي الآية الثانية من السورة المباركة: "إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً.".

وهنا انتقال من خلق آدم (ع) الى توضيح موضوع خلق الإنسان بحيث أن الله تعالى قرر بإرادته مبدأ التوالد الذي يأتي في أساسه النطفة، والمقصود بها ماء الرجل يختلط بشيء آخر لا يحدّده النص، ويقول عنه المفسرون إنه ماء المرأة. ويختلط هذا بذاك، فيتصوّر الإنسان، على نحو ما ذكر في سورة الحج، الآية ٥: "فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبيّن لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً...". وفي سورة (المؤمنون) الآيات ١٢ ـ ١٤: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين."

ومن أسباب هذا الخلق وغاياته ومقتضيات وجوده ومصيره ابتلاء الإنسان (نبتليه)، والابتلاء هنا الاختبار، وهذا الاختبار مقدّمة للتقرير. فالحياة الدنيا مقدّمة للحياة الآخرة التي هي أفضل من الحياة الدنيا، وفيها الجنة التي وصفها الله تعالى في كتابه العزيز. وهذه الجنة لا يدخلها إلا من نجح في امتحان الابتلاء وأثبت أنه أهل للاستمتاع بهذه الجائزة العظيمة ـ الجنة، والتي "لا يلقّاها إلا الذين صبروا ولا يلقّاها إلا ذو حظ عظيم" سورة فصلت، الآية ٣٥. وسورة القصص الآية ٨٠.

وحتى يكون هذا الابتلاء عادلاً كان لا بد له من مقوّمات. ومن مقوّماته تسليح المبتلى، المتقدم لهذا الامتحان بالوسائل التي تؤمن له النجاح إن هو أحسن استخدامها. ومن هذه الوسائل أن الله تعالى قد جعله سميعاً بصيراً. وهاتان الحاستان هما من أول وسائل الاستدلال، ومعرفة الحقيقة.

- وفي الآية الثالثة: "إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً". وفي هذا تدارك لمفهوم الابتلاء، إذ أنه لم يكن ابتلاءً غايته تعذيب الإنسان وشقاؤه، بل هو اختبار لمقدار ما يستطيع هذا الإنسان أن يتجاوب مع المطالب الإلهية، في الكفّ عن الشر، وتجنب الوقوع في المخطأ، وعمل الخير بمختلف أشكاله، وفي شتى المجالات، ويشارك في بناء المجتمع الفاضل... هذا مع الإغراءات التي يمكن أن يتعرض لها في حياته من كل ما يحيط به، ومن وسوسة الشيطان الذي لا يريد به الخير... ويتمثل هذا التسليح للإنسان، بعد السمع والبصر، وهما في

أساس تكوين الإنسان، ومن أعضائه الأساسية التي يمكن بها أن يختبر الحياة، ويتعرّف الى حقائق الأمور، يتمثل بالتعليم والإرشاد والنصيحة التي أمدّه الله تعالى بها عن طريق الأنبياء والرسالات السماوية...

ونتيجة لهذا الابتلاء، وبعد تزويد الإنسان بالوسائل المنجية، والتي تبعده عن الشر، وتقرّبه من الخير إن هو عرف كيف يستفيد منها، يكون الإنسان واحداً من اثنين:

١ـ إما شاكراً لله تعالى على نعمة الهداية، وعلى تزويده بالوسائل التي ينقذ بها نفسه من الهلاك.

٢ـ وإما كفوراً، يرتكب الآثام والمخالفات للإرادة الإلهية، نتيجة لعدم استفادته من ملكات نفسه كالسمع والبصر، ولعدم سلوك سبيل الهداية...

- وتبيّن الآية ٤ من هذه السورة المباركة أن ابتعاد الإنسان عن الله، والرسوب في امتحان الابتلاء، والكفر بالله، والاستماع الى وسوسة الشيطان له عقاب، كما يعاقب كل راسب في الامتحان بنوع من الغلظة، والقساوة، والشدّة لما استحقه من هذا العقاب على سلوكه غير الصحيح، وعدم اهتدائه الى سبل الحقيقة والصواب، برغم معرفته وإدراكه وإرشاده... واستطاعته الوصول الى النجاح.

ويتمثل هذا العقاب بما أعده الله تعالى للكافرين من السلاسل التي تقيّده، والأغلال التي تكبله وترهقه، وتتعبه، والنار المشتعلة المستعرة التي يكتوي بنارها.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)عَيْنًا يَشْرَبُ
بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا
كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً
وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)
فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ
بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ
فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ
قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ
كَانَتْ قَوَارِيرَاْ (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧)عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى
سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ
حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ
مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ
جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)

٥ـ كان مزاجها: كانت ممزوجة بماء آخر.
ـ كافورا: اسم عين في الجنة...
٦ـ يفجّرونها تفجيراً: يحصلون على مائها على ما يشتهون.
٧ـ كان شرّه مستطيراً: منتشراً في كل مكان.
٨ـ على حبّه: برغم حاجتهم إليه...
١٠ـ يوماً عبوساً: يوماً تعبس فيه الوجوه.
ـ قمطريراً: صعباً جداً.
١١ـ لقّاهم: منحهم وأعطاهم.
ـ نضرةً: حسناً في الوجه.

١٣ـ الأرائك: الفرش فوق الأسرّة.
ـ زمهريرا: برداً شديداً.
١٤ـ دانية عليهم ظلالها: تغطيهم.
ـ ذللت قطوفها: سخّرت لهم ثمارها.
١٥ـ بآنية: بأوعية.

١٨ـ سلسبيلاً: في منتهى الرقة والعذوبة.

٢١ـ عاليهم ثياب سندس: يلبسون ثياباً رقيقة منسوجة بالذهب.
ـ حُلّوا: لبسوا من الحليّ.
ـ شراباً طهوراً: شراباً عذباً نقياً صافياً...

- وعلى نحو ما هو معروف في الأسلوب القرآني، تتحدث الآيات عن عقاب المجرمين الكافرين، ثم تنتقل بعد ذلك الى الحديث عما يستمتع به المؤمنون من خيرات الجنة، وما فيها من نعيم لا ينتهي.

وهنا تتحدث الآيات عن شرب الأبرار: فهم "يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً." فالماء التي يشربونها هي مياه الجنة: طعمها طيب، وباردة لذيذة، وممزوجة بالكافور، ورائحتها طيبة... على غير ما يكون شرب الكافرين في جهنم على نحو ما ورد في سورة الأنعام الآية ٧٠: "لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون". ومثلها في سورة يونس الآية ٤. وفي سورة محمد: "وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم" الآية ١٥. وفي سورة النبأ: "لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغسّاقا." الآية ٢٥...

ثم تتابع الآية السادسة من هذه السورة المباركة وصف العين التي يشرب منها الأبرار: "يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً". فهذه المياه تخرج من عين يفجّرها عباد الله تفجيراً أي أنها تتفجر من الأرض بمجرد مشيئة المؤمنين، فإذا أرادوا الشرب فيكفي التمني أو إبداء الرغبة بذلك حتى تتفجر هذه الماء من الأرض. كيف لا وهم "عباد الله" وقد حصلوا على رضا الله وبركاته، فكان لهم ما يشاؤون فيها (سورة ق، الآية ٣٥).

- وفي الآية السابعة: "يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً". فالمؤمنون الذين تقصدهم الآية الكريمة هم مؤمنون موصوفون بعمل قاموا به، وكان هذا العمل عظيماً جداً عند الله، فأورثهم الله تعالى هذا الثواب العظيم الذي يناسب العمل العظيم الذي أقدموا عليه، وهو الوفاء بالنذر. وهو نذر معروف بخصوصياته بدليل دخول (أل) التعريف على الاسم، وليس أيّ نذر كان. وهو هنا بدون أدنى شك نذر علي وفاطمة لله تعالى بأن يصوموا شكراً لله إذا شفا الله تعالى ولديهما المريضين.

وتتابع الآية الكريمة الحديث عن هؤلاء المؤمنين. فهم يخشون ربهم خشية عظيمة "ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً" وهو يوم القيامة. وفعلهم هذا، أو شعورهم هذا هو شعور عباد الله الصالحين، الذين جعلوا رضا الله تعالى عنهم، وتقبّل نذرهم واستجابته لدعائهم هو غاية ما يبغون في هذه الدنيا، وهم حذرون كل الحذر، متنبّهون كل التنبه الى كل ما يأتونه من أفعال، وما يقطعونه من العهود.

- وتتابع الآية الثامنة تخصيص هؤلاء المؤمنين بوصف أعمالهم، أو جزءٍ منها مما كانوا يقدمون عليه ابتغاءً لرضى الله تعالى، وشكراً للنعمة التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وفيها: "ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً." فهؤلاء القوم يطعمون الطعام. وكل إطعام للطعام عمل مشكورعلى حبّه"، وهم بأشد الحاجة إليه والرغبة فيه، ولكنهم وجدوا أن حاجة الغير الى هذا الطعام قد تكون أشد، فكبتوا رغبتهم، وآثروا تلبية حاجة المحتاج على حاجتهم، ورغبته على رغبتهم، فضربوا المثال الأعلى في الإيثار.

ليس هذا فقط، وإنما يتكرر المشهد مع آخرين، ويتكرر الإيثار، وتحبس الرغبة في الطعام، وتنسى الحاجة إليه، وتناديهم الجنان ومن فيها: هذه الجنة لكم، وصبراً آل البيت، فقد أعد الله لكم من الثواب ما لم يعدّ مثله لسواكم ويجيبون: إنما نطعمهم (نطعمكم) لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً (الآية ٩).

فهل أجاب بمثل هذا الجواب غير هؤلاء من بني البشر؟ وهل يستحق مثل هذا النعيم أناس آخرون أكثر مما يستحقه هؤلاء؟ وهل أحد أرقّ قلباً أكثر من هؤلاء؟ وهل عند الله أناس أجدر بالثناء والمكافأة أكثر من هؤلاء؟

وعندما يسألهم السائلون: لماذا كل هذا الإيثار لهؤلاء الناس؟ فيجيب آل بيت الرسول: "إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً.". وتبدو هنا خشية الله التي تغلغلت الى القلوب وسكنتها، واستقرت فيها، واستقرّ في روع هؤلاء أن "يوماً عبوساً قمطريراً" ينتظر الناس، ولا ينجو من شرّه إلا من كثرت حسناته وتجاوزت حد المنتظر من الناس العاديين، فلا يحمي من مثل هذا اليوم الفظيع إلا عمل عظيم أجلّ وأفظع.

- ويأتي الجواب في الآية ١١: " فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نظرة وسروراً". وهذا اليوم في علم الغيب، وما حان وقته بعد. ولكن الله تعالى وقاهم شرّه، ويكون ذلك وعداً من الله، مكافأة منه تعالى لهؤلاء القوم، المؤمنين، الخاشعين "الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون" (الحشر ٩).

أما المكافأة التي خصّهم الله تعالى بها فهي الوقاية من العذاب من شر ذلك اليوم، ثم إنه بدّلهم من اصفرار الوجه، وضعف الأبدان، وألم الجوع... توردا في الوجه، وسعادة عميقة، وطمأنينة تستقر في القلوب... وتعوّض عن كل ما فات.

- ثم تتوالى المكافآت:

في الآية ١٢: "وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً".

هذه جائزة الصبر. فقد صبر هؤلاء في جميع المواقف، وبمختلف أنواع الصبر: صبروا على العبادة، ورضوا بأمر الله فيهم، وصبروا على ظلم الناس لهم، كما صبروا على المكاره والمصائب، وكما صبروا في مجاهدة النفس التي ترغب في أشياء كثيرة... كما صبروا على الأعداء في اعتداءاتهم، وما كان يلحق بهم من هؤلاء الأعداء من الأذيّة، وكذلك على اهتضام حقوقهم، وجحود الناس لفضلهم...

وفوق ذلك كله، فكأن هذا وعد قاطع جزاءً على ما حصل، ووعد قاطع أيضاً على مواقف مشابهة من تحديات آتية، ومطلوب منهم الصبر على تداعياتها المختلفة.

وهذه المكافأة هي الجنة، بكل ما في الجنة من الخير، ومن المكانة الرفيعة، وراحة البدن، وراحة النفس... في نعيم مقيم لا يزول أبداً، ولا حدود له... ومع الجنة الحرير (وحريرا)، وهو جزء من هذه المكافأة، والمقصود بذلك الحياة المنعّمه بكل مظاهر النعمة، وأولها ما يجده الإنسان من الراحة في ما يرتديه من لباس في نعومته، وفخامته، وأناقته... وكل أنواع الراحة التي تدخل السرور الى قلبه، والطمأنينة الى نفسه.

ويأتي تفصيل هذه المكافأة في الآية ١٣ التي تصوّر جانباً من هذه الرفاهية: "متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا." فمقاعدهم أرائك وثيرة يجلسون على بعضها، ويتكئون على البعض الآخر، بحيث لا يصيبهم من هذا الجلوس لا تعب، ولا انزعاج، ولا ضجر...

وفي هذه الجنة لا ينغص عليهم حياتهم شيء، لا من شمس محرقة، ولا من برد قارس. وهذان (الشمس والثلج) من أهم ما يمكن أن ينغص على الإنسان حياته في الحياة الدنيا.

ـ والجانب الثاني من هذه المكافأة يتعلق بالطعام، ويتمثل هنا بثمار الجنة، التي تحملها أشجار ضاربة في الفضاء، وتحمل من تلك الثمار ما تشتهيه النفوس ـ وتلذ الأعين رؤيتها كما ورد في سورة الزخرف الآية ٧١: "يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون.". وكذلك في سورة الواقعة الآية ٢١. وهذه الأشجار مذلّلة لهم تذليلاً، بحيث لا يستعصي عليهم شيء من هذه الثمار، فكلها طوع أيديهم... ويأتي كل ذلك في جو من ألطف ما يكون، في تلك الجنة التي أظلّتها أشجار الجنة العظيمة، ذات الثمار الشهية، والروائح الزكية، والمناظر المبهجة... فتتم السعادة على نحو ما أراده الله تعالى لأهل هذه الجنة...

ـ ولتمام هذه السعادة، فقد أعفي هؤلاء الأطايب الأخيار من الخدمة، حتى خدمة أنفسهم في هذه الجنة، إذ سخّر الله تعالى لهم من يقوم بخدمتهم على أحسن وجه: وفي الآيتين ١٥ و ١٦: "ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قواريرا من فضة قدروها تقديراً". فهناك إذن من يخدمهم "يطوف عليهم ولدان مخلّدون". وهؤلاء الولدان في هيئة حسنة، وقوة ونشاط، وطاعة لأوليائهم، وهم في حالة فتوة دائمة، وشباب دائم لا يهرمون. أما الآنية التي بين أيديهم فهي: آنية من فضّة. وقد جمعت لفظة آنية جميع معاني ما يستخدم من الأواني... هذا بالإضافة الى أكواب هي قوارير من فضة، وفي صفائها، وجمالها، وبما تبعثه في النفس من الأنس بمنظر تراه العين، شبيه بذلك الأنس الذي يشعر به أهل الجنة عندما يشربون من مياهها العذبة. وتأتيهم هذه الآنية وتلك القوارير مملوءة من الطعام والشراب بما يكفيهم ويلبي حاجاتهم وعلى ما يشتهون... (قدروها تقديراً).

ـ أما الشراب، ففي الآية ١٧: "ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً." وذلك أن المياه التي تقدّم لهم هي من أصفى المياه وأطيبها، ويكفي أن تكون من مياه الجنة. ثم إنها الى ذلك ممزوجة بكل ما يجعلها ألذ وأطيب، وهنا يذكر أن شرابهم ممزوج بالزنجبيل، بما له من طعم لذيذ، ورائحة طيبة.

أما مصدر هذا الشراب فهو من "عين تسمى سلسبيلاً". وهي عين في الجنة مخصصة لأهلها، ومن خواصها لذة الطعم على نحو ما يرغبون فيه.

- وفي الآية ١٩: "ويطوف عليهم ولدان مخلّدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً." وفيها تصوير للجو العام للجنة وأهلها بجميع طبقاتهم. بل يمكن القول: إن جميع أهل الجنة طبقة واحدة، وإن كان بينهم خادم

ومخدوم. إذ أن الخادم ليس أقل سعادة من مخدومه، ولا هو أقل أنساً بمخدوميه، من أنس مخدوميه به. إذ أن هؤلاء الولدان مكرّمون ومترفون، وقد أنعم الله عليهم بنعم كثيرة، ومن هذه النعم: أن جعلهم موكلين بخدمة هؤلاء الناس الذين اصطفاهم الله تعالى لغايات عظيمة عنده، ثم إنهم قد نجحوا في الاختبار الإلهي (الابتلاء) على ما أشارت إليه الآية الثانية من هذه السورة المباركة. ومن هذه النعم أيضاً أن جعلهم "مخلدون"، فلا يهرمون، ولا يصيبهم تعب ولا نَصَب، حتى أن الناظر إليهم يراهم كاللؤلؤ المنثور، في صحة، وعافية، وجمال الشكل، واللطافة... وما يشيعونه في نفس من يراهم ويشاهدهم من الراحة النفسية والطمأنينة، مما يجعله يحبّهم، ويحترمهم، ويأنس بهم.

وفي الآية ٢٠: "وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً"

وما يزال المشهد في الجنة، والجنة واسعة الأرجاء ولا حدود لها، ولا تفاوت بين أنحائها وأرجائها، بحيث أنه حيثما وقع نظر الإنسان، وحيثما حدّق وأبصر وأنعم النظر يرى نعيماً مقيماً قد غمر كل شيء، وازدان به كل شيء، واغتبط به كل شيء... وهو نعيم كبير لا يحيطه وصف، ولا يقلل من شأنه شيء، وهو ضامن لسعادة دائمة لا تزول.

- وفي الآية ٢١: "عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً".

فبعد أن تحدث في الآية ١٣ عن مكافأة الله تعالى لهؤلاء المؤمنين بقوله تعالى: "وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً"، عاد في هذه الآية الكريمة (٢١) للحديث عن الثياب التي يلبسونها: فهي ثياب من سندس، وهي أرق أنواع الحرير، وهي ثياب خضراء تعبّر عن الأمل الذي يعتمر النفوس، والشكر للنعمة الإلهية التي جعلتهم في حال من الاستقرار والطمأنينة، كما تنشر حولهم جواً من البشر والسعادة على نحو ما يبعثه اللون الأخضر من الأمل والرجاء والطمأنينة النفسية. ونوع آخر من الحرير هو الاستبرق. فجمعت ثيابهم بين الحرير والاستبرق في نوع من تداخل الأنواع الحريرية بحيث تتكامل مادة الثياب فتعطي من هذه الثياب أجملها منظراً، وأنفسها، وأصفاها لوناً حتى تكتمل بها سعادة الظاهر، وتجتمع بسعادة الباطن، فتبلغ السعادة منتهاها.

ومع الحرير من السندس والاستبرق، وحتى تكتمل الزينة الإلهية المطمئنة، كانت الأساور التي خصصوا بها، وهي مصنوعة من الفضة. وما ندري ما إذا كانت هذه الفضة تفضل الذهب أو تعدله، أوهي خير منه.

وبعد اكتمال الزينة يأتي الاحتفاء بنزلاء الجنة، وهم ضيوف عند رب كريم، وأول الضيافة شراب طاهر مقدس، تحيا به الأرواح، وتنتعش النفوس.

- وفي الآية ٢٢: "إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً".

وبعد هذه الحفاوة العظيمة التي تجاوزت كل تقدير، وتخطت الأفكار، والآمال وما تحدّث به النفوس، وكأن حديثاً يجري عن مقدار هذه الحفاوة بين المحتفى بهم، أو بين الواحد منهم ونفسه، فيسأل نفسه: ولماذا كل هذه الحفاوة؟ ليس استصغاراً للواحد منهم لشأنه ومكانته عند الله، وإنما تقديراً لكرم الله تعالى. هذا الكرم الذي لا يُحَدّ.

ويأتي الجواب سريعاً من عند الله تعالى: إن هذا كان لكم جزاءً. فإن ما قدّمه هؤلاء القوم في سبيل الله وابتغاء مرضاته قد كان عظيماً، فاستوجب هذا الجزاء العظيم. وزيادة على ذلك، فإن الله شاكر عليم، كما ورد في سورة البقرة ـ الآية ١٥٨، وفي سورة النساء ـ الآية ١٤٧، وفي سورة الإسراء ـ الآية ١٩: "فأولئك كان سعيهم مشكوراً".

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا
(٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ
يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ
وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ
تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي
رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

٢٥ـ بكرة وأصيلاً: صباحاً ومساءً.
٢٧ـ ويذرون: يتركون.
ـ يوماً ثقيلاً: عسيراً.
٢٨ـ شددنا أسرهم: قوّيناهم.

- وبعدما صوّر المقطع السابق من السورة الكريمة حال المؤمنين الذين نذروا، ثم وفوا بالنذر على صورة قلّ نظيرها، إن لم نقل استحال وجود مثله، لما حمله من الإيثار العجيب، من الكبار والصغار، ومن الصبر الأعجب، ومن الامتثال لأمر الله، والرغبة في رضاه، وتقديم صورة عظيمة للمؤمن المثالي المصدّق لما جاء به النبي (ص) من عند الله... إذا بالسورة الكريمة تنتقل الى مرحلة جديدة وموضوع جديد، هو موضوع علاقة الناس بنبيّهم، وما يتوجب عليهم تجاهه، وما يترتب على مخالفته من العقاب...

ويبدأ هذا المقطع بتثبيت رسول الله ودعمه في مهمته الرسالية والتأكيد له بأنه في رعاية الله وحمايته وتأييده. وقد جاء في الآية ٢٣: "إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً." فالقرآن تنزيل من عند الله تعالى، وقد جاء هذا التأكيد لدحض ادعاءات الكافرين بأن ما جاء به النبي (ص) ليس من عند الله، وقالوا في ذلك أقاويل مختلفة. أما وسيلة هذا التأكيد فهي:

١ـ استعمال إنّ، وهي حرف تأكيد.
٢ـ (نحن) ضمير منفصل لتأكيد الضمير المتصل (نا).
٣ـ تأكيد الفعل (نزلنا) بالمفعول المطلق (تنزيلاً).

وذلك كله من باب الدعم المطلق، بتعيين صاحب الفعل (نحن = الله تعالى) ثم بتعيين مصدر الذي نُزّل على الرسول (ص)، فهو من عند الله، وهو غير مقتبسٍ عن أحد، ولا هو تعليم من أحد، ولا تشبّه بأحد، ولا اختراع شخصي...

- ثم تأتي دعوة الله تعالى الى موقف يثبت عليه في الآية ٢٤: "فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أوكفوراً". وهو من نوع الموقف الذي اتخذه المؤمنون الذين استحقوا إكرام الله تعالى لهم، والاحتفاء بهم في الجنة، بل إن الرسول هو الذي كان المثال في الصبر على أذى الناس في تبليغ دعوة الله تعالى، واحتمال مشقات القيام بهذا الواجب حتى صار هو المثال للصبر والثبات.

وفي أسباب نزول هذه الآية الكريمة أنها نزلت في عدو الله أبي جهل. ومنهم من قال إنها نزلت في عتبة ابن ربيعة والوليد بن المغيرة اللذين قالا للنبي (ص): ارجع عن هذا الأمر. وهما: أحدهما آثم، والثاني كفور (شديد الكفر)، وما ينبغي للنبي (ص) أن يسمع كلامهما، أو كلام ووعيد أبي جهل، أو أي كافر آخر...

ثم تبيّن الآية الكريمة للنبي (ص) بأن هذه الدعوة هي "حكم ربك" وحكم الله نافذ ولا يمكن لأحد أن يخالفه أو يتردد في تنفيذه.

- وفي الآية ٢٥ تستمر التوجيهات للنبي (ص) لتكون من الفروض الدينية التي يتقرّب بها الإنسان الى ربه، وتكون القوة التي ترفد الملتزم بها بالصبر والقوة والثبات، تقول الآية الكريمة: "واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً." وقال المفسرون: اذكر اسم ربك فيها دعوة لاستمرار التسبيح صباحاً ومساءً...
- وتضيف الآية ٢٦: "ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً." فهي تركّز على صلاة الليل (فاسجد له)، وعلى التسبيح (ليلاً طويلاً)، وذلك على نحو ما ذكر الله تعالى في سورة هود: "وأقم الصلاة طرفي النهار وزُلَفاً من الليل"، الآية ١١٤، ومثلها في سورة طه الآية ١٣٠، ومثلها أيضاً في سورة المزّمل، الآيات ٢ـ ٣ـ ٤: "قم الليل إلا قليلاً. نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً".

ويأتي كل ذلك: ما ورد في هذه الآيات الكريمة، وغيرها من السور الأخرى، ضمن منهج عبادي محدد وواضح، لما في مثل هذا المنهج التعبّدي من تثبيت لمن يقوم بأمره، وشدّ أزره، وصفاء نفسه، وقوة عقيدته...

- وتتحدث الآية ٢٧ عن الكافرين الذين يعترضون على النبي، ويحاربونه، ويريدون منه أن يتوقف عن نشر رسالة السماء... وفيها: "إن هؤلاء يحبّون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً." وهي تشرح حالتهم النفسية: فهم "يحبّون العاجلة" وهي الحياة الدنيا، ويفرحون بها. وينسون أن الآجلة (الحياة الآخرة) هي الأفضل. ونعيم الحياة الدنيا الى زوال. ونعيم الآخرة لا يزول. وثواب الآخرة أعظم وأكبر من ثواب الدنيا...

وذكر هذا الأمر هو للتدليل على عدم تبصّر هؤلاء الكافرين بالأمور. وعلى فساد رأيهم ومنهم المقصّر عن معرفة الحقيقة. وسبب ذلك أنهم لا يفكرون بالحساب "ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً". وهو يوم القيامة. وهو ثقيل لأنه تتجمع فيه سيئات الكافرين جميعها. فيحملها دفعة واحدة، وهو غير قادر على حملها، ولو أنه كان يحسب حساب هذا اليوم لأكثر من عمل الحسنات التي تخفف من سيئاته. وقد عبّر عن ذلك بالقول: "ويذرون وراءهم". وقلّما يعود الإنسان الى ما تركه خلفه لينظر فيه، وإنما ينساه، وينسى معه ما يترتب عليه من أعمال الشر التي ارتكبها في حياته من التبعات.

- وفي الآية ٢٨: "نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً".

وهنا تذكير للكافرين بصورة خاصة، وبأسلوب الحكاية عنهم وليس الخطاب لهم. كما هو تذكير لكل إنسان بأساس خلقه، وبفضل الله تعالى عليه. وهنا تأتي هذه الآية لربط آخر السورة بأولها. وفي أولها: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً...". وفي الآية ٢٨ يذكر الله تعالى: نحن خلقناهم وشددنا أسرهم... ومعنى ذلك أحكمنا خلق هذا الإنسان، وجعلناه متناسق الأعضاء التي يشدّ بعضها بعضاً، وزودناه بالقوى والقدرات المختلفة وهذا التذكير يرمي الى أن كل حياة الإنسان وقدراته من الله.

ثم لا تكتفي الآية بالتذكير، بل إنها تنتقل الى التحذير من الذهاب بكل ما وهبه الله تعالى من القوى، وبمحوه من الوجود، واستبداله بغيره مما لا يكون مثله: "وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً." كما ورد في سورة محمد (ص) "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم." (الآية ٣٨).

أما لماذا هذا التحذير؟ ذلك أن الله تعالى "ذو أناة لا يعجل" وسبب عدم العجلة ترك المجال مفتوحاً أمام هؤلاء الناس للتوبة. وفي الآية ٢٩ جواب ذلك.

- تقول الآية ٢٩: "إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربّه سبيلاً". إذن، فالله تعالى يذكّر هؤلاء القوم ويمهلهم، لعلهم يعرفون السبيل الى الله ويسيرون فيه، فيستغفرون من ذنوبهم، ويرتدعون عن الكفر، ويؤمنون بالله ورسوله، وما أنزل إليه.

وهذه الدعوة الى التوبة نوع من التبصرة والهداية، وهو لا يجبرهم عليها: "فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً"...

- وفي الآية ٣٠: "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً." والمعنى أن مشيئة العبد متوقفة على مشيئة الله تعالى... ومشيئة الله تعالى ليست متعلقة بفعل العبد. فالعبد يختار أفعاله التي يأتيها بإرادة حرة. والله يحاسبه على هذه الأفعال (الميزان في تفسير القرآن). ويبقى حكم الله تعالى متوقفاً على أمرين: العلم

بحقيقة الأمور، والحكمة التي تجعل الحكم عادلاً ولا يقوم لا على الغضب، ولا على الميل أو الهوى أو الانتقام... أو غير ذلك، بل على العدالة وحدها.

- وفي الآية ٣١: "يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً."

وفي هذه الآية تفسير لتلك العدالة التي تحتملها الآية السابقة. ومن يشاء يعني المستحقين لهذه الرحمة. أما الظالمون فمصيرهم الى العذاب "والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً.".

ملحق

وقائع إسلامية أخرى

لم تكن سورة الدهر وحدها من سور القرآن الكريم وآياته التي أشادت بالإمام عليّ عليه السلام، وبأهل بيته الطاهرين. وسنذكر هنا بعضاً من الوقائع الإسلامية التي تشهد على ذلك.

أ- **"وأنذر عشيرتك الأقربين"**:

عن تفسير الثعلبي عن براء بن عازب، قال: لما نزلت هذه الآية: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، جمع رسول الله(ص) بني عبد المطلب، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً... فأمر علياً بِرِجْل شاة، فَأَدَمَها[١]، ثم قال: ادنوا[٢]. بسم الله. فدنا القوم عشرةً عشرة، فأكلوا حتى صَدَروا[٣]. ثم دعا بِعَقِبٍ[٤] من لبن، فجرع منه جرعاً، ثم قال لهم: اشربوا بسم الله. فشربوا حتى رَوَوْا[٥]. فبدرهم[٦] أبو لهب: هذا ما سحركم به الرجل، فسكت(ص) يومئذٍ ولم يتكلَّم.

ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب. ثم أنذرهم رسول الله(ص) فقال: "يا بني عبد المطلب، إني أنا النذير إليكم من الله عزّ وجلّ، فأسلموا وأطيعوني تهتدوا".

ثم قال: "من يؤاخيني ويؤازرني، ويكون وليّي ووصيّي بعد، وخليفتي في أهلي، ويقضي دَيْني؟

فسكت القوم. فأعادها ثلاثاً. كل ذلك يسكت القوم، ويقول عليّ: أنا. فقال في المرة الثالثة: أنت[٧]. فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أَطِع ابنك، فقد أُمِّرَ عليك.

الميزان في تفسير القرآن
المجلد ١٥ صفحة ٣٣٥

١- فأَدَمها: طبخها...
٢ - ادنوا: تقدّموا للطعام.
٣ - صدروا: رجعوا.
٤ - عَقِبٍ: وعاء آخر.
٥ - رَوَوْا: ارتَوَوْا. ذهب عطشهم وشبعوا.
٦- فبدرهم: عاجلهم، أسرع إليهم بالقول.
٧ - يعني: انت وليّي ووصيّي...

ب ـ **"إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا"...**

عن ابن عباس: (أقبل رجل مُعتَمٌّ بعمامة، فقال له ابن عباس: من أنت؟ قال: فكشف العمامة عن وجهه، و قال: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني و من لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري سمعت رسول الله بهاتين و إلا فَصُمَّتا [١] و رأيته بهاتين و إلا فعميتا يقول: علي قائد البَرَرة[٢] و قاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله. أما إني صليت مع رسول الله يوما من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء و قال: اللهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئا، و كان علي راكعا فأومأ إليه بخنصره اليمنى، و كان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبي(ص) فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء و قال: اللهم موسى سألك فقال: رب اشرح لي صدري، و يسر لي أمري، و احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، و اجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي، اشدد به أزري، و أشركه في أمري. فأنزلت عليه قرآنا ناطقا: سنشد عضدك بأخيك، و نجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا. اللهم و أنا محمد نبيك و صفيك، اللهم و اشرح لي صدري و يسر لي أمري، و اجعل لي وزيرا من أهلي عليا اشدد به ظهري.

قال أبو ذر: فما استتم رسول الله(ص) الكلمة حتى نزل عليه جبرئيل من عند الله تعالى فقال: يا محمد اقرأ قال: و ما أقرأ: قال: اقرأ: [**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)** وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)]

الميزان في تفسير القرآن
المجلد السادس صفحة ٢١ـ ٢٢ـ ٢٣

١ـ وإلا فَصُمَّتا: إن لم يكن يدعو عليهما بالصمم.
٢ـ البَرَرَة: التقاة، الأبرار.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس، قال:

أقبل عبد الله بن سلام، ومعه نفر من قومه ممن آمن بالنبي(ص) فقالوا: يا رسول الله إن منازلنا بعيدة، و ليس لنا مجلس و لا مُتَحَدَّث[١] دون هذا المجلس، و إن قومنا لما رأونا قد آمنا بالله و رسوله و قد صدقناه رفضونا، وآلَوْا على أنفسهم[٢] أن لا يجالسونا و لا يناكحونا و لا يكلمونا، و قد شَقَّ[٣] ذلك علينا.

فقال لهم النبي(ص) "إنما وليكم الله و رسوله و الذين آمنوا - الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هم راكعون".

ثم إن النبي(ص) خرج إلى المسجد و الناس بين قائم و راكع، و بصر بسائل[٤]، فقال له النبي(ص): هل أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم خاتم من ذهب، فقال له النبي(ص): من أعطاكه؟ فقال: ذلك القائم و أومأ بيده إلى علي بن أبي طالب فقال النبي(ص): على أي حال أعطاك؟ قال: أعطاني و هو راكع، فكبر النبي(ص) ثم قرأ :"و من يتول الله و رسوله - فإن حزب الله هم الغالبون".

فأنشأ حسان بن ثابت يقول:

أبا حسن تفديك نفسي و مهجتي ... وكل بطيء في الهدى و مسارع

أيذهب مدحي و المحبين ضائعا ... وما المدح في ذات الإله بضائع

فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعا ... فدتك نفوس القوم يا خير راكع

بخاتمك الميمون يا خير سيد ... ويا خير شار، ثم يا خير بائع

فأنزل فيك الله خير ولاية ... وبينها في محكمات الشرائع

الميزان في تفسير القرآن
المجلد السادس صفحة ٢٣

١ - مُتَحَدَّثٌ: مكان نجتمع فيه ونتحدَّث.
٢ - آلَوْا على أنفسهم: أخذوا على أنفسهم عَهْداً، صمَموا.
٣ - شقّ ذلك علينا: وجدناه شاقاً: صعباً.
٤ - بَصُرَ بسائلٍ: شاهد فقيراً يسأل: يطلب صدقة.

ج ـ أول من استجاب لله ورسوله:

ورد في سورة هود قوله تعالى: (أفمن كان على بينةٍ من ربه ويتلوه شاهد منه)...

وفي (بحث روائي) في موسوعة "الميزان في تفسير القرآن" المجلد العاشر، الصفحة ١٩٤ وما بعدها، ورد ما يأتي:

"في أمالي الشيخ، بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدّه عليّ بن الحسين، عن الحسن عليه السلام في خطبة طويلة خطبها بمحضر معاوية، ومنها: "... فأدَّت الأمور، وأفضت الدهور إلى أن بعث الله محمداً(ص) للنبوّة، واختاره للرسالة، وأنزل عليه كتابه، ثم أمره بالدُّعاء إلى الله عزّ وجَلَ، في كتابه المنزل على نبيّه المرسل: (أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ). فرسول الله(ص) الذي على بينة من ربه، وأبي الذي يتلوه، وهو شاهد منه"

وفي "بصائر الدرجات" عن الأصبغ بن بناتة، قال: "قال أمير المؤمنين عليه السلام: لو كسرت لي الوسادة فقعدت عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم و أهل الإنجيل بإنجيلهم و أهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يصعد إلى الله يزهر، و الله ما نزلت آية في كتاب الله في ليل أو نهار إلا و قد علمت في من أنزلت، و لا أحد ممن مر على رأسه المواسي إلا و قد أنزلت آية فيه من كتاب الله تسوقه إلى الجنة أو النار".

فقام إليه رجل فقال: "يا أمير المؤمنين، ما الآية التي نزلت فيك؟ قال: "أما سمعت الله يقول: (أفمن كان على بينةٍ من ربه ويتلوه شاهد منه). فرسول الله(ص) على بينة من ربه، وأنا الشاهد له ومنه".

دـ عصمة آل البيت:

ورد في سورة الأحزاب قوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تطهيرا) [الآية: ٣٣].

وقد وقعت هذه الآية الكريمة في غير موقعها، لأن سياق الآية غير منسجم مع الآيات السابقة، وذلك أن الخطاب في هذه الآية لآل البيت، وفيهم علي والحسن والحسين بالإضافة الى السيدة الزهراء عليها السلام. ونساء النبي ليس بينهن رجل ليصحّ خطابهنّ بصيغة المذكر. ونصّ الآية الكريمة: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تطهيرا) ... فقال: عنكم، ولم يقل عنكن... وفي الآيات التي سبقتها من سورة الأحزاب: منكن، لستنّ، اتقيتُنّ، تخضعن، قلن، وقَرْنَ في بيوتكن، ولا تتبرّجن، وأقمن، وآتين، وأطعن... ثم

فجأة: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تطهيرا)... فلو صحّ موقع الآية لكان يجب أن تكون: ليذهب عنكُنَّ...

وقد قيل الكثير حول هذا الموضوع، فيمكن مراجعته في مكانه.

وروى الرواة أن النبي(ص) "كان يأتي باب عليّ وفاطمة وحسن وحسين كلّ يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضادتي الباب ويقول: السلام عليكم أهل البيت، ويقول: الصلاة (ثلاث مرات)، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً". (عباس محمود العقاد في كتابه: فاطمة الزهراء صفحة٣٠).

وفي آية المباهلة ورد قوله تعالى: (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ). [آل عمران: ٦٠]. وكان وفد النبيّ إلى المباهلة مؤلفاً ـ بأمر الله تعالى ـ من:

ـ الحسن والحسين عليهما السلام: (أبناءنا).
ـ فاطمة (وحدها): (نساءنا).
ـ رسول الله(ص) وعلي عليه السلام: (أنفسنا).

فقد أنزل الله تعالى علياً منزلة نفس الرسول. وهذا ما يفسّر قول رسول الله(ص) في حجة الوداع: من كنت مولاه فعليّ مولاه...

هـ ـ حديث الكساء:

حديث الكساء حديث مرويٌ عن فاطمة عليها السلام. وذكره الإمام أحمد في الجزء السادس من مسنده الصفحة ٣٢٣ من أمّ سلمة. وذكره أيضاً مسلم في صحيحه الجزء الثاني الصفحة ٣٣١، ويرويه عن عائشة. وأشار إليه الشريف الرضي عليه الرحمة، في قصيدة رثى بها الإمام الحسين عليه السلام:

قتلوه بعد علم منهمو   أنه خامس أصحاب الكسا.

في هذا الحديث: أن النبي محمداً(ص) زار يوماً ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، وأقام عندها وقتاً. وطلب منها أن تغطيه بكساء يمانيّ كان عندها، ففعلت. وبعد مدة أقبل الحسن، فأدناه منه رسول الله(ص)، وأدخله

معه تحت الكساء. وكذلك فعل مع الحسين، ثم مع عليّ عليه السلام. واستأذنت فاطمة عليها السلام والدها النبي(ص)، فأذن لها أن تكون معهم تحت الكساء.

قالت فاطمة عليها السلام: فلما أكتملنا جميعا تحت الكساء ، أخذ أبي رسول الله بطرفي الكساء ، وأومى بيده اليمنى إلى السماء وقال : اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، لحمهم لحمي ، ودمهم دمي ، يؤلمني ما يؤلمهم، ويحزنني ما يحزنهم. أنا حرب لمن حاربهم ، وسلم لمن سالمهم ، وعدوٌ لمن عاداهم ، ومُحب لمن أحبهم. إنهم مني وأنا منهم، فاجعل صلواتك وبركاتك ، ورحمتك وغفرانك ورضوانك عليّ وعليهم وأذهب عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيراً.

فقال الله عز وجل : يا ملائكتي ويا سكان سماواتي ، إني ما خلقت سماء مبنية ، ولا أرضا مدحية، ولا قمرا منيرا ، ولا شمسا مضيئة و لا فلكا يدور ، ولا بحرا يجري إلا في محبة هؤلاء الخمسة ، الذين هم تحت الكساء...

ونزل جبرائيل على النبي(ص)، وأبلغه ما أنزل الله تعالى فيهم من الوحي في قوله تعالى: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرك تطهيراً".

وقد رُويَ هذا الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري بسند صحيح، رواه الشيخ عبد الله بن نور البحراني في كتابه في عوالم العلوم...

و- موقعة بدر:

في ذكر موقعة بدر، ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) [الأنفال: ٧].

ففي هذه الآية الكريمة وعد للمؤمنين بالنصرة، وإنذار بقطع دابر الكافرين. وكل من قرأ القرآن عامَّة، وسورة الأنفال بخاصّة، يعرف: أن الله لا يخلف الميعاد وكانت هزيمة للمشركين في موقعة بدر. والله تعالى يقول في ذلك: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [الأنفال: ١٣].

وفي تفصيل ما جرى أن عدد المقاتلين في جيش النبي كان ثلاثمئة وأحد عشر مجاهداً.

وكان عدد المشركين كبيراً، وبما يزيد على ألف من المقاتلين، يقودهم أبو سفيان.

ولمَّا نظر النبي(ص) إلى كثرة عدد المشركين، وقلّة عدد المجاهدين، استقبل القِبلة وقال: "اللهم إن تَهْلِك هذه العصابة لا تُعْبدْ في الأرض".

وكانت قافلة لقريش عائدة من الشام، بقيادة أبي سفيان، وفيها أربعون راكباً. فأمر النبي(ص) أصحابه للخروج إلى هذه القافلة فيأخذوها.

واستنجد أبو سفيان بقريش، وأخبرهم أن محمداً(ص) تعرّض للقافلة.

ونودي في قريش بطلب نجدة القافلة. فما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج مالاً لتجهيز الجيش. وقالوا: من لا يَخرُجْ نَهدِمْ داره. وخرج معهم عدد من سادة قريش، ومعهم القيان يَضْرِبنَ الدفوف.

وتخوّف نَفَرٌ من المسلمين من مَغَبَّة هذه الحرب... وقال المقداد للنبي: يا رسول الله إنها قريش... وقد آمنَّا بك وصدّقنا، وشَهِدْنا أن ما جئت به حق، والله لو أمرتنا أن نخوض جَمْرَ الغَضا وشَوْكَ الهِراس لخضناه معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربّك فقاتلا إنا هَهُنا قاعدون. ولكنّا نقول: إمضِ لأمر ربّك فإنا معك مقاتلون.

وقال سعد بن معاذ زعيم الأنصار للنبي(ص): بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله. إنا قد آمنَّا وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به حق من عند الله، فمُرْنا بما شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منها ما شئت. والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك، ولعلّ الله عزّ وجلّ أن يُرِيَك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

وصبيحة يوم بدر، كان في عسكر النبي(ص) فَرَسَان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود. وكان في عسكره سبعون جملاً كانوا يتعاقبون عليها. وكان رسول الله(ص) وعليّ بن أبي طالب عليه السلام ومَرْثِد الغُنوي يتعاقبون على جملٍ لمرثد. وكان في عسكر قريش أربعمئة فرس.

فلما نظرت قريش إلى قلّة أصحاب رسول الله(ص) قال أبو جهل : "ما هم إلا أكلة رأس ، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد".

... وقام أبو جهل ولبس درعه، وتقدَّم هو أخوه شيبة، وابنه الوليد، وقال: يا محمّد! أخرِج لنا أكفاءنا من قريش. فنظر رسول الله(ص) إلى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان له يومئذٍ سبعون سنة. فقال: قم يا عُبَيْدةُ.

ونظر إلى حمزة فقال: قم يا عمّ.

ونظر إلى عليّ بن أبي طالب، فقال: يا عليّ. وكان أصغر القوم. وقال لهم رسول الله(ص): "اطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم". فقد جاءت قريش بِخُيَلائها وفخرها، تريد أن تطفئ نور الله ويأبى الله إلا أن يُتم نوره. ثم قال: يا عُبَيدة! عليك بعُتبة بن ربيعة.

وقال لحمزة: عليك بشيبة.

وقال لعلي: عليك بالوليد.

وانتهى الثلاثة إلى القوم، فقالوا: أكفاءٌ كِرام.

وحمل عبيدة على عتبةَ، فضربه على رأسه ضربةً فَلَقَتْ هامته.

وضرب عتبة عبيدة على ساقه فأطَنّها. فسقطا جميعاً.

وحمل شيبة على حمزة فتضاربا بالسيفين حتى انثلما.

وحمل أمير المؤمنين علي عليه السلام على الوليد فضربه على عاتقه، فأخرج السيف من إبطه...

ثم اعتنق حمزة وشيبة، فقال المسلمون: يا عليّ أما ترى أن الكلب قد نَهَزَ عمَّك؟ فحمل عليّ على شيبة، ثم قال للحمزة: يا عمّ طأطئ رأسك. وكان حمزة أطول من شيبة، فأدخل حمزة رأسه في صدره، فضرب عليّ شيبةَ فَطَرَح نصفه. ثم جاء إلى عتبة وبه رَمَقٌ، فأجهز عليه.

وحمل حمزةُ وعليٌّ عُبَيْدَةَ حتَّى أتيا به إلى رسول الله، فاسْتَعْبَرَ. فقال عبيدة: يا رسول الله! ألستُ شهيداً؟ قال: بلى أنت أول شهيد من أهل بيتي.

ز- غزوة أحد:

عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه قال:

كان سبب غزوة أُحُد أن قريشاً لما رجعت من بدر إلى مكَّة، وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، لأنه قتل منهم سبعون، وأُسِرَ سبعون... فخرجوا من مكة بقيادة أبي سفيان، في ثلاثة آلاف فارس، وألفي راجل، وأخرجوا معهم النساء.

فلما بلغ رسول الله(ص) ذلك، جمع أصحابه وحثّهم على الجهاد... فنصحه بعضهم بالخروج إليهم، ونصحه آخرون بالتحصّن في المدينة...

وفضل النبي(ص) الخروج إليهم، وخرج معه نفر من أصحابه، ونشرهم النبي(ص) في مواقع قتالية. وكان عددهم سبعمئة رجل. وجعل عبداالله بن جُبير في خمسين من الرماة على باب الشعب، وقال له: ... لا تبرحوا، والزموا مراكزكم.

ووضع أبو سفيان خالد بن الوليد في مئتي فارس كميناً، وقال له: إذا رأيتمونا قد اختلطنا، فاخرجوا عليهم من هذا الشِّعْب حتى تكونوا وراءهم.

وعبَّأ رسول الله أصحابه، ودفع الراية إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام. وحمل الأنصار على مشركي قريش فانهزموا شرَّ هزيمة... وهجم خالد بن الوليد في مئتي فارس على عبد الله بن جُبَيْر فاستقبلوهم بالسهام، فرجعوا.

ونظر أصحاب عبد الله بن جُبير إلى أصحاب رسول الله(ص) يجمعون ما غنموه من المشركين، فقالوا لعبد الله بن جُبَيْر: قد غنم أصحابنا، ونبقى في أماكننا. فلم يقبلوا منه، وتركوا مواقعهم رجلاً إثر رجل حتى أَخْلَوْها. وبقي عبد الله بن جبير في اثني عَشَرَ رجلاً.

ـ كانت راية قريش مع طلحة بن أبي طلحة العبدي من بني عبد الدار، فقتله عليّ.

ـ وأخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة، فقتله عليّ.

ـ وسقطت الراية، فأخذها مسافع بن أبي طلحة، فقتله علي.

ـ وقتل عليّ عليه السلام تسعة نفر من بني عبد الدار...

ـ وصار اللواء إلى عبدٍ لهم أسود، فقطع عليّ يده اليمنى، فأخذ اللواء بيده اليسرى، فقطعها علي. فاحتضن اللواء... فضربه عليّ على رأسه فقتله...

هجم خالد بن الوليد على عبد الله بن جُبير الذي بقي في نفر قليل من رجاله، فقتلهم، ثم أتى المسلمين من ورائهم. وتجمَع المشركون حول خالد بن الوليد، وانهزم أصحاب رسول الله(ص) هزيمة عظيمة، ولاذوا بالجبال.

فلمّا رأى رسول الله(ص) الهزيمة كشف عن رأسه وقال: "إليّ أنا رسول الله، إلى أين تفرّون عن الله وعن رسوله".

وكان حمزة بن عبد المطلب يحمل لواء النبي، فلم يثبت له أحد من المشركين. وكانت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان قد أعطت خادمها وحشياً عهداً لتعطينّه عطاءات كثيرة إن هو قتل محمداً أوعلياً أو حمزة.

وكان وحشيّ عبداً حبشياً، فكمن لحمزة... الذي سقط عند حافَّة نهر هناك، فرماه وحشيّ بحربته فوقعت في خاصرته، فسقط... فشقّ بطنه، وأَخَذَ كبده، وجاء بها إلى هند، فأخذتها في فمها، فلاكتها...

ولم يبق مع رسول الله(ص) إلا أبو دجانة سِماك بن خرشة، وعليّ عليه السلام. وكان عليّ عليه السلام كلما حملت طائفة على رسول الله(ص)، استقبلهم فدفعهم عنه حتَّى تقطَّع سيفه، فدفع إليه رسول الله(ص) سيفه ذا الفقار.

وانحاز رسول الله(ص) إلى ناحية أُحُدٍ فوقف هناك. فلم يزل عليّ عليه السلام يقاتلهم حتى أصابه في رأسه ووجهه وبدنه وبطنه ورجليه سبعون جراحة. فقال جبرائيل: إن هذه لهي المواساة يا محمد.

فقال محمد(ص): "إنَّه مني وأنا منه".

فقال جبرائيل: وأنا منكما.

قال أبو عبدالله الإمام الصادق عليه السلام: نظر رسول الله إلى جبرائيل بين السماء والأرض، على كرسيّ من ذهب، وهو يقول:

ـ لا سيف إلا ذو الفقار.

ـ لا فتى إلا عليّ.

وكان نزول المشركين بِأُحُدٍ يوم الأربعاء من شوَّال سنة ثلاث من الهجرة، وخرج رسول الله(ص) إليهم يوم الجمعة.

وكان القتال يوم السبت النصف من الشهر.

وقتل من المسلمين في هذه الموقعة سبعون مجاهداً.

الميزان في تفسير القرآن
المجلد الرابع
الصفحة ١٠ وما بعدها

ح ـ حرب الأحزاب:

في حرب الأحزاب تحالف اليهود مع قريش، وانضمت إليهم بعض قبائل العرب مثل غَطَفَان، وبني أسد، وبني سُلَيْم. وكان أبو سفيان قائد قريش في هذه الحرب...

وقصدوا المدينة لمحاربة المسلمين...

فلما علم رسول الله(ص) بذلك، ضَرَبَ خندقاً حول المدينة، بمشورة من سلمان الفارسي...

ولمَّا فرغ رسول الله(ص) من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت في عشرة آلاف من غلمانهم، ومن بني كنانة، وأهل تِهامة وغَطَفان، وأهل نجْد، حتى نزلوا إلى جانب أُحُد.

وخرج رسول الله(ص) والمسلمون في ثلاثة آلاف، فضرب عسكره والخندقُ بينه وبين القوم. وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام[١].

ونقضت اليهود ما كان بينهم وبين رسول الله (ص) من عَهْدٍ. فلما انتهى الخبر إلى رسول الله (ص) قال: "الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين. وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظنّ المسلمون كلَّ ظنٍ"[٢].

استمرت الأحزاب من قريش ومن معها تحاصر المدينة بضعاً وعشرين ليلةً، لم يكن بينهم قتال إلا الرَّمْيُ بالنبال.

وكان عَمْرو بن عبد ودٍ العامري فارس قريش، قاتَلَ في بدرٍ، ولم يشهد أُحُداً. فلما كان يومُ الخندق دخل في الحرب. وكان يُعَدُّ بألف فارس... وكان عَمْرو بن عبد ورد قد اقتحم الخندق مع نَفَرٍ من فرسان قريش في مكان ضيّق منه، وراح يصول ويجول... وينادي: مَنْ يُبارز؟ ويرتجز:

ولقد بُحِحْتُ من النداء ـ بجمعهم: هل من مبارز؟
إنـي كـذلك لـم أزل مُتَسَرِّعاً نحو الـهزاهز[٣]
إن الشجاعة في الفتى والجودَ من خير الغرائز

[١] ـ الآطام: حصون أهل المدينة.
[٢] ـ يعني: خافوا خوفاً شديداً
[٣] ـ الهزاهز أو الهزائز: الشدائد.

فقام عليّ فقال: أنا له يا نبيّ الله، فقال له النبي(ص): "إنه عمْرو، اجلس... ونادى عَمْروا: ألا رَجُلٌ[١]! وهو يؤنّبهم ويقول: اين جَنَّتكم التي تزعمُونَ أنَّ من قُتِل منكم دخلها؟

فقام عليٌّ، فقال: أنا له يا رسول الله.

ثم نادى عَمْرو مرة ثالثة: فقام عليّ، فقال: أنا له يا رسول الله.

فقال النبي(ص): "إنه عَمْرو". فقال علي عليه السلام: وإن كان عَمْراً. واستأذن رسول الله، فأذن له. فمشى إليه وهو يقول:

لا تــعجلنّ فـقد أتــاك ـ مجيب صوتك غير عاجز
ذو نـيّـة وبـصيــرة والصدق منجي كــل فائز
إنــي لأرجـو أن أقــيم عـليك نـائحـة الـجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكـرها عـند الــهزاهز

قال عَمْرو: من أنت؟ قال: أنا عليّ، قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا عليُّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. فقال عَمْرو: غيرُك يابنَ أخي من أعمامِك من هو أَسَنُ منك، فإني أكره أن أُهَريقَ دمك [٢]، فقال عليّ عليه السلام: ولكنّي احب أن أقتلك. فغضب عَمرو، ونزل عن ظهر حصانه، وسلَ سيفه، ثم أقبل نحو عليّ مُغْضَباً، فضربه ضرْبَةً تلقَّاها عليّ بالتِرْسِ، فانشق، وأصاب السيفُ رأسَهُ فشجَّهُ [٣]. وضربهُ عليٌّ على عاتقه [٤]، فسقط... وسُمِعَ عليٌّ يُكبّرُ، فقال رسول الله(ص): "قتله والذي بنفسي بيده"، وقال النبي(ص) لعليّ: "أبْشِرْ يا عليّ، فلو وُزِنَ اليومَ عمَلُكَ بعملِ أمَّةٍ محمَّدٍ لَرَجَح عملُك بِعَمَلِهِمْ".

ط ـ فتح حصن خيبر:

كان يهود خيبر من أكثر يهود الحجاز عدداً، وأمنعهم حصوناً، وفيهم من الأبطال والشجعان من ذاع صيتهم.

وكان اليهود يتابعون أخبار المسلمين، وغزوات الرسول(ص)، وكانوا يدركون أن مواقفهم من الإسلام والمسلمين، والتعاون مع المشركين وأعداء الإسلام، ونقض العهود التي عاهدوا بها النبي(ص) لن تذهب دون

١ ـ ألا رَجُلٌ: ألا يوجد بطل شجاع؟
٢ ـ أُهريق دَمك: أُسيلَ دَمَكَ، أقتلك.
٣ ـ شجّه: جرحه.
٤ ـ عاتقه: كتفه.

عقاب... فأخذوا يستعدّون لمواجهة المسلمين... فأدخلوا نساءهم وذراريهم وأموالهم الحصون المنيعة... ونشبت المعارك بين المسلمين واليهود...

أرسل النبي(ص) بعض الصحابة على رأس جماعة من المسلمين لفتح خيبر... فما استطاعوا أن يحققوا أيّ انتصارٍ في هذه المواجهة. فقال النبي(ص): "والله لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبُّه اللهُ ورسولُه، يفتح الله على يديه".

وكان كل واحد من المسلمين يتمنّى أن يكون هو صاحب الراية. وكان عليّ أَرْمَدَ في ذلك الوقت. فلما أصبح الصبح، استدعى النبي(ص) علياً، فمسح على عينيه بيده، فبرئت عيناه، وأرسله النبي (ص) إلى خيبر.

هاجم الحارث أخو مَرْحب المسلمين، وكان من أبطال اليهود، فوثب عليه عليّ عليه السلام فقتله، ثم حمل بمن معه على اليهود، فتفرّقوا، واحتَموْا بالحصن.

عزّ على مَرْحَبٍ قتلُ أخيه، فخرج من الحصن وهو يقول:

قد علمت خيبرُ أنّي مَرْحبُ — شاك السلاح، بَطَلٌ مُـجَرَّبُ
إذا الـسيوف أقبلت تلتهبُ — أطعنُ أحياناً، وحيناً أضْرِبُ.

فبرز إليه عليّ وهو يقول:

أنا الذي سَمَّتني أمي حَيْدَرَة — كليث غابات شديدٍ، قَسْوَرُه
أكيلُكُم بالسيف كَيْل السِّنْدِره.

... ثم ضرب عليٌّ مرحباً ضربةً بسيفه، فقَدَّ الحَجَرَ الذي كان قد وضعه على رأسه مكان البيضة، وشَقَّ رأسه نصفين.

وورد في الأخبار أن فارساً من فرسان اليهود قد ضرب علياً بالسيف ضربة أسقطت التِرْسَ من يده، فتناول باباً كان عند الحصن، وأخذه بيده مكان الترس. فلما ألقاه من يده ـ يقول أحدهم ـ اجتمع على هذا الباب سبعة رجال، أنا ثامنهم، نجهد أن نقلبه فلم نستطع.

سيرة الأئمة الاثني عشر
الجزء الأول
الصفحة ٢٣٨

ي ـ خطبة الوداع:

أ ـ مناسبة الخطبة:

من كتاب الغدير ـ المجلد الأول ـ صفحة ٢١٤ و ٢١٥ و ٢١٦

(في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، سنة حجة الوداع، السنة العاشرة للهجرة، ولمَّا بلغ النبيّ الأعظم(ص) غدير خُم، أتاه جبرائيل على خمس ساعات مضت من النهار، فقال: يا محمد! إن الله يقرؤك السلام، ويقول لك: "يا أيُّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس".

وكان النبي في أول القوم، قريباً من الجحفة، فأمر أن يُرَدَّ من صدَّم منهم، ويحبس من تأخّر عنهم في ذلك المكان، وأن يُقيم علياً عليه السلام عَلَماً للناس، ويبلّغهم ما أنزل الله فيه، وأخبره بأن الله عزّ وجلّ قد عَصَمَهُ من الناس. ونادى النبي(ص) بالصلاة جامعة، فخطب خطبة بالغة، ثم قال:

ب ـ نص الخطبة:

١ ـ إخبار بالوحي ومضمونه:

إن الله تعالى أنزل إليَّ: بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يَعْصِمُكَ من الناس، وقد أمرني جبرائيل عن ربّي أن أقوم في هذا المشهد، وأُعْلِمَ كلَّ أبيضَ وأَسْوَدَ أنّ عليّ بن أبي طالب أخي وَوَصيّي وخليفتي والإمامُ بعدي. فسألت جبرايل أن يَسْتَعْفيَ[١] لي ربّي لعلمي بقلّة المتّقين، وكَثْرَةِ المُؤْذين لي، واللائمين لي لكثرة ملازمتي لعليٍّ، وشدّةِ إقبالي عليه، حتّى سمّوني أُذُناً، فقال تعالى: (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ). ولو شِئْتُ أن أُسمِّيهم وأدلَّ عليهم لفعلت، ولكنِّي بِسِتْرِهِمْ قد تَكَرَّمتُ. فلم يرض الله إلا بتبليغي فيه فاعلموا.

٢ـ علي وأولاده أئمة بأمر الله:

معاشر الناس! ذلك فإنَّ الله قد نَصَبَهُ لكم ولياً وإماماً، وفرض طاعته على كل أحد، ماضٍ حُكْمُهُ[٢]، جائزٌ قولُه، ملعون من خالفَهُ، مرحومٌ من صدّقَهُ. اسمعوا وأطيعوا، فإن الله مولاكم، وعلياً إمامكم. ثم الإمامةُ في وُلْدي من صُلْبِهِ إلى يوم القيامة. لا حلالٌ إلا ما أحلَّهُ الله ورسوله، ولا حرامٌ إلا ما حرَّم الله ورسولُهُ وهم.

---

[١] ـ أن يستعفي لي: أن يطلب من الله إعفاءه من تلك المهمة.

[٢] ـ ماضٍ حُكْمُهُ: حكمُهُ نافذ، لا تغيير ولا تبديل.

فما من عِلْمٍ إلا وقد أحصاهُ الله فيَّ، ونقلتُهُ إليه، فلا تَضِلوا عنه ولا تستنكفوا منه[١]، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به، لن يتوب الله على أحد أنكره ولن يغفر له، حتما على الله أن يفعل ذلك أن يعذبه عذابا نكرا[٢] أبد الآبدين، فهو أفضل الناس بعدي ما نزل الرزق وبقي الخلق، ملعون من خالفه، قولي عن جبرئيل عن الله، فلتنظر نفس ما قدمت لغد.

٣ـ التأكيد على ولاية عليّ عليه السلام:

افهموا مُحْكَمَ القرآن[٣] ولا تَتَّبعوا متشابهه، ولن يفسّر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده، وشائل بِعَضُدِهِ[٤] ومُعَلِّمُكُمْ: إنَّ من كنتُ مولاهُ فهذا عليّ مولاه، وموالاتُهُ من الله عزَّ وَجَلّ أنزلها عليّ.

ألا وقد أدَّيْتُ، ألا وقد بَلَّغتُ، ألا وقد أَسْمَعْتُ، ألا وقد أوْضَحْتُ: لا تَحِلُّ إمْرَةُ المُؤمِنين بعدي لأَحَدٍ غَيْرِه.

ثم رفعه إلى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبيّ(ص)، وقال: هذا أخي وَوَصيّي وواعي علمي، وخليفتي على من آمن بي، وعلى تفسير كتاب ربّي.

اللهم و والِ من والاه، وعادِ من عاداه، والعَنْ من أنكره، واغضب على من جَحَدَ حقَّه[٥].

٤ـ إكمال الدين بولاية علي عليه السلام:

اللهم إنك أنزلت عند تبيين ذلك في عليّ: اليوم أكملت لكم دينكم بإمامته، فمن لم يأتَمَّ به وبمن كان من وُلْدي من صُلْبِهِ إلى يوم القيامة، فأولئك حَبَطَتْ أعمالهم [٦] وفي النار هم خالدون.

٥ـ تحذير من إبليس:

إن إبليس أخرج آدم عليه السلام من الجنة ـ مع كَوْنِهِ صَفْوَةَ الله[٧] ـ بالحسد، فلا تَحْسُدوا فَتَحْبَطَ أعمالُكُم، وتَزِلَّ أقدامُكُمْ[٨]. في علي نزلت سورة (والعصر. إن الإنسان لفي خسر.)

---

١ ـ لا تستنكفوا منه: لا تمتنعوا عنه مستكبرين.
٢ ـ عذاباً نُكْراً: عذاباً شديداً لا يتوقع الناس مثله.
٣ ـ مُحْكَمُ القرآن: الآيات التي فيها حُكمٌ ثابت لا يتغيّر ولا يتبدّل، ولا اجتهاد فيه.
٤ - شائل بعضده: أرفع يده بيدي لتعرفوه دون شك ولا ريبة.
٥ ـ جحد حقه: أنكره.
٦ ـ حبطت أعمالهم: لا قيمة لأعمالهم مهما كانت.
٧ ـ صفوة الله: من اختاره الله لتأدية رسالة السماء.
٨ ـ تزل أقدامكم، تسقطوا ويلحق بكم الأذى، وتخسروا موقعكم...

٦ـ الدعوة إلى الإيمان الصحيح:

مَعَاشِرَ النَّاس! آمنوا بالله ورسوله والنّور الذي أنْزَلَ مَعَهُ من قبل أن نَطْمِسَ وجوهاً[١] فنردّها على أدبارها[٢] أو نَلْعَنَهُم كما لَعَنَّا أصحاب السبت[٣]. النورُ من الله فِيَّ، ثُمَّ في عليّ، ثم في النَّسل منه إلى القائم المهدي.

٧ـ التحذير من حكّام مُغْتَصِبين:

معاشِرَ الناس! سيكونُ من بعدي أَئِمَّةٌ يدعون إلى النَّار ويوم القيامة لا يُنْصَرون. وإنّ الله وأنا بريئان مِنْهُمْ. إنَّهُمْ وأنصارُهم وأتباعهم في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار. وسَيجعلونها ملكاً اغتصاباً. فعندها يَفْرُغُ لكم أيُّها الثقلان[٤]، ويُرسِلُ عليكما شُواظٌ[٥] من نارٍ ونُحاس فلا تنتصران.

٨ـ في هذه الخطبة:

أ ـ تركز هذه الخطبة على أمر واحد هو تبليغ النبي(ص) إلى الناس، ما أوحى الله به إليه من أمر خلافته.

ب ـ الخلافة في علي وأولاده.

ج ـ الخلفاء ـ الأئمة هم خلفاء النبي بأمر من الله ابتداءً بعليّ، وانتهاء بالإمام المهديّ المنتظر عليهم السلام.

د ـ هؤلاء الخلفاء طاعتهم مفروضة على الناس جميعاً، وهم يهدون إلى الحق وإلى صراط مستقيم. حلالهم حلال الله ورسوله، وحرامهم حرام الله ورسوله إلى يوم القيامة.

هـ ـ حصر تفسير القرآن بالنبي(ص) وعليّ دون سواهما من المسلمين.

و ـ موالاة عليّ أنزلها الله على رسوله.

ز ـ علي أخو النبيّ، ووصيّه، والعالم بعده، وخليفته على من آمن بالرسول(ص).

ح ـ الدعاء إلى الله بحفظ وتسديد وتأييد من والاه. وبمعاداة من عاداه وأنكره، ولعنة هؤلاء المنكرين، والغضب على من يجحده حقّه.

---

[١] ـ نطمس وجوهاً: نغشّيها فلا ترى، ولا تميّز.
[٢] ـ فنردّها على أدبارها: نعيدها إلى الزمن الأول؛ زمن الشرك...
[٣] ـ أصحاب السبت: بني إسرائيل.
[٤] ـ الثقلان: هنا: الجن والإنس.
[٥] ـ شواظ: قطع كبيرة.

ط ـ إكمال الدين من الله تعالى كان بإبلاغ الناس بإمامة عليّ، وباتباعه واتباع أبناء النبي(ص) من صلب علي إلى يوم القيامة.

ي ـ دعاء النبي(ص) بنصرة عليّ ومن ولاه، ومعاداة من خالفه وجحد حقّه.

ك ـ تأكيد أن إكمال الدين كان بإبلاغ النبي(ص) بولاية عليّ.

ل ـ التأكيد على ولاية عليّ باللفظ ليسمع جميع المسلمين الحاضرين:

ـ افهموا مُحْكم القرآن...

ـ ألا وقد أديّتُ.

ـ ألا وقد بلّغْتُ.

ـ ألا وقد أسمعتْ.

ـ ألا وقد أوضَحْتُ.

لا تحلّ إمرة المؤمنين بعدي لأحدٍ غيره:

واستأذن حسَّان بن ثابت رسول الله(ص) أن يقول في ذكر الحال شعراً، فأذِنَ له. فقال حسَّان: يا معشر مشيخة قريش: اسمعوا قولي بشهادة من رسول الله(ص). ثم قال:

يـناديهم يـوم الـغدير نبيُّهم — بِـــخُمٍّ، وأَسْـمِعْ بـالنبيّ مناديا

يقول: فمن مـولاكُمُ ووليُّكُمْ؟ — فقالوا، ولـم يُبْدوا هـناك التَّعاميا

إلــهُكَ مـولانا، وأنت وليُّنا — ولا تَـجِدن منا لأمــرك عاصيا

فـقال له: قـم يا عليّ، فإنني — رضيتُكَ مـن بعدي إماماً وهاديا

فمن كـنت مولاه، فهذا وليُّهُ — فـكونوا له أنصارَ صِدْقٍ مواليا

هُناك دعــا: اللهم والِ وَلِيَّهُ — وكُــنْ للذي عادى عليّاً معاديا.

١٠ ـ راوي حديث الغدير هو:

الحافظ أبو جعفر بن محمد الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ.

ورد هذا الحديث في كتاب الطبري هذا: "كتاب الولاية في طرق حديث الغدير". ويرويه عن زيد بن أرقم.

وقد ورد في مقدمة كتابه "تاريخ الرُّسل والملوك" طبعة دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية (ذخائر العرب) ما نصُّهُ:

"كان حَسَنَ الرأي، جميل الطريقة، لا يُخلي ليله من قراءة القرآن، ويذهب في جُلِّ مذهبه إلى ما عليه الجماعة من السلف، جارياً على طريق أهل السُنَّة، لم يقصد في ما ألّفه حاجةً من سلطان، أو تزلُّفاً إلى عظيم".

من جملة الكتب التي وضعها كتاب: "أحاديث غدير خم" في مجلَّدين، ابتدأه بالكلام في فضائل علي بن أبي طالب، وذكر طرق حديث خم.

وآخرون:

وليس الحافظ أبو جعفر بن محمد الطبري وحده الذي روى حديث الغدير (أو حديث الثَّقَلَيْن)، وإنما شغل هذا الحديث جميع المهتّمين بالحديث، وجميع صحابة الرسول(ص).

وقد اهتم مؤلف موسوعة الغدير في الكتاب والسنَّة والأدب[١]، بموضوع رواة الحديث، فبحث فيه بحثاً مستفيضاً، وذكر أسماء هؤلاء الرواة، وأثبت نصوصهم في كتابه، كما وزّع هؤلاء الرواة بحسب كل قرنٍ من القُرون، وبحسب التوقيت الهجري... فيكمن العودة إليه في هذا الموضوع لمن يرغب في المزيد من الاطلاع، وذلك في الجزء الأول من الموسوعة المذكورة.

١١ ـ كان عدد الذين شهدوا حفل تنصيب الإمام علي عليه السلام وصياً لرسول الله(ص) في الغدير مئة ألف أو يزيدون. وفيهم أشهر صحابة رسول الله(ص).

١٢ ـ تأريخ المناسبة على لسان الشعراء:

وقد خلّد كثير من الشعراء لهذه المناسبة بشعرهم. وكان الشاعر السيد الحِمْيَري أكثرهم قولاً فيها:

١ـ قال السيد الحِمْيري رحمه الله، في القصيدة المُذَهَّبة في مدح أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام:

و بخم إذ قال الإلهُ بِعــَزْمَةٍ: قُمْ يا محمدُ بالوَلايةِ فـاخطَبِ
وانصب أبا حسنٍ لقومِكَ إنَّهُ هادٍ، وما بلّغْتَ إن لـم تَنْصُبِ
فدعاهُ، ثـم دعاهم، فـأقامَهُ لَـــهُمُ، فبَين مُصدِّقٍ ومُكَذِبِ
جَـــعَلَ الوَلايةَ بَعْدَهُ لمُهَذّبٍ مـــا كان يَجْعَلُها لغيرِ مُهَذّب.

---

[١] ـ الشيخ عبد الحسن أحمد الأميني النجفي.

٢ـ وللسيد الحِمْيري أيضاً:

بـعدما قــــام خــطيباً مُعْلناً يــــوم خُمٍّ باجتماع المَحْفَلِ
قـــال: إن الله قــد أخــبرني في معاريض الكتاب المُنْزَلِ
أنــــه أكــمل ديــنـاً قَـيِّماً بــــعليٍّ بـــعد أن لـــم يكمُلِ
وهو مـــولاكم، فويل للذي يـــتولّى غـير مولاه الولي
وهو سيفي، ولساني، ويدي ونــصيري، أبــداً لم يَزَلِ
وَوَصيّي، وصفيّي، والـذي حُـبُّهُ في الحشرِ خيرُ العملِ
نوره نوري، ونوري نوره وهـــو بي مُتَّصِلٌ لم يُفْصَلِ
وهـــو فيكم من مقامي بَدَلٌ ويـــلٌ لمن بَدّلَ عَهْدَ البَدَلِ.

٣ـ وأنشد الشاعر الكُمَيْتُ عند الإمام الباقر عليه السلام:

ويوم الدوح، دوح غدير خمٍّ أبـــان لـه الولاية لـو أطيعـا
ولـــكنّ الـرجال تـبايعوها فـلم أرَ مـثلها خطراً منيعـا
ولـم أر مثل هذا اليوم يوماً ولـــم أرَ مـثلَهُ حقاً أضيعـا
فـــلم أقصد بـهم لَعْناً ولـكن أســاء بـذاك أولـهم صنيعـا
فـصار لـذاك أقربهم لعدلٍ إلـى جَوْرٍ وأقْرَبَهُم مُضيعـا
أضاعوا أمر قائدهم فضلّوا وأقربهم إلـى الحدثان ريعـا
تـناسَـوْا حقّه فبغَوْا عليه بـلا تِرَةٍ، وكـان لـهم قَريعـا.

٤ـ وقال الشاعر مهيار الديلمي:

واسألهم يوم خم بعدما عقدوا ... له الولاية: لِـمْ خانوا، ولِمْ خَلعوا
قولٌ صحيحٌ، ونيَّاتٌ بها دَغَلٌ ... لا يـنفع الـسيفَ صَقْلٌ تحته طَبَعُ
إنــكارُهم بأمير المؤمنين لها ... بــعد اعـترافِهِم عــاديَّةَ ادّرعوا
ونَــكْثَهُمْ بك مَيْلاً عن وَصيَّتِهِ ... شَرْعُ ـ لَعَمْرُكَ ـ ثانٍ بعده شرعوا.

٥ـ وقال الشاعر ابن الرومي

يا هِند لم أعشـقْ ومثلي لا يَرى ... عـشق الـنساء دِيـانـةً وتَحَرُّجـا
لــكن حبّي للوصـي مُخيِّـمٌ ... في الصدر يُسْرِجُ في الفؤاد تَوَلُّجَا
فهو السِّـراجُ المستنير ومن بـه ... سَبَبُ النجاة من العَذاب لِـمَن نَجـا
وإذا تـركت له المَحبَّة لم أجِدْ ... يـوم القيامـة مِن ذُنوبـي مَخرجـا
قل لـي أأترك مستقيم طريقـه ... جـهلاً وأتَّبِعُ الـطريـق الأعوجـا
وأراه كالتِّبر المُصَـفَّى جوهراً ... وأرى سِــواه لـناقديـه مُـبهرجَـا
ومحلــه مـن كُلِّ فضـلٍ بيِّنٍ ... عــالٍ مَحلُّ الشمس أو بَـدرُ الدجى

٦ـ وقال أبو العلاء المعرّي:

عـليّ إمامي بعد الرسول ... سيشفع في عَرْصَةِ الحَقِّ لي
ولا أدّعــي لعـليٍّ سوى ... فضائلَ فــي العقل لم تَشْكُلِ
ولا أدّعــي أنّــهُ مُرْسَلٌ ... ولــكن إمــام بـنصٍّ جلي
وقـول الرسول له إذ أتى ... لـــه سِيَما الفاضلِ المُفْضِلِ
ألا إن من كنت مولى له ... فــمولاه من غير شكٍ علي.

ممَّا قيل في مدح أمير المؤمنين عليه السلام

١ـ من قصيدة للسيد رضا الهندي:
(ولد في النجف الأشرف سنة ١٢٩٠ هـ ـ ١٨٧٣م، وتوفي سنة ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٣م).

سـوّدتُ صحيفـة أعمالـي ووكـلَتُ الأمرَ إلى حَيْدَرْ
هـو كَهْفِيَ مـن نُوَبِ الدنيا وشـفيعي في يوم المحشر
قـد تـمَّت لـي بـولايَتِهِ نِـعَمٌ جَمَّت عـن أن تُشكر
لأصـيبَ بـها الـحظّ الأوفى وأَخَـصَّصَ بـالسَّهْمِ الأوْفَرْ
بـالحِفْظ مـن النار الـكُبرى والأمْـن مـن الفزعِ الأكبر
هـل يمنعني، وهـو الساقي أن أشرب من حوض الكوثر
أم يـطردنـي عـن مـائـدة وضـعت للـقانع والمعتـر؟
يـا من قد أنكر مـن آيات — أبـي حسـنٍ مـا لا ينكـر
إن كـنت لـجهلك بـالأيـام جـحدت مقام أبـي شُـبـَّر
فـاسأل بـدراً، واسـأل أحُداً وسل الأحزاب، وسل خيبـرْ
مـن دبَّـر فيها الأمـر ومن أردى الأبـطال ومـن دمَّـرْ؟
مـن هدَّ حُصونَ الشرك ومن شـادَ الإسلام، ومـن عمَّـرْ؟
مـن قـدَّمَهُ طـه، وعلـى أهـل الإيـمان لـهُ أمَّـرْ.
قـاسوكَ أبـا حَسَنٍ بـسواكَ — وهـلّ بالطّود يُقاسُ الـذَرْ؟
أنّـى ساوَوْكَ بِمَنْ ناوَوْكَ وهلْ — سـاوَوْا نَـعْلَي قَنْبَـرْ؟
مَـنْ غَـيْرِكَ يُدعى للحرب — وللـمحراب وللـمنبـر؟
أفـعال الـخير إذا انـتشرتْ في الناسِ فأنْتَ لها مَصْدرْ
وإذا ذَكـر الـمعروف فـما لـسواك بـه شيءٌ يذكر
أحـييت الـدين بـأبيض قـد أودعت بـه الموت الأحمر
قـطبا للحرب يُديـرُ الـضَرْبَ — ويجلو الكرب بـيوم الكر
فـاصدع بالأمر فناصِرُك البتَّار — وشـانئـك الأبـتـر
لو لم تؤمر بالصبر وكظم الغيظ — ولـيتك لـم تـؤمـر
لـكن أعـراض الـعاجل مـا عـلقت بردائك يـا جوهـر

أنــت الــمهتم بــحفظ الــدين — وغـــيرك بـــالدنيا يـغتـر
أفـــعالك مـــا كـــانـت فـــيها إلا ذكـــرى لـمـن اذّكـر
حُـجـجاً ألـزمت بها الخُصماءَ — وتـبصرة لـمن استبصر
آيـــــاتُ جـلالك لا تُـحصـى وصفات كمالك لا تـحصـر
مـــن طـــوَّلَ فـيك مدائـحـه عـــن أدنــى واجبها قصَّرْ
فـــاقبل يـــا كـعبـة آمـالي من هدي مديحي ما استيسر.

□ □ □

نفسي بحب عليٍّ المُرْتَضى طربت
شربت كأس الولا مـن حُـرَة نَجُبَتْ
لا عـذّبَ اللهُ أمّـي، إنَّـها شَـربـت
حـب الـوصي وغذّتْنيه بـاللبـن

□ □ □

قـد كان لي والد يهوى أبـا حسنٍ
فصرت من ذي وذا أهوى أبا الحسن

□ □ □

الفهرس

المقدمة ٣
شرح سورة يس ٥
شرح سورة (ق) ٣١
شرح سورة الطور ٦٩
شرح سورة النجم ٩٣
شرح سورة القمر ١١٧
شرح سورة الرحمن ١٤١
شرح سورة الواقعة ١٧٥
شرح سورة الملك ٢٠١
شرح سورة القلم ٢١٩
شرح سورة الجن ٢٣٩
شرح سورة الإنسان - الدهر ٢٨٣